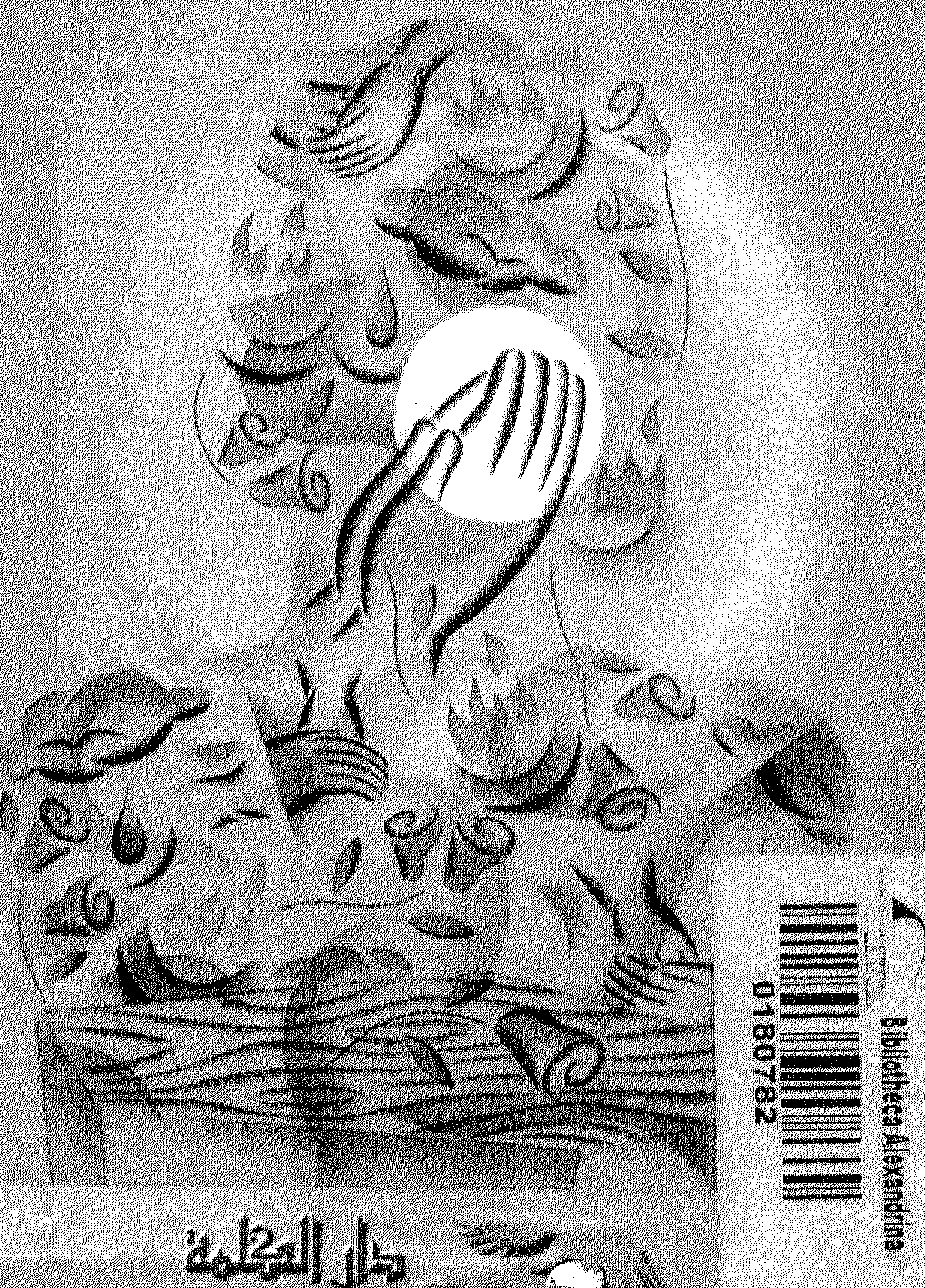
منطق الإيمان فى المسيحية

حنا عبد المسيح صموئيل



دار الكلمة
LOGOS

المنطق .. الإيمان
في المسيحية

المنطق .. الإيمان
في المسيحية

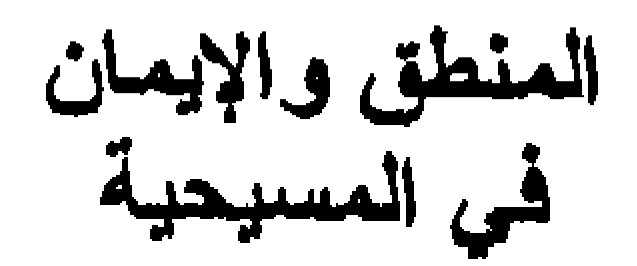
المنطق .. والإيمان

في المسيحية

حنا عبد المسيح صموئيل



القاهرة - مصر





القاهرة – مصر
٤ شارع حجاج من فريد الأطرش – عين شمس الشرقية
ت/فاكس ٤٩١٤٢٧٦
Email: elkalema@eis.com.eg

رقم الإيداع: ١٥٥٣٦/٢٠٠٠

ISBN: 977-6010-12-1

First Published in 2000

الطبعة الأولى ٢٠٠٠

إهداء

إليك أنت..
فالكتاب بين يديك ،
والأسئلة بعقلك ،
وربما لم تمس عمق قلبك بعد ،
إلا أنها موجودة بداخلك ..
تود أن تعبد الله ، ولكن ..
كيف...؟!

المؤلف

الفهرس

الفصل الخامس

من هو المسيح إذاً ..؟

الفصل السادس

لماذا مات المسيح..؟

الفصل السابع

المسيح هو الملك المنتصر

خاتمة

لماذا أنا مسيحي؟

المقدمة

مع تناثر الكتب والمقالات والتي تتناول العقيدة المسيحية بتعالٍ كبير ، لا ندري علته ، وجدت انه لزاماً على أن أضع هذه الكتيب حتى ما يتناول " منطق الإيمان في المسيحية " طمعاً في أن يكون عوناً لهؤلاء الكتاب ، علهم لا يتدنوا في المعالجة الغير أمينة لفحوى الإيمان المسيحي . كما أنني لم أقصد بكتيبي هذا دفاعاً عن عقيدتي ، فهي في حل من دفاعي عنها ، ولكن إيماناً مني بأحقية الآخر في معرفتي ، ومعرفة " منطق إيماني " ، لعلي أكون بهذا أعلن إحترامي له ، وقبولي له .

وبما أن البعض يعتقد بأن الإيمان والمنطق يتعارضان ، إذ يعتبر البعض الإيمان ما هو إلا تسليم ساذج بحقائق دينية معينة ، ولا يخفى على أحد أن هذا لا يكفي لإيمان واعٍ مستقر. فالإيمان هو حالة من القلق والإنفتاح اللا محدود على الكائن الأعلى فأتفاعل معه في عمق ذاتي، مما يؤدي إلى الإكتشاف ، وهذه اللحظة الكشفية هي التي تقفز بالإنسان إلى رحاب الإيمان ، محتفظة في الوقت نفسه بألمعية المنطق ، وإدراك ما كان غير مكشوف للإنسان قبل هذه القفزة .

كتب احد الكتاب المسيحيين قائلاً :" سمعت شخصاً يقول :أنتم المسيحيون توجعون قلبي . كل ما تطلبونه هو الإيمان الأعمى ، وكأن من يصير مسيحياً يجب أن ينتحر فكرياً . ولكنني أرى أن قلبي لا يمكن أن يقبل ما يرفضه عقلي ، فإن قلبي وعقلي عطية الله ليعملا معاً في توافق ، وقد أمرنا المسيح أن نحب الله بكل القلب وبكل الفكر (متى ٢٢ : ٣٧). فلم يطلب الله منا " إيماناً أعمى " بل " إيماناً واعياً " ..

" لأنني عالم بمن آمنت ، وموقن " (٢ تيموثاوس ١ : ١٢)
" وتعرفون الحق والحق يحرركم " (يوحنا ٨ : ٣٢)

فالإيمان المسيحي إذن مبني على براهين ، وهو إيمان بالعقل .وهو إيمان بالإنسان ، لذا فهو يذهب إلى ما هو أبعد من العقل ، لكنه ليس ضد العقل !

فإلى هؤلاء ، الذين اغمضت عيونهم عن أن يقرأوا كتباً تفيض بنور الحق واليقين• الإختباري ، أوجه الرجاء أن يطالعوا هذا الكتاب قبل أن يصدروا أحكامهم عن شخص المسيح ، أو أن يعيدوا النظر في قضية إيمانهم فيستمعوا للشهود من كل جانب ، ويزنوا الأدلة بميزان العدل والإنصاف ، ولهم بعد ذلك أن يصدروا حكمهم .

ولست أريد أن تخفى على أمثال هؤلاء قصة ذلك الفتى الذي دخل إحدى المتاحف التي تحوي صور شهيرة ، وبدأ يهزأ من تلك الصور ، عندئذ إلتفت إليه المراقب وقال بنغمة

جارحة : " تذكر يا بني أننا وضعنا هذه الصور لا ليحكم عليها الناظرون ، بل لتكون هي حكماً على الجميع . لأنها اجتازت فترة الإمتحان بنجاح باهر "

فبحكمك أيها القارئ ، على شخصية المسيح الفريدة المقدمة لك في هذا الكتاب ، أو بحكمك لها ، تحكم على نفسك أو لها . فأقرأ صفحة نفسك وأنت تقرأ هذا الكتيب ، وأصغ إلى همس ضميرك قبل أن تقول كلمتك فيه ، فإن مرآة صافية تتجلى فيها شخصية المسيح الحي .

المؤلف

الفصل الأول
أفكار عن الله والإنسان

مدخل..

الإيمان في عالم اليوم

كل من يحاول طرح ، في أيامنا ، مسألة الإيمان ، أمام مستمعين من قليلي الألفة ، أو عديميها مع لغة الكنيسة وفكرها بسبب واقعهم المهني أو الوسط الذي يعيشون فيه ، يحس للتو بتفرد المحاولة التي يقوم بها ، لا لغرابتها . إذ أن رجل الدين المسيحي ، الذي مازال يتدثر بزي القرون الوسطى ، أو أي عصر ماضٍ آخر ، لاينظرإليه الناس النظرة الجدية المبتغاة ، إذ مهما كان نوع الكلام الذي يقوله ، يظل هو موسوماً بسمة دوره ، ويدرجة الناس فوراً في مدرج التصنيف الخاص بهذا الدور . أي أن الناس يظلون ينظرون إليه نظرتهم إلى "ممثل" يقوم بالدور الموكول إليه مهما بذل هو من جهد ومهما اعتمد من أساليب لإقناعهم بجدية الوضع الذي يعرضه عليهم ، فهم مقتنعون ، مسبقاً ، بأنه إنما يلقي كلاماً من النوع الترويحي ، وبأنه يؤدي دوراً تمثيلياً لا علاقة له بالواقع . لذا تراهم يستمعون إليه بإسترخاء غير عابئين بأقواله ، مع أنهم في الغالب ما يذهبون إليه ، حيث يؤدي دوره .

إنها صورة تعكس ، بقدر كاف من الدقة ، إغتراب الكنيسة بلغتها وإصطلاحاتها عن المجتمع الذي تعيش فيه ، وهو ما يؤثر على توصيل مضمون رسالتها .إذ نجد رجل الدين متكلماً بلغة منقرضة وسط العالم الحديث ، عاجزاً عن فهم هذا العالم وعن الحوار معه . فضلاً عن هذا نجده يتدثر بثياب الإيمان ، الذي لا ينتابه الشك ولا للحظة واحدة ، ويتكلم بمنطق العالم بكل بواطن الأمور ، إلا أنه إذا كان يتحلى بقدر كاف من الأمانة و روح النقد فلن يلبث أن يلاحظ أن الصعوبة المعينة لا تقتصر على مجرد مسألة شكلية أو نفور ناجم عن تضارب في الزي . وإذا ما تعمق في فهم الوقائع يطلع ، من خلال هذه المحاولة الغريبة التي يحاولها تجاه الناس المعاصرين ، إذ يحدثهم عن الإيمان ، لا على الصعوبة المتمثلة في بلوغ أفهامهم فحسب ، بل أيضاً ، وفي الوقت نفسه ، على عدم إستقرار إيمانه هو بالذات ، ويلمس مقدار القوة التي يتصف بها الإلحاد المعاصر والتي تعمل على وضع العراقيل في وجه إرادته المتشبثة بالإيمان .وعندما يعتزم ، بصدق وإخلاص ، أن يعرض الإيمان المسيحي ، يرى نفسه مرغماً على الإقتناع بأن سوء التفاهم بين رجل الدين ورجل

الشارع ، العامي ، ليس ناشئاً عن الزي الذي يرتديه فقط ، هذا الزي الذي يظن أن تغييره يمكنه من إقناع الآخرين . فخلافاً لما كان يعتقد في البداية ، عليه أن يدرك أن وضعه لا يختلف كثيراً عن وضع سواه من الناس ، لأن الواقع الراهن يبين له أن الحواجز الخارجية نفسها قائمة لدى كلا الطرفين ، وإن كانت بأشكال مختلفة ولا شك .

رجل الدين ، وهو هنا يمثل رجل الإيمان المبشر به ، والداعي له ، هو أيضاً له مشاكلة والتي تتمثل في الشك ، وهو الذي يظهر في لحظات التجربة ، حيث يظهر بصورة شرسة لتحول كل ما كان يعتقده حقيقة واضحة إلى صورة هاشة . وأما من يعترض على ذلك ، فاياه نسأل : هل أنت في الإيمان ؟ . فلا غرابة إذاً لسؤال السيد المسيح حيث قال :" متى رجع ابن الإنسان هل يجد الإيمان على الأرض ؟" ...

المؤمن ، وغير المؤمن ... هل من تلاقي ؟

لئن كان المؤمن لا يستطيع أن يمارس إيمانه إلا على أرض التجربة والريبة والشك، فإن غير المؤمن لديه هو أيضاً مشاكله ، ويتهدده ، على الدوام ، خطر السقوط في الفراغ . وهو لن يستطيع ، أبداً ، أن يتخلص من السؤال المنغص : هل المذهب الوضعي في التفكير هو الحقيقة ؟ وذلك بالرغم من مفاخرته بكونه صاحب موقف وضعي صرف ، وبأنه قد تخلص ، منذ أمد بعيد ، من كل نزعة إلى التفكير الماورائي (الميتافيزيقي) ، ولم يعد يوقن إلا بالحقائق المحسوسة . ومن هنا ندرك الواقع الذي يقودنا إلى تشابك المصائر البشرية ، إذ كلاهما يعيش حالة من القلق المستمر ، تهدأ حيناً ، إلا أنها سرعان ما تثور في عقله من جديد .فما يحدث للمؤمن في صراعه مع وساوس الشك ، يحدث أيضاً لغير المؤمن إذ ينتابه الشك حيال إلحاده ، فهو لا يستطيع أن يثبت أن هذا الكون المرئي الذي أعلن أن كل الوجود ماثل فيه يؤلف ، حقاً ، الوجود بأكمله . لن يكون غير المؤمن أبداً واثقاً الثقة التامة باقتصار الوجود على هذا العالم المرئي الذي اعتبره شاملاً الوجود بكليته ، وسيظل يتعذب على الدوام من جراء مسألة الإيمان الذي يخطر له ، بالرغم من صعوبتة على الفهم العقلاني ، أنه ربما كان يعبر عن الحقيقة . من المستحيل التملص من معضلة المصير الإنساني . فمن أراد الهروب من الشك الذي يرافق الإيمان يقع في الإرتياب الذي يلازم الإلحاد ، لأن المرء ، نتيجة ، مرتاب أبداً حيال مسألة الإيمان ، إلى درجة يصح معها القول بأن إستحالة رفض الإيمان إنما تظهر جلية خلال عملية هذا الرفض عينه ، لمن يجربها .

فمن كل ما سبق نخلص إلى أن المؤمن ، نظير غير المؤمن ، أو كل منهما على طريقته ، يختبر الشك والإيمان ، إذا كان كل منهما لا يحاول إيهام نفسه وإخفاء حقيقة

وجوده عن ذاته . فلا أحد يستطيع أن يتملص تماماً من الإيمان . فالإيمان موجود لدى الواحد منهما بصورة النقيض للشك ، وموجود لدى الآخر بفضل الشك وعلى شكل الشك . إنه ناموس أساسي من نواميس المصير البشري أن تحقق البشرية وجودها عبر هذه الجدلية الدائمة بين الشك والإيمان ، وبين التجربة واليقين . فبهذه الطريقة يتمكن الشك ، الذي يمنع الواحد والآخر من أن يسجن نفسه في برجه العاجي ، وأن يتحول إلى حيز المشاركة . لأن المؤمن وغير المؤمن يلتقيان عند إنفتاح الواحد على الآخر ، فلا يعود كل واحد منهما يتقوقع على ذاته . وهكذا يتسنى للمؤمن أن يشاطر غير المؤمن مصيره ، يتسنى لغير المؤمن ، بفضل الشك ، أن يشعر بالتحدي الذي يطرحه الإيمان بصورة لا هوادة فيها .

هذا عن الموقف العام وبشكل شمولي ، أما إذا ما تأملنا ، وبصدق في واقعنا العربي ، نجد أن العوائق معظمها تاريخي وليست عوائق فكرية بالمرة . وهي متواجدة ، وبشكل راسخ بداخل كلينا – المسيحي والغير مسيحي – تفصلنا أحداث تاريخية تلقيناها في وجداننا ، وترسخت حتى ما صارت مشكلة ، أحكام مسبقة على الأخر . لذا ما نعيشة نحن العرب - مسيحيين وغير مسيحيين – هو في الحقيقة قمة التناقض ، إذ أننا ننظر إلى الآخر على أنه قريبي ، يدعوني إلهي إلى أن أحبه كنفسي ، بينما هو ينظر إلى على أنني مشرك (عابد لثلاثة آلهة " الأب ، الابن ، الروح القدس") ، وهو في الوقت ذاته يقبل طعامي ، وشرابي ويقر بوحدانية أعبدها ، بل وحتى أنه يقبل الزواج بأختي ، ويقبل أن تظل على عقيدتها ، فلا غضاضة لديه ، فأنا من أهل الكتاب (أي أن لدى كتاب سماوي نظيره). تناقض عجيب !!!!، و الأعجب الا نفطن ونتأمل فيه محاولين إستجلائه ، وإستنطاقه عن حقيقته !!

لماذا نقول كل هذا ، ونحن بصدد الكتابة عن منطق الإيمان المسيحي ؟!! يوجد عدة أسباب :

أولها : أنا عربي ، وأعترف بعروبتي وافتخر بإنتمائي إلى وطني العربي ككل ، وكذا بإنتمائي لمصر " بلدي " بشكل خاص . وعقيدتي تطلب مني أن أفهم اليوم أخي ، لا بل أتفهمه ، وأحبه .. ولا تتوقف عند حاجز الدعوة إلى عقيدتي . بل إلى الإعتراف بأحقية كلينا في الإختلاف .

ثانيها : أنا مسيحي وأحب إلهي ، فكلما اندفعت إليه (إلى إلهي) دفعني بدوره ، تجاه أخي (وهو ما يرادف العبارة الإنجيلية قريبي) ، فكل يوم وأنا أحاول فهم كلمات كتابه المقدس أسعى للفهم وإستجلاء رسالته لي ، الآن . وكلما فعلت ذلك دفعني تجاه أخي ، جاري ، قريبي وطالبني بنفس الدور ، الذي قدمه هو ذاته كنموذج . لذا أحاول هنا ، في هذا الكتاب ، تقديم شهادتي عن إيماني ، بحسب إختباري ، عن إلهي ، إلى قريبي بكل الحب

والتفهم له ، وبكل الإحترام للإختلاف بيننا ، وبنفس الإحترام لمن يتفق معي ويريد أن يتشجع بشهادتي ويتثبت .

والآن الا ترى معي بان ، محاولة الخروج عن الزي اللاهوتي المسيحي ، يعني المزيد من الحرية التي تمكنني من مزيد من المحبة لك .

وأول ما يلزمنا هو إيجاد تحديد لكلمة " إيمان "بشكل عام في البداية ، ثم في المنطوق المسيحي بشكل خاص .

الإيمان .. تحديداً ..

يقول كوستي بندلي :" عندما يتحدث الناس عما يؤمنون به ، فكثيراً ما يقصدون أفكاراً اعتنقوها أو مبادئ تبنوها أو معتقدات انتموا إليها . لذا فالسؤال المطروح غالباً هو : **بماذا تؤمن** ؟ أما الإيمان المسيحي الأصيل ، فليس في الأساس ، تصديقاً لأفكار أو اعتناقاً لمبادئ ، إنما إرتباط صميمي بشخص حي هو الله . في منظار كهذا لم يعد السؤال اللائق هو : بماذا تؤمن ؟ بل : **بمن تؤمن** ؟ ، بل الانتماء إلى الله كالى مصدر كياننا ومرتكزه ومرجعه . إنه إدراك حي ، كياني ، لوجود الله ، لا كما تدرك حقيقة رياضية أو طبيعية أو تاريخية ، بل كما يدرك وجود كائن نحن مرتبطون به في الصميم ، ومنه نستمد وجودنا في كل لحظة.."[1] . أي أن الإيمان هو موقف كياني تجاه شخص حي ، حقيقي ، غير منفصل عن واقعنا ، يطالبنا لا أن نعبده فقط بل أن نتبعه ، وهذا يعني أنه مرتبط معنا في واقعنا الحياتي ، وهو إعتراف بأحقيته في العبادة ، حق الشجرة تجاه الزارع (راجع مثل الكرمة والكرام إنجيل يوحنا الإصحاح ١٥)، بينما هو يرعاها بالسقاية والتشذيب والتسميد ، عليها أن تنمو وتثمر .

من هنا ، لا نعجب إذ نجد أن قانون الإيمان المسيحي يستهل بكلمة " **أؤمن** " وليس كلمة " **نؤمن** " ، لتظهر قيمة الإعتراف بالموقف الشخصي بقيمة الفرد ، بل وأيضاً بقدرته، على اتخاذ موقف واعي ، بكل كيانه ، بالإيمان ، لكل عقل مستنير ، بالإيمان بيسوع المسيح ، الكرمة الحقيقية التي تمكننا من التمتع بكل رعاية لله ، بل والرجوع إلى حالتنا الأولى . ألا تكشف لنا محاولات الإنسان الدؤوبة في البحث عن الفردوس المفقود ، والمدينة اليوتوبية ، أو أطلنطا المفقودة ، أو .... أدبيات الإنسان تكشف عن جوعه لهذه المفقودة المثلى ، لذا يعتبر الإيمان المسيحي ، هو ايمان بالمسيح ، ليس فقط المخلص ، بل رب الحياة .

---

١ - كوستي بندلي و مجموعة من المؤلفين ، مدخل إلى العقيدة المسيحية ، منشورات النور ، لبنان ، ط ٤ ، ص ٢٣.

حاجة الإنسان إلى الله

مرت عصور التاريخ وهي في حالة من الإفلاس الروحي خاصة في عصرنا هذا ، وتطلعت الإنسانية فيه بأعين متوسلة وقلوب شيقة لحو إيمان راسخ بقوة ما – بل بشخص ما قد ارتفع عن جهالة البشرية ونقائصها – بشخص قادر على إشباع فقرها الروحي ، وسد رغائبها القلبية ، وذلك لأن هذه المدنية العصرية وما فيها من تعقيدات ومضاعفات ، وما تمخضت عنه من إكتشافات علمية ، ومخترعات عجيبة ، قد فشلت كل الفشل في سد حاجة الإنسان الروحية إلى الله ، بل لقد حملته على أن يستأنف السير ، حائراً قلقاً ، يبحث عنه تعالى شأنه . ثم هذا التطور الأليكترولي ، واضطراب المالية الدولية ، وكثرة المخترعات الحربية ، كل هذه قد أورثت العالم فوضى اجتماعية وصراعاً عنيفاً بين مبادئ سياسية متضاربة ، وتركته في فزع مروع من حرب عالمية توشك أن تدمر هذه المدنية العصرية بأسرها . وبينما تنافس الدول كلها في التسلح وتكديس الذخائر الحربية ، والعدد الهائلة منها، إذا بنا نسمع مع الطبقات المختلفة نداء صارخاً بحاجتنا الماسة إلى " التسلح الأدبي " ، بضرورة رجوعنا إلى الله !

ولسنا نسمع هذه الصرخة الداوية بين الهيئات والجماعات فحسب ، بل إن صوتها يكاد يصم آذاننا إذ نسمعها منبعثة من قلوب الأفراد . ولقد أخذ الإنسان العصري يحس تدريجياً بضآلة هذه الحياة الدنيا التي يحياها ، هذه الحياة القاصرة على الماديات والعقليات ، إذ قد عجزت المادة عن أن تشبع طبيعة الإنسان . كما نادى العقل أيضاً بحاجته الماسة إلى أساس روحي وطيد يقيه شر الإنحدار إلى هوة يأس الإلحاد العقيم . إن هذا الإنسان المفكر يحتاج اليوم إلى ثقة روحية تضمن له أن للحياة قيمة ، تضمن له أن الحياة ليست عبثاً . كما أنه يتوق إلى مثل أعلى يكافح لأجله ويسعى إليه .

وفوق ذلك فإن الإنسان يزداد إقتناعاً يوماً بعد يوم بأن كل المشكلات الاجتماعية ، ومعضلات الفرد إنما تعزى في النهاية إلى طبيعة القلب البشري . هو ذا علم النفس يحدثنا عن " العقد " و " الكبت " و " الضبط " و " التسامي " ، أما الإنسان العادي فإنه في هذه اللحظات التي يخلو فيها إلى نفسه ، يحدثها ويستمع إليها ، يشعر شعوراً عجيباً بضعف أدبي ، ودوافع زائفة ، وفشل روحي . أو بعبارة أخرى إن مشكلة الإنسانية ما زالت هي تلك المشكلة القديمة ، ألا وهي مشكلة الخطية ، تلك المشكلة التي لم تفلح المدنية في إقتلاع جذورها قط ، وإنما اقتصرت في محاولاتها على علاج مظاهرها ، وبعض فروعها ، وإنتهت من محاولاتها هذه بكثير من الإخفاق . فالعلاج الوحيد لخطية البشر هو غفران إلهي ، وقوة إلهية .

ولكن يبقى سؤال هام ، يحوي بداخلة الكثير من الأسئلة والتساؤلات : ماهي الخطية ، ومن أين أتت ، وكيف عرفها الإنسان ،......؟!! وما هي آثارها على الإنسان والعالم ، وهل الخطية هي فعل الشر ، أم هي عدم إقامة الشعائر الدينية التي إرتضاها الإنسان ؟؟

وكما أسلفنا ، فإن هذا السؤال يدفع بنا إلى بحر يموج بالأسئلة . إلا أن منطق الإيمان المسيحي يقود الإنسان إلى تنظيم فكره حتى ما تكون له عقيدة سوية عن الله ، إذ أن إلهنا "إله ترتيب ونظام" . كما أن أي عقيدة لا تقوم بعيدة عن المنطق العقلي ، مكتفية بالتسليم الساذج ، هي عقيدة ساذجة ، وهو ما يتنافى مع مفهوم الإيمان المسيحي !! . وإذا ما عدنا لسؤالنا ، أو لأسئلتنا ، نجد أن الإيمان المسيحي يرى فيها – أو فيه – إعتراف بثلاثة أشياء وهي :

- الله .. وهو من وقع في حقه الخطأ ، أو التعدي كما يعرفها به الكتاب المقدس إذ يقول: " **الخطية هي التعدي** "
- الإنسان .. وهو الطرف الذي يقوم بهذا التعدي على الله
- الخطية .. وهي مضمون الحالة التي تحدد وتفسر لنا حالة الإنفصال والإفلاس التي يحيا الإنسان ، وفي عصرنا هذا النموذج الأكمل لفس الإنسان وخواءه سواء الروحي أو النفسي .

وهذا بالتالي يقودنا إلى حقيقة أولية ، لا يجوز لنا تخطيها ، وهي كيف أدرك الإنسان حالته ما لم يعلن له !! . وكل الأديان تقر بضرورة وجود عملية إعلان وأطلق على هذه العملية " الوحي الإلهي " ، لذا وجب علينا أن نقف متأملين أمام طبيعة وكيفية هذا الوحي الإلهي للإنسان .

الوحي الطبيعي (إعلان الله عن نفسه في الطبيعة)

غير أن العقل الحديث المعتصم بمبادئ البحث العلمي، رغم كونه مندفعاً إلى البحث إندفاعاً عن إيمان وطيد بإله حي ، إلا أنه لا يجد هذا الإيمان ميسوراً مثلما كان ميسوراً لغيره في أجيال غابرة ، فقد تغلغلت في الإنسان روح البحث العلمي ، فهو لا يفتأ يتسأل :

أحقاً يوجد إله ؟
أمن المستطاع أن نقيم الحجة على وجوده ؟

وجوابا على هذا يستند المسيحي في معظم الأحيان إلى الإعلانات الإلهية الخاصة ، والاختبارات الروحية الشخصية ليدافع بها عن إيمانه ، وهو محق في ذلك ، فهذان النوعان من البراهين ليسا مجرد أوهام أو خيالات ، بل هما على عكس ذلك حقيقتان راسختان يدعمهما الدليل والإثبات . ولكن بغض النظر عن هذين العمادين للإيمان ، ألا يمكن التدليل على وجود الله وصفاته عن طريقة الإستدلال المنطقي مبتدئاً بالبديهيات الأولية ؟

وجوابا على ذلك نقول ، أن هناك على الأقل أربع حجج ترجح كل منها وجود الله . وإن كنا نسلم بأن كل واحدة منها بمفردها برهان على كائن مطلق ، لكنها مجتمعة معاً ، تجعل وجوده تعالى مما لا يشك فيه إلا كل ممعن في التعصب ، أو مسوق وراء الأوهام . وإليك عرض موجز غاية الإيجاز لهذه الحجج الأربع :

- هناك مثلاً الحجة المستمدة من علة نظام الكون The Cosmological Proof التي تقوم على أن كل معلول لا بد له من علة . لأن الكون ليس في الواقع بمرتب على مجرد التتابع الزمني ، بل على علاقات مسببة . وعلى هذا المبدأ لا بد من وجود علة أولى أو سبب غير مسبب . وهذه العلة الأولى ، وهذا السبب غير المسبب ، لا يمكن أن يكون هيولياً بل بالحري معنوياً وروحياً – إرادةً وعقلاً – أو بعبارة أخرى لا يمكن إلا أن يكون هو الله !!
- ومثلها الحجة المستمدة من غاية القصد في الكون The teleological Proof وهي ترتكز على ما نلمسه في الكون من غاية رشيدة سامية يسعى إليها الإنسان – فهذا جناح العصفور ، وزعنفة السمكة ، و " خف " الجمل – كلها مرتبة لغاية معينة – وهذا النظام الكوني ، بما فيه من أفلاك ثابتة ، وسرعة مرتبة ، ومسافات منظمة وفق قواعد رياضية – فلا مندوحة للإنسان أن يستنتج من كل هذا أن وراء هذا الكون عقلاً يديره وينظمه .
- أضف إلى ذلك " الحجة المستمدة من طبيعة الإنسان " The Anthropological Proof التي تقيم القياس تصاعدياً من الإنسان إلى الله ، ومن الطبيعة البشرية إلى الطبيعة الإلهية . لأن طبيعة الإنسان العقلية ، والأدبية ، والروحية ، تتطلب خالقاً متفوقاً . فوجود الإرادة البشرية يدل حتماً على وجود إرادة فائقة . كما أن وجود الضمير وما يحس به من وجود شرائع أدبية ، يقودنا من غير شك إلى التسليم بوجود مُشرع . إن الطبيعة الإنسانية نفسها لتتطلب كائناً يستطيع أن يشبع الجوع الروحي الذي يحس به الإنسان ،

كما أن التفكير ، والبصيرة ، والنظام ، والحياة ، تتطلب وجود مفكر ، ومبصر ، ومنظم ، ومصدر للحياة .

❖ والحجة الرابعة هي <u>الحجة المستمدة من حتمية الوجود</u> The Ontological Proof التي يقصد منها أن تصوراً خفياً في عقل الإنسان ، يدله على وجود عيني خارج الإنسان . فإذا تبين – وهو الواقع – أن في كل أمة ، وفي كل طور من أطوار التمدين ، بل في كل كائن حي ، على وجه التقريب ، اعتقادا غريزياً بوجود إله ما ، أفلسنا مسوقين إلى أن نسلم في النهاية بأن هذه العقيدة تقوم على حقيقة واقعة لا يأتيها الشك البتة ؟!

استعلان الله (الخاص)

على اننا نعترف ان كلاً من هذه الحجج بمفردها ، ليست بالبرهان العلمي المطلق . وهذا ما ينتظر بطبيعة الحال ، وإلا فقد أصبح الإعتقاد بالله ، لا علاقة له على الإطلاق بالإيمان القلبي ، ولهبط هذا الإعتقاد إلى مجرد الإثبات الإستقرائي . أما هذه الحجج بجملتها فإنها ترجح على الأقل وجود الله ترجيحاً يقرب من درجة اليقين ، كما أنها تشير أيضاً إلى كونه تعالى ، ليس عقلاً وإرادة فحسب ، بل شخصية جليلة ممتازة ، تبدو الشخصية الإنسانية إزاءها صورة مصغرة .

أما هذه البراهين المنطقية مهما أثبتت وجود الله ومهما بينت بعض صفاته تعالى فإنها عجزت على كل حال ، عن أن تأتي الإنسان بصورة دقيقة محددة لهذا الإله . بل أفلا يغلب على الظن ، أن شخصاً علوياً هذا وصفه ، يشعر بما تحس به مخلوقاته البشرية من حاجة قوية إليه ، ترغب في إعلان ذاته لهم ؟ فلن يستطيع الناس بغير هذا الإعلان معرفته معرفة شخصية حية كافية . حقاً إن إلهاً ، هذا بعض وصفه ، لن يتوانى عن أن يسد حاجة مخلوقاته .

ولكن كيف يا ترى يقوم بهذا الإعلان ؟

لن يكون هذا بمظاهر خارقة للطبيعة أو آيات فلكية ، لأن هذه لن تسد إحتياجات روحية . بل أكبر الظن انه يختار أشخاصاً يمتازون عن غيرهم ببصائر روحية ، ليبلغوها الأخرين . ومن هذا الطراز ، الأنبياء . ومهما يكن هذا الإعلان عجيباً فإنه يقصر عن أن يملأ حاجات البشرية وأشواقها بشكل كاف ، بل لن يتأتى حتى يظهر هذا الشخص الإلهي ذاته وجوهره في شكل بشري عائش كإنسان بين الناس . حينئذ ، وحينئذ فقط يستطيع الإنسان أن يتعرف حقيقة ذات الله وصفاته ، بل شخصيته تعالى ، على قدر إحتمال الطاقة البشرية . بل

ويستطيع الإنسان أيضاً أن يتبادل وإياه حباً خالصاً شخصياً ، لأن هذا الإله المتعالي قد أصبح صديقاً .

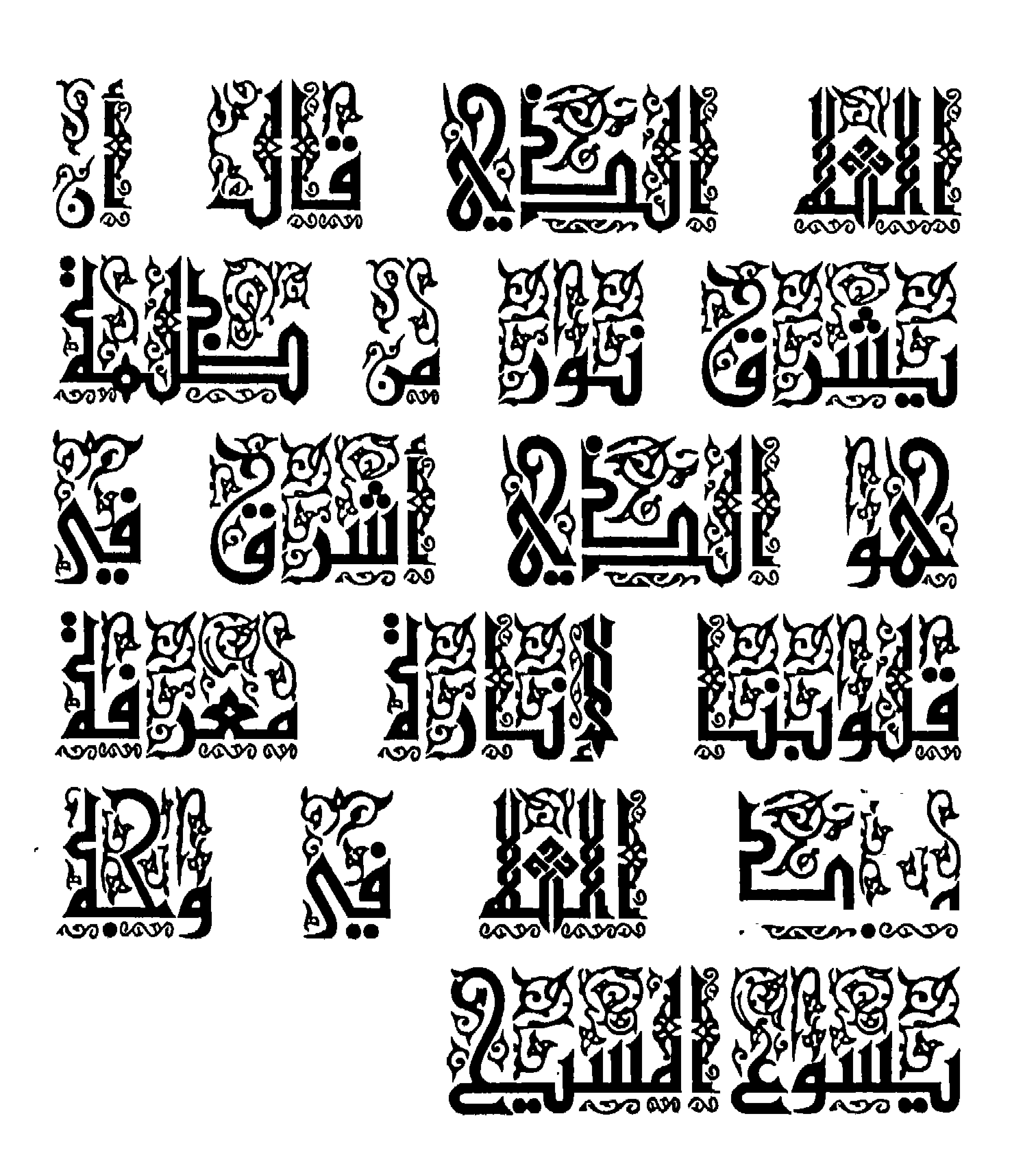
إلا أن إعلان الله عن نفسه لي ، هو كشف شخص لشخص ، كشف شخص الله غير المحدود لشخصي المحدود ، وهذا الكشف لا يتم إلا في لقاء حبي بين الله وبيني . واللقاء يتطلب أن يسعى الشخصان أحدهما إلى الآخر . الله يسعى دوماً إلي لأنه يحبني ، ولكنه لا يكرهني على أن أسعى إليه ، لأنه يحترم حريتي . وكما أن الإنسان إذا أغلق قلبه دون إنسان آخر ، لا يستطيع أن يفهمه ولا يحس حقيقة بوجوده ، هكذا بالحري الإنسان الذي يعظم نفسه ويكتفي بذاته ، لا يمكنه أن يعرف الله .

هذا هو الإعلان عينه الذي تدعيه المسيحية كحقيقة تاريخية إذ أرسل الله أنبياءه معلناً عن ذاته وصفاته ، غير أن هذا الإعلان لم يكن كافياً . إذ كان مجرد معرفة سمعية ، ولذلك في ملء الزمان جاء " الكلمة " الأزلي الذي هو من ذات الله وجوهره ، " **صار جسداً** " و " **حل بيننا** " ، فلنا في يسوع الناصري صورة كاملة للذات الإلهية ، على قدر ما يحتمل جسد إنساني محدود أن يظهر هذا المجد الأزلي غير المحدود .

هذه هي الرسالة التاريخية التي تؤديها المسيحية وسوف نناقشها في الفصول القادمة ، لنبين إذا كانت الحقائق الواقعية كافية لإقناع عقولنا وقلوبنا ، إدراكنا ووجداننا ، حتى نجد في المسيح التاريخي الحي يقيناً وراحة وحياة .

" الله بعد ما كلم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة ، كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه الذي جعله وارثاً لكل شئ الذي به أيضاً عمل العالمين . الذي وهو بهاء مجده ورسم جوهره ، وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته ، بعد ما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا ، جلس في يمين العظمة في الأعالي "

(عبرانيين ١ : ١ – ٣)


الله الذي قال أن
يشرق نور من ظلمة
هو الذي أشرق في
قلوبنا لإنارة معرفة
مجد الله في وجه
يسوع المسيح

الفصل الثاني

المسيح حقيقة تاريخية

الا ترى معي بانه من المستغرب أن نرى من اللازم لنا أن نبدأ بحوثنا في الإعلان المسيحي بالتحقيق من أن المسيح نفسه كان في الواقع حقيقة تاريخية ، لا مجرد شخص خيالي خرافي ؟ ، ولكننا قد صادفنا هذا الرأي الغريب عند قوم من الذين اتفق لهم أن قرأوا كتب الملحدين دون غيرها من كتب العلم الحديث ، والذين يصدقون كل ما يقرأون ، من غير بحث تاريخي أو إستقراء منطقي . ومع أن الوثائق الموجودة عن سيرة المسيح وفيرة جداً ، والجانب المتعلق منها بالإسبوع الأخير من حياته ، يزيد وفرة على أي نوع أو عدد من الوثائق المتعلقة بأي أسبوع آخر في التاريخ القديم ، إلا أنه – على ما يظهر – لا بد من قوم ينكرون كل ما يجهلون ، ويجحدون كل ما لا يتفق وفلسفتهم .

- ❖ فهل كان المسيح إذن شخصاً تاريخياً ذا لحم ودم ، قد عاش بين الناس في عالم الحقيقة والواقع ؟
- ❖ أو كان مجرد مثل أعلى اخترعته مخيلة المسيحيين الأولين كأساس لدينهم ومصدر لوحي خاطرهم ؟
- ❖ هل توجد وثائق كتابية معاصرة تبرهن على حقيقته التاريخية ، أو هل نعتمد على مجرد أحاديث شفوية؟
- ❖ ثم ما هي هذه الوثائق ، وما الثقة التي تعيرها إياها أساليب النقد والبحث الحديث ؟

وجواباً على هذا نقول أن الوثائق الكتابية التي بلغتنا هي وفيرة وقديمة . أما أهم هذه الوثائق فهي أربع بشائر (متى ، و مرقس ، و لوقا ، ويوحنا) ، وعدة رسائل كتبها زعماء الكنيسة الأولى لجماعات من المؤمنين (كما هي الآن موجودة في العهد الجديد) مع آثار أخرى مخلفة لنا من المسيحيين الأولين . ورب سائل :

هل من وثائق أخرى غير العهد الجديد تبرهن على حقيقتة التاريخية ، مما لا يمكن إتهامها بالتغرض والتحيز ؟

وجوابنا على ذلك نقول : إن وثائق أخرى قد حفظت لدينا من كُتّاب الرومان الوثنيين في ذلك العصر ، وقد جاء في كتاباتهم ذكر المسيح . فلنبحث في هذه الوثائق بشئ من التفصيل:

شهادة الخصوم :

منذ ختام العصر الأول للميلاد ، على وجه التقريب ، نجد كتاب الرومان يذكرون المسيحيين كجماعة مألوفة مشهورة في كثير من أنحاء الإمبراطورية . ومن أقدم هذه الإشارات إلى شهادة المسيحية وإلى موقف الحكومة إزاءها ، ما دونه " **بليني الأصغر** "[1] – وقد كان حاكماً رومانياً على بيثنية – في إحدى رسائله المشهورة التي بعث بها إلى الإمبراطور " **تراجان** "، حوالي سنة ١١٤ م ، يطلب فيها نصيحته في معاملة المسيحيين. أما هذه الوثيقة فهي تشهد للمسيحية وإتساعها في هذا التاريخ القديم ، ولا سبيل إلى دحضها ، لأنها كتبت كإشارة رسمية بقلم شخص لا مصلحة ذاتية له في الأمر . فكتب أنه قد استجوب كثيرين من المسيحيين وعاقبهم. أما بعض الذين اتهموا بالمسيحية فإنهم " أنكروا أنهم مسيحيين وصلوا للآلهة طوعاً لأمري ، مع سجودهم لتمثالك ... وفوق ذلك فإنهم شتموا المسيح ، ولقد قيل أن المسيحيين الحقيقيين لا يمكن إجبارهم على أن شيئاً من هذه ". ثم قال إن " **المسيحيين** " على ما يظهر ، " كانوا يقسمون ألا يسرقوا ولا ينهبوا ولا يزنوا أو يخالفوا وعودهم أو ينكروا وديعة سلمت إليهم ". ويذكر أيضاً أن " كثيرين من مختلف السن والمرتبة والجنس " **انضموا إليهم** " لأن عدوى هذا المذهب لم تكن قد تغلغلت في المدن وحدها ، بل سرت أيضاً إلى القرى والريف " ، إلا أنه اقتنع أنه يمكن إستئصاله بعد زمن قصير ! لكن التاريخ قد كذب إقتناعه هذا !!

وكان "**تاسيتوس**"[2] المؤرخ المشهور لذلك العصر، كما كان حاكماً لآسيا عام ١١٢م. يشهد أيضاً لإتساع المسيحية ، فيما كتب عن اضطهاد المسيحيين في أثناء حكم " نيرون " . قال في مؤلفه التاريخي :" المسيح الذي تسموا باسمه قد كابد قصاص الموت في أثناء حكم طيباريوس قيصر ، على يدي والٍ من ولاتنا اسمه بيلاطس البنطي ". ونجد أيضاً قوانين رسمية ومهاجمات من كتاب وثنيين آخرين من ذلك العصر ، مما يدل حتماً على صدق هذه الحقائق . وبدهي أنه لم يكن من داع لذكرها لو لم تكن حقائق وثيقة لا يأتيها الشك من إحدى نواحيها .

١- جوش مكدويل ، برهان يتطلب قرار ، ترجمة القس منيس عبد النور، دار الثقافة المسيحية ، ط ٢، ص ١٠٩

٢ - جوش مكدويل ، المرجع السابق ، ص ١٠٧.

كما أننا نجد " التلمود البابلي "[٣] يشير إلى المسيح بالقول :"...علقوه ليلة عيد الفصح " . بل ويدعوه التلمود اليهودي " ابن بانديرا" وهي إستهزاء بكلمة " بار ثينوس " اليونانية والتي تعني " العذراء " . كما يقول الكاتب اليهودي " كلاو سنر ":" كان الاعتقاد بميلاد المسيح غير الشرعي شائعا بين اليهود ".

وفي وصف ليلة الفصح يقول التلمود البابلي :" وفي ليلة الفصح علقوا يسوع الناصري ، وسار المنادي لمدة أربعين يوما ، يعلن كل يوم أنه سيرجم لأنه مارس السحر وضلل إسرائيل . ودعا كل من يعرف دفاعاً عنه أن يهب للدفاع . ولكنهم لم يجدوا من يدافع عنه ، فعلقوه ليموت ليلة عيد الفصح " .

وثائق المسيحيين أنفسهم

ومهما يكن من الأمر ، فإننا بطبيعة الحال نرتكن فعلاً في درس تفاصيل سيرة المسيح على وثائق المسيحيين أنفسهم .لأن الأخصام لم يهتموا قط بهذه التفصيلات ، أما المسيحيون الأولون ، فإنهم لم يكتبوا شيئاً – في الغالب – قبل صعود المسيح إلى السماء ، بل كل التعاليم التي قدموها للمتنصرين الأولين الذين لم يتمتعوا بسماع أقوال المسيح نفسه ورؤية اعماله ، كانت شفوية ، كما جرت العادة في بلاد الشرق حيث تقوى الذاكرة إلى حد عجيب ، ولا سيما قبل إختراع الطباعة . على أنهم لجأوا بعد زمن قصير جداً إلى آثار كتابية . أما هذه الآثار فإنها تحتوي على رسائل مبعوثة من طرف قادة الكنيسة إلى جماعات من المؤمنين ، ومواعظ ألقاها هؤلاء القادة ثم دونها أحدهم تدويناً ، ومقتطفات من شرح العقائد المسيحية مؤلفة لمساعدة المتنصرين ، وأسفار تاريخية عن سيرة المسيح والرسل ، ومؤلفات تدافع عن المسيحية تجاه مهاجمات الخصوم . وقد بلغتنا مجموعة وافرة من هذه الآثار ، من أكلمندس Clement وأغناطيوس Ignatius (اللذين كتبا قبل سنة ١٢٠ ميلادية) ومن بوليكاربوس Polycarp (المتوفي في سنة ١٥٥م) ومن بابياس Papias ويوستين الشهيد Justin Marty ومن تاتيان Tatian وأوريجانوس Origen وترتوليانوسTertullian وأوغسطينوس Augustine وغيرهم من آباء الكنيسة الأولين .

٣ - المرجع السابق ، ص ١١٢.

اما هذه الآثار فمع أنها ذات قيمة كبرى ، من وجوه كثيرة ، إلا أن أهميتها العظيمة في هذا الصدد هي أنها تؤكد عن طريق إشاراتها وإقتباساتها قدم عهد تلك البشائر والرسائل التي نسب إليها المسيحيون الأولون سلطة خاصة ممتازة ، والتي يبقى نفوذها إلى اليوم في سطور العهد الجديد .

لنلتفت الآن إلى هذه الوثائق الممتازة ، إنها تنقسم إلى قسمين بوجه عام ، رسائل واسفاراً تاريخية . وقد قبلت معظمها من زمن باكر جداً كأسفار مقدسة حفظها القوم ونقلوها بإحترام دقيق ، حتى أنه قيل بالنسبة إلى العهد الجديد :" لم يبلغنا كتاب قديم آخر نال نصيباً من العناية مثلما نال هذا الكتاب في وفرة النسخ " إذ قد عثر المنقبون إلى الآن على أكثر من خمسمائة نسخة خطية ، ولذلك يمكننا أن نتناول هذه السجلات واثقين في أن لدينا أحسن مصدر للتاريخ القديم ، ألا وهو وثائق كتابية قد حفظت في حرز حريز .

١- **الرسائل** :

منذ نشأة المسيحية شرع قادة الكنيسة يكتبون رسائل إلى جماعات من المؤمنين في شتى بلاد العالم القديم . وقد جمعت منها إحدى وعشرون بين دفتي كتاب سمي "**العهد الجديد** " . ومما يزيد قيمة شهادتها أن مؤلفيها لم يخطر لبالهم قط أنها سوف تحفظ للعصور المقبلة ، بل دونوها كسجل طبيعي ، لا صناعة فيه لأفكارهم وظروفهم . فهي لذلك تقدم شهادة لا ريب فيها لعقائد المسيحيين الأولين .

وقد تتبع بعض المؤرخون هذه الرسائل إلى ما قبل سنة ٥٧ ميلادية . فقد أجمع العلماء على أن مؤلف الرسالة إلى أهل غلاطية مثلاً هو بولس بلا منازع كما أن بعضاً منهم يقرون أنها كتبت سنة ٤٩ م. ثم يرجعون الرسالة الأولى إلى أهل تسالونيكي إلى سنة ٥١ م.ويجمعون على أن الرسائل إلى رومية و إلى أهل كورنثوس قد كتبها بولس قبل سنة ٥٧ م. أما الرسائل التي كتبها في أثناء سجنه (إلى أهل افسس وفيلبي وكولوسي وفليمون) فتاريخها في الغالب سنة ٦٠ م.

أما الرسالة إلى العبرانيين (التي لا نعرف بالتحقيق اسم مؤلفها) ورسائل يهوذا ويعقوب وبطرس ويوحنا (ما عدا بطرس الثانية حسبما يرتئي البعض) فكلها ايضاً يمكن إسنادها إلى هذا التاريخ القديم .

وخلاصة القول أن جانباً عظيماً من هذه الرسائل ترجع إلى ما حول خمس وعشرين سنة فقط بعد موت المسيح ، كما أن السواد الأعظم منها كتب في مدة لا تعدو خمساً وثلاثين

سنة بعد موته . ولذلك لم يتسع الوقت البتة لنمو الخرافات بل تقوم هذه الرسائل شهادة قاطعة لحقائق المسيحية في القرن الأول وعقائدها .

ولكن ما هي شهادة هذه الرسائل ؟

إن معظم محتوياتها يتضمن شرحاً للعقائد المسيحية وتطبيقاً لهذه العقائد على مشكلات الحياة اليومية . وهي أيضاً تحوي إشارات عديدة إلى المسيح التاريخي ، وإلى موته وقيامته بنوع خاص . إن الإيمان القوي الذي يلمع في كل جزء من هذه الرسائل أساسه ومصدره شخص المسيح .

ولنسمع أولاً ما قاله " يوحنا" في رسالته مشيراً إلى المسيح :

" الذي كان من البدء ، الذي سمعناه ، الذي رأيناه بعيوننا ، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة . فإن الحياة أظهرت ، وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا . الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به "   (١ يو ١ : ١ و ٢)

ثم لنسمع أيضاً ما قاله بولس في إحدى رسائله :

" فإنني سلمت إليكم في الأول ما قبلته أنا أيضاً ، أن المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب .."   (٢ كو ١٥ : ٣)

وقد وجد العلماء في هذه الكلمات إشارات تؤدي بهم إلى الفكر أنها عبارة عن شهادة رسمية للإيمان المسيحي ، كان المؤمنون يقرونها قبل سنة ٥٥ م. أما موت المسيح وصلبه – مع ما ينطويان عليه من تعليم عميق – فإننا نجده مذكوراً مراراً عديدة في الرسائل كلها مثل في : (غلاطية ١ : ٣ ، ٤ و ٢ : ٢٠ و ٣ : ١٣ و ٦ : ١٤ و ١ تسالونيكي ٤ : ١٤ و ١ كورنثوس ١ : ١٣ ، ١٧ و ٢ : ٢ ، ٨ و ١٠ : ١٦ و ١١ : ٢٣ ، ٢٦ و ٢ كورنثوس ٤ : ١٠ و ٥ : ١٤ ، ٢١ و رومية ٣ : ٢٥ و ٤ : ٢٥ و ٥ : ٦ ، ٨ ، ١٠ و ٦ : ٣ ، ٥ ، ١٠ و ٨ : ٣٢ و ١٤ : ١٥ و أفسس ١ : ٧ و فيلبي ٢ : ٨ و ٣ : ١٠ و كولوسي ١ : ١٤ ، ٢٠ ، ٢٢ و ٢ : ١٢ ، ١٤ و عبرانيين ٢ : ٩ ، ١٤ و ٦ : ٦ و ٩ : ١٤ ، ٢٦ ، ٢٨ و ١٠ : ١٠ ، ١٩ ، ٢٩ و ١٢ : ٢ و ١٣ : ١٢ و ا بطرس ٣ : ١٨ و ١ يوحنا ١ : ٧ و ٤ : ١٠ – وما إلى ذلك مما يكفينا معه أن نقتبس ما ورد في (١ بطرس ٢ : ٢١) حيث نقرأ :

" فإن المسيح أيضاً تألم لأجلنا تاركاً لنا مثالاً لكي تتبعوا خطواته . الذي لم يفعل خطية ولا وجد في فمه مكر . الذي إذ شتم لم يكن يشتم عوضاً . وإذا تألم

لم يكن يهدد ، بل كان يسلم لمن يقضي بعدل . الذي حمل هو نفسه خطايانا في جسده على الخشبة لكي نموت عن الخطايا فنحيا للبر ، الذي بجلدته شفيتم "

أما عن قيامة المسيح من بين الأموات ، فإننا نقرأ في (١ كورنثوس ١٥ : ١٤) هذه الكلمات :

" إن لم يكن المسيح قد قام فباطلة كرازتنا وباطل أيضاً إيمانكم . ونوجد نحن أيضاً شهود زور لله لأننا شهدنا من جهة الله أنه أقام المسيح "

وذكرت القيامة أيضاً في [١ تسالونيكي ٤ : ١٤ و ١ كورنثوس ٦ : ١٢،و ١٥ : ٢٠ ، ٢٣ و ٢ كورنثوس ٤ : ١٤ و رومية ١ : ٤ و ٤ : ٢٤ ، ٢٥ و ٦ : ٥ ، ٩ و ١٠ : ٩ و فيلبي ٣ : ١٠ و كولوسي ٢ : ١٢ ، ٣ : ١ و عبرانيين ١٣ : ٢٠] أما في (١ بطرس ١ : ٣) فإننا نقرأ :

" مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي حسب رحمته الكثيرة ولدنا ثانية لرجاء حي بقيامة يسوع المسيح من الأموات "

ومهما يكن من الأمر ، فليس هناك من شك في أن الحقائق المسيحية الأساسية ، بل موت المسيح الكفاري وقيامته الظافرة بنوع خاص ، هي أساس تعليم الكنيسة منذ بادئ ذي بدء . ويتضح من دراستنا لسفر أعمال الرسل أن بطرس وغيره أخذوا يكرزون بهذه الحقائق بعد صعود المسيح بعشرة أيام فقط . وأين الفرصة في هذه الفترة القصيرة لنمو الخرافات ؟!!

٢- الوثائق التاريخية (البشائر)

ولكننا نلتفت الآن إلى وثائق تزيد قيمة هذه الرسائل نفسها وهي ترجع إلى نفس هذاالتاريخ القديم ، لأن التعليم الشفوي الذي ألقى على المتنصرين الأولين سرعان ما استبدل به ذكريات مكتوبة دونها الرسل أو زملاؤهم لتسجيل الحقائق . ومع أنه يجب علينا أن نبحث الآن في الثقة التي يمكننا أن نوجهها إلى هذه البشائر إلا أنه يجدر بنا أن نبدأ باقتباس مقدمة إحداهن دلالة على الدقة والأمانة اللتين إستعان بهما المؤلف في تأليفه :

" إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا ، كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخداماً للكلمة ، رأيت أنا أيضاً إذ تتبعت كل

شئ من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي .... لتعرف صحة الكلام الذي علمت به "

إن السير على نوعين ، النوع الأول ؛ يقدم لنا مجرد قائمة من الحقائق في تتابعها الزمني ، على أن النوع الثاني ؛ نجد فيه الحقائق مرتبة منظمة ، لكي تمثل لنا صورة متناسقة لأخلاق الشخص الموصوف . أما البشائر فإنها من هذا النوع . ولأنه من المحال على أي مؤلف فرد أن يقدم للعالم صورة كاملة لشخصية مثل شخصية المسيح ، ولذا فإن اربعة مؤلفين مختلفين قد قام كل منهم بنصيبه الخاص . أما هذه البشائر الأربع فكل واحدة منها صحيحة صادقة ، ولكنها في ذاتها ليست بكاملة ، بل مكملة لغيرها ، ولا يلزمنا أن نعتبر هذه الحقيقة نقصاً فيها بل قوة وفخراً .

ما الثقة إذن التي توجهها أساليب النقد والبحث الحديث إلى هذه الوثائق ؟ فمع أن الكثيرين – ومن ضمنهم مؤلف هذا الكتاب – يؤمنون كل الإيمان بوحي هذه الأسفار ، إلا اننا لا نفترض بالضرورة وجود هذا الإيمان في قرائنا الكرام ، بل على عكس ذلك نفترض جدلاً بأن نعتبر هذه الأسفار كأنها مخطوطات بشرية لها نفس الثقة التي لغيرها من المخطوطات القديمة ، لا أكثر ولا أقل . على أنه لمن المستغرب أن قوماً من الذين يدعون لأنفسهم قوة الإدراك وفضيلة الإنصاف ، يتوهمون أن الافتراض جدلاً بعدم وحي هذه الأسفار ، يجردها حتماً من قيمتها التاريخية كوثائق قديمة ، ويتركها بلا قيمة إلا في دائرة الروح والأخلاق .

أما هذا الرأي فهو غاية في السخف ، لأن العلم الحقيقي يحتم علينا أن ننظر إلى هذه الأسفار على الأقل بنفس نظرة الإحترام التي نعيرها سائر المخطوطات القديمة . ولكن ؛ اهي قديمة حقاً ، وما الدلالة على ذلك ؟ فلا مجال لنا أن نعالج هذه النقطة هنا بما تستحق من التفصيل ، دون أن نصرح بأن المؤرخين – سواء أكانوا من المحافظين أم من العصريين ، اي ممن قد ترقى إليهم تهمة التحيز أو ممن لا تصل إليهم هذه التهمة – إن هؤلاء المؤرخين بعد ما اجمعوا في السنين الماضية على أن البشائر الثلاث الأولى يمكن إسنادها إلى ما قبل سنة ٨٠ م. على الأكثر ، وقد أظهروا في هذه الأيام الأخيرة ميلاً شديداً إلى إسنادها تاريخياً إلى ما بين سنة ٤٥ و ٦٥ م. وكذلك أيضاً قد أجمع معظم المؤرخين على أن البشارة الرابعة – وهي الأخيرة بين البشائر في ترتيب الزمن – كتبت قبل ختام القرن الأول الميلادي . ورب سائل : " وما فائدة هذا الإجماع ، وليس بين أيدينا الآن نسخة خطية واحدة ترجع بالذات إلى هذا القرن ؟"

ويكفينا إجابة على هذا أن نقول إن المنقبين لا يزالون يعثرون في هذه الأيام على نسخ قديمة جداً منتشرة في شتى البلاد ، مما يدل حتماً على قدم تاريخ المخطوطات الأصلية . بل فوق ذلك لدينا ، كما رأينا ، آثار وافرة دونها آباء الكنيسة ، بل دونها أيضاً بعض الخارجين عليها ، في ختام القرن الأول وفي القرن الثاني للميلاد ، وقد نقلوا فيها نصوصاً عديدة وإقتباسات مهمة من هذه الوثائق ، مما يدل كل الدلالة على وجود هذه البشائر ، بل على إنتشارها والثقة بها في هذا التاريخ القديم . وتتفق شهادة هذه البشائر تمام الإتفاق وشهادة الرسائل التي ترجع معظمها أيضاً إلى منتصف القرن الأول كما سلفت الإشارة .

وخلاصة القول إن البشائر هي ، على الأقل ، وثائق تاريخية ، كتبها كُتاب عاينوا الحوادث الموصوفة بعيونهم ، وهي تحوي تعاليم ألقيت في نفس البيئة والزمان اللذين كانوا يعيشون فيهما . ولذا ، مع أننا قدمنا أن لا نفترض جدً وحي هذه الأسفار وعصمتها بالضرورة من الخطأ الإنساني في بعض التفصيلات ، إلا أننا نقرر مؤكدين أنه لا محيص لنا من قبول محتوياتها العامة كأخبار صحيحة لحقائق وقعت فعلاً .

ويكفينا في هذا الصدد أن ننقل أقوال فريزر SirJ.G.Freaser أستاذ علم الدين المقارن في جامعة كامبردج - رجل لا يمكن أن يتهم بالتحيز للمسيحية ، ونحن نورد هذا الإقتباس نموذجاً لموقف غيره ممن يبحثون في هذه الحقائق بحثاً علمياً بحتاً . قال :

> "إن نظريتي تفترض وجوداً تاريخياً حقيقياً ليسوع الناصري كمعلم عظيم في الأمور الدينية والخلقية ، وهو بعد أن أسس المسيحية، صلب في أورشليم في أثناء حكم بيلاطس البنطي . إن شهادة البشائر مؤيدة بشهادة تاسيتوس و بليني الأصغر – وهما من أخصام المسيحية – هذه الشهادة تكفي ، على ما يظهر – كل الكفاية لإثبات هذه الحقائق لدى كل باحث غير متحيز ... أما الشكوك التي ألقاها البعض على وجود يسوع المسيح تاريخياً فإنها لا تستحق في نظري كبير إهتما . وبغض النظر عن الدلائل الإيجابية في كتب التاريخ والأحاديث ، فإنه لا سبيل إلى تعليل أصل إصلاح عظيم في الدين والأخلاق من غير وجود شخص مصلح عظيم " .

أضف إلى هذا ما قاله موريسون J.G.Morrison أستاذ التاريخ في جامعة نيو كاسل:

" إنني أعتقد إعتقاداً شخصياً على أن لنا في هذه الوثائق ... علماً يقيناً ليسوع المسيح ".

هذا إذا لم يزعم أحد أنها كتابات اخترعها مؤلفوها إختراعاً لأسباب شخصية . فإذا كان هناك من يذهب هذا المذهب فليتأمل في الأفكار الآتية :

١- قدم هؤلاء المؤلفون أسمى تعليم في المسائل الأخلاقية لم يكن للعالم القديم سابق علم بها ، بل قدموا تعليماً لم ينافسه تعليم آخر إلى اليوم ، تعليماً هو الحكم الأعلى لكل تعليم آخر أو عليه . فهل من المعقول إذن تضليل العالم بأكاذيب مختلقة ؟ ولا ننس أن نضيف إلى هذا أن هذه البشائر والرسائل لم تكن تقوم على شهادة المؤلفين وحدهم ، بل على شهادة الكنيسة المسيحية الأولى بأسرها ، بل هي في الواقع سجل لعقائدها العامة ، صدرت في وقت كان فيه الكثيرون من معايني الحوادث وسامعي الأقوال ، عائشين ، شاهدين .

٢- لم يوفق أي مؤلف من أشهر المؤلفين للخيالات والروايات في تاريخ الأدب إلى إبتكار شخصية تعادل شخصية المسيح أو تشابهها ، فهل مما يقبله العقل السليم أن يوفق أربعة من مؤلفين مغمورين في قرن واحد هذا التوفيق العجيب ، ولم يتركوا آثاراً أخرى لنبوغهم ؟ وإذا اعترض معترض بأن الشخصية واحدة ، ولذا لا بد من كون المبتكر الأصلي واحداً أيضاً ، وأن الآخرين نقلوا عنه نقلاً ، فكيف نجد إذن تبايناً ظاهرياً سطحياً بين بعض الأخبار الواردة في البشائر المختلفة ، بل لماذا نجد أن كل واحد من المؤلفين رسم صورة مميزة للسيرة المجيدة ، مكملة للصور التي رسمها زملاؤه ؟ مما لا سبيل إلى حدوثه إلا إذا كانوا قد دونوا ذكرياتهم الفردية لشخص حقيقي قد عاشروه . نعم ؛ إن شخصية المسيح لا سبيل إلى إبتكارها من خيالات البشر .

٣- نعلم من التاريخ أن هؤلاء القوم ، من المؤلفين أنفسهم ومن كتبت هذه الأسفار برضاهم وبسلطتهم والذين علموا حتماً بصحتها أو بطلانها ، قد تغيروا التغيير كله بعد قيامة المسيح من بين الأموات (حسب إدعائهم). فبدلاً من أن يكونوا جماعة من الجبناء الخائفين أصبحوا فجأة أبطالاً شجعاناً ، قلبوا العالم القديم بتعليمهم وتبشيرهم وحياتهم . فهل يتغير الناس بسبب كذب بشروا به وأودعوه كتباً بعد أن أودعوه صدورهم ؟ ألا يعلمنا علم النفس أنه لا شئ يحمل الإنسان على الجبن مثل الكذب المخفي في باطنه ؟ إنه يتضح لنا وضوحاً لا ريب فيه أن المسيحيين الأولين آمنوا كل الإيمان بصدق هذه الحقائق .

٤- لم يتركنا التاريخ بلا دليل على ما يكون البشيرون قد إبتكروه ، لو اعتمدوا على الإطلاق على خيالاتهم أو خرافات الناس دون تدوين الحقائق الواقعة . لأنه قد بلغتنا شرذمة من " بشائر " مؤلفة في القرن الثاني والثالث والرابع – مثل بشارة " بطرس " و " بشارة يعقوب " (من القرن الثاني غالباً) ، و " بشارة توما " و " بشارة نيقوديموس " (من القرن الثالث والرابع غالبا) ومع أن مؤلفي هذه الآثار كانوا ، على ما يظهر ، مؤمنين مخلصين ، إلا أن البون شاسع بين مؤلفاتهم وبين البشائر الأربع الحقيقية . أما هذا الإختلاف الواضح بين العجائب والحوادث الغريبة التي يصفها هؤلاء المؤلفون في القرون التي نمت فيها الخرافات حول شخص المسيح ؛ وبين حكمة البشائر الأربع التي لا تذكر معجزة ما لا تتفق وأخلاق المسيح وشخصيته – فإن هذا يقوم برهاناً قاطعاً على أن البشيرين الحقيقيين دونوا الحقائق التي رأوها والأقوال التي سمعوها ، دون أي إعتماد على إطلاق العنان لمخيلاتهم . أو أي إلتفات إلى الخرافات التي لم يتسع الوقت لنموها بعد .

٥- إذا لم يكن من المصدق أن هذه الأسفار مجرد أكاذيب مختلقة ، فليس من المحتمل البتة أن تكون هي خرافات أو أوهام كتبها مؤلفوها واثقين بصدقها . وكيف تكون خرافات وقد رأينا أن معظمها كتب فيما بين خمس عشر وخمس وثلاثين سنة بعد موت المسيح ، ولم يزل السواد الأعظم من معاصريه موجودين شاهدين ؟

أما إدعاء بعض أخوتنا المسلمين بأن هذه الوثائق أصابها التحريف والتبديل ، فلا سبيل إلى إثباته تاريخياً أو عقلياً . بل على عكس ذلك لا يقره أي باحث مدقق (مسلماً كان أم مسيحياً) . ويكفينا هنا دلالة على ذلك ما يأتي :

<u>إذا إدعى مدع بتحريف هذه الوثائق ، فعليه أن يبين متى حدث هذا التحريف ومن أحدثه..</u>

- أيدعي أحد أن المسيحيين الأولين قد تآمروا على تحريف إنجيلهم المقدس ؟ فما الذي دعاهم إلى ذلك ؟ وكيف يتفق هذا الخبث القبيح وأخلاقهم وتصرفاتهم وشهادة حياتهم ؛ كما رأينا ؟ أفما كان يمكن على أقل تقدير أن يرتفع صوت واحد ، من المسيحيين أو من أعدائهم متهماً إياهم بذلك ؟ ولماذا

لم تخطر هذه التهمة على بال أحد حتى جاء الإسلام في القرن السادس للميلاد !؟

❖ فهل يفترض جدلاً أن هذا التحريف وقع فيما بين عصر المسيحيين الأولين وصدر الإسلام ، وفي تلك العصور التي فقدت فيها المسيحية الرسمية بعض قوتها ؟ ولكن كيف كان ذلك ؟ لقد كانت نسخ عديدة من هذه الوثائق منتشرة إنتشاراً واسعاً بين شتى الكنائس في كل أنحاء العالم القديم . فمن هو الذي سافر يا ترى هنا وهناك عاملاً على تحريفها كلها ؟ ولماذا لم يقاومه أحد ، وهو يتناول الكتب المقدسة بالتحريف الذي ينطوي على تزوير فاحش ؟ إننا لم نر قط ما يدل على شئ من هذا بين سطور التاريخ ؛ بل فضلاً عن ذلك فلو حصل هذا التحريف في أي عصر قبل صدر الإسلام ، فكيف يتأتى لمسلم أن يعتقد بأن نبيه الكريم إعترف بكتاب مزيف وصادق ما قد أصابه من التحريف؟ أفما يقول القرآن :" **مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل ...**"

❖ فهل يجوز إذن أن يكون قد وقع هذا التحريف بعد عصر نبي الإسلام ؟ وكيف ذلك ونحن نعلم أن المكتشفين قد عثروا على مخطوطات عدة لهذه الوثائق ترجع إلى العصور التي سبقت الإسلام ؛ مخطوطات تتفق كل الإتفاق والوثائق التي بين أيدينا اليوم ؟ وفوق ذلك ، فقد رأينا أن بعض آباء الكنيسة الأولى ، الذين عاشوا سنين طويلة قبل الإسلام ، قد تركوا آثاراً خطية تتضمن نصوصاً عديدة واقتباسات دقيقة من هذه الوثائق تبرهن حتماً على أنها اتفقت في جوهرها في تلك الأيام القديمة والوثائق الموجودة الآن .

وخلاصة القول ؛ أنه قد تبين لنا مما تقدم من أدلة أن أن البشائر الموجودة اليوم هي.. هي تلك التي كانت موجودة في أيام نبي الإسلام والتي شهد هو لصدقها ، بل هي هي التي تتبع المؤرخون تاريخها إلى القرن الأول للميلاد . ومع أنها مازالت منذ ذلك القديم إلى يومنا الحاضر منتشرة إنتشاراً في كل أنحاء العالم ، منقولة بخطوط كُتاب عديدين في عصور متتابعة ، إلا أنها قد بقيت سليمة من الإختلاف أو التباين ، فيما عدا مسائل خطية بسيطة ونقط نقلية لا قيمة لها .

وإذا كانت هذه الأسفار فعلاً وحقاً وثائق تاريخية معاصرة للحوادث التي سجلتها ، مما لا يرقى إليها الشك ، فعلينا أن نتناولها بأيدي الإحترام وأن ننظر إليها بعين التقدير والإعتبار . ومع أننا لا نفترض جدلاً عصمتها الإعجازية من الأخطاء في كتابتها وحفظها ، ولذا لا تؤسس حجتنا على تفصيلات دقيقة بل على شهادتها العامة ؛ إلا أننا نعتقد أن هذه

الشهادة الإجمالية تدل دلالة لا غموض فيها على عقائد المسيحية الأساسية ، وبخاصة على تلك الشخصية الفريدة التي تتجلى أمامنا في هذه الصفحات على إعتبار أنها الكل في الكل . وإذا أراد أحد – بلا مبرر في إعتقادنا – ألا يقبل إلا ما قد دونه إثنان أو ثلاثة من البشيرين ، فلا يجديه هذا الحذر شيئاً ؛ لأن الحقائق الأساسية المتعلقة بشأن المسيح التاريخية ، من ولادته وتعليمه ومعجزاته وقيامته وصعوده ، تبقى ثابتة راسخة رسوخ الجبل الأشم .

حقائق حياته الهامة..

❖ نتعلم إذن أن يسوع المسيح ولد في بيت لحم في أيام الإكتتاب الذي اجرته الإمبراطورية الرومانية ، لإي أثناء حكم أوغسطس قيصر " إذ كان كيرينيوس والي سورية " . فولد المسيح من مريم العذراء التي حبلت به من الروح القدس [٤]. أما هذه العذراء فإنها كانت مخطوبة لرجل اسمه يوسف الذي عزم على تخليتها سرا بعد أن وجدها حُبلى . ولكن الله أعلن له في حُلم ألا يخاف من أن يأخذها له زوجا " لأن الذي حبل به فيها هو من الروح القدس ". فأطاع يوسف أمر الرب وأخذ إمرأته . فاتفق إذن أن الناس ظنوا أن الطفل " يسوع المسيح " كان قد ولد بالطريق العادية ، من والدين بشريين ، مع أن مريم ويوسف وإليصابات وغيرهم علموا يقيناً بولادته الإعجازية العذراوية . أما هذه الحقيقة العجيبة فلسنا نريد بحثها الآن ، لأننا نعتقد أن الله دبر ظروف ولادته هذه لكي لا يعلم الناس حقيقة ميلاده إلا بعد أن آمنوا به من دافع حياته ومماته وقيامته . فبعد أن يعترف الإنسان بألوهية المسيح ؛ منساقاً إلى هذا الإعتراف بما تعلمه عن شخصية المسيح الفريد ، وقوته الفائقة ، وما إلى ذلك ؛ لا تبقى لديه صعوبة في الاعتراف بولادته من عذراء ، بل على عكس ذلك يشعر الإنسان بأن شخصاً فريداً في حياته وفي موته وفي قيامته ليس بغريب أن يكون فريداً في ولادته أيضاً .

❖ منذ استولى الرومان على الأمة اليهودية في سنة ٦٣ ق.م. لم يزل الإقليم كله مضطرباً . أما في سنة ٦ م. فقد عزل الرومان أرخيلاوس Archelaus الملك اليهودي ونظم البلاد كإقليم روماني .فثارت اليهودية حالاً ، ومع أن

٤- ليس المقصود هنا الملاك " جبريل " ، إذ أن روح الله والله واحد ، إذا الروح القدس المقصود به الله جل شأنه .

الرومان قمعوا هذه الثورة قمعاً عنيفاً ، إلا أن اليهود ما زالوا يحفظون غيظهم وحنقهم نحو الحكومة الأجنبية المستولية . في هذ الظروف يظهر يوحنا المعمدان فجأة على مسرح التاريخ ؛ شخص خشن قد خرج من صحراء عبر الأردن منادياً بكلمات نارية ملتهبة . بل لم يكن يوحنا يدعو الناس إلى الثورة ضد الحكومة بل إلى التوبة إلى الله : لم يدعهم إلى محاربة الرومان بل إلى مصارعة خطاياهم هم .

" فجاء إلى جميع الكورة المحيطة بالأردن يكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا "

" حينئذ خرج إليه أورشليم وكل اليهودية .... واعتمدوا منه في الأردن معترفين بخطاياهم".

فلم يكرز يوحنا بالتوبة فقط بل باقتراب ملكوت السموات أيضاً ، وصرح تصريحاً لا لبس فيه ولا إبهام بأنه ليس هو المسيا المنتظر الذي كانت الأمة اليهودية ترقب ظهوره بل كان مجرد صوت صارخ في البرية **" أعدوا طريق الرب "**

تمهيداً لشخص أعظم منه سيأتي عن قريب .

أما المسيح فإنه عاش في الناصرة يعمل في حانوت نجار نحو ثلاثين سنة بعد ولادته ، إلى أن بدأ يوحنا المعمدان خدمته وكرازته :

" في السنة الخامسة عشر من سلطنة طيباريوس قيصر إذ كان بيلاطس البنطي والياً على اليهودية وهيرودس رئيس ربع على الجليل ... أيام رئيس الكهنة حنان وقيافا"

فهل يا ترى بمثل هذه الكلمات الدقيقة التاريخية تدون الخرافات ؟

ولما سكت صوت يوحنا المعمدان لم تزل الحركة الروحية نشطة قوية إذ قد بدأ المسيح خدمته العلنية فأدرك الشعب فجأة أنه قد جاء من هو أعظم من يوحنا ، أليس هو الذي تنبأ يوحنا عنه ، الذي كان يمهد له الطريق ؟.

جاء المسيح يكرز ، بل كان يعتبر الكرازة مهمته العظمى في الشهور الباكرة من خدمته.

" وبعدما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله . ويقول قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله ، فتوبوا و آمنوا بالإنجيل "
(مرقس ١ : ١٤)

فكان يطوف بالبلاد والقرى واحدة واحدة قائلاً لتلاميذه :

" لنذهب إلى القرى المجاورة لأكرز هناك أيضاً ، لأني لهذا خرجت " (مرقس ١ : ٣٨)

ولقد تعود اليهود في ذلك العصر ؛ عندما كانوا يجتمعون في مجامعهم لعبادة الله ؛ أن يطلبوا إلى أي زائر أو ضيف أن يلقي درساً عليهم . فانتهز المسيح هذه الفرص :

" وكان يكرز في مجامعهم في كل الجليل " (مرقس ١ : ٣٩)

وفي أوقات أخرى كان يكرز في الخلاء تحت قبة السماء ، تارة على جبل ، وطورا على شاطئ البحر ، آونة في الحقول الخضراء ، وآونة أخرى في الصحراء .فكان يعلم كل من أتى إليه متكلماً بعبارات سهلة وكلمات مألوفة متخذاً أمثاله من مناظر الريف العادية التي كان يشير إليها أثناء تعليمه ولكننا سنخصص مجالاً خاصاً للبحث في تعليمه في الفصل القادم .

❖ جاء المسيح يشفي ؛ لأن شفاء المرضى أيضا كان جانباً عظيماً من مهمته . وكم من مرات بهت الناس من معجزاته أكثر من كلماته . ولم تكن غايته مجرد إثارة إعجاب الناس وولائهم ، بل مساعدة المساكين ، وتعزية الحزانى، و تقوية إيمان تلاميذه . فإمتلأت أيامه من مطالب المصابين والمتألمين :

" ولما صار المساء ، غذ غربت الشمس ، قدموا إليه جميع السقماء والمجانين . وكانت المدينة كلها مجتمعة على الباب ، فشفى كثيرين " (مرقس ١ : ٣٢)

وإذا أردنا صورة حقيقية لهذا الجانب من خدمة المسيح ، لا بد لنا من أن نتذكر الآلام والجهالة والقذارة والأمراض السائدة في ذلك الوقت ، وأن نتصور هذا التلهف الملتهب الذي أظهره الشعب في طلب شفائه ، هذا التلهف الذي ذاب أمامه قلبه الحساس . وسوف نتأمل في هذه المعجزات في الفصل الآتي .

❖ كان المسيح معبود الجماهير ، وكم من مرة نقرأ أن الجموع " **زحمته** " والجميع "**طلبوه** " ، و " **كانوا يأتون إليه من كل ناحية** " . وفي شدة حماسهم له حاولوا يوماً جعله ملكاً عليهم ، غير أنه اختفى عنهم لأنه لم يرغب في عرش أرضي . أما رؤساء الشعب وقادة الدين فسرعان ما ظهرت مقاومتهم له . فإتهموه بالتجديف حيناً ، لأنه إدعى بمساواته لله ، وبمعاشرة

الخطاة حيناً آخر ، ولأنه إختلط بالأشرار والمنبوذين قاصداً تخليصـهم . ومرة أخرى إتهموه بالتغافل عن تقاليد الشيوخ ، وأخرى ألصقوا به تهمة بمخالفة شريعة الله ، وفي النهاية طلبوا قتله .

- في الشهور الأخيرة من خدمته صرف جانباً كبيراً من وقته في تعليم التلاميذ الأخصاء الذين اختارهم ليساعدوه في خدمته ويواظبوا عليها بعد صعوده إلى السماء . فلقبهم أحياناً " **تلاميذ** " مشيراً إلى العلاقة الكائنة بينهم وبينه ، و "رسلاً " أحياناً أخرى مشيراً إلى مهمتهم التي كلفوا بالقيام بها في العالم . فمن هذا الزمن نرى جانبين من تعليمه يتميز أحدهما عن الآخر : تعليمه العام للجماهير ، وتعليمه الخاص لتلاميذه الأخصاء .

- أما الرؤساء وقادة الدين ، فقد أمعنوا في مقاومتهم له . ولم يخامر المسيح شيئ من الشك فيما ينتهي إليه الأمر ، بل تنبأ مراراً عن موته وقيامته . فعلم تلاميذه أن موته المقبل لا يكون موت الشهيد فحسب ، بل هدف حياته ، الذي جاء لأجل تكميله من مجد السماء . فلم يكن هذا الموت كرهاً منه ، بل طوعاً وإختياراً ، كما صرح المسيح قائلاً :

" لهذا يحبني الآب لأني أضع نفسي لآخذها أيضاً ، ليس أحد يأخذها مني بل أضعها أنا من ذاتي "   (يوحنا ١٠ : ١٧)

وأخيراً إغتنم اليهود الفرصة التي كانوا ينتظرونها زمناً طويلاً وقبضوا عليه في غيبة جمهور الشعب . وفي محاكمتهم إياه ظلماً أمام رئيس الكهنة لم يقدر شهود الزور أن يثبتوا عليه شيئاً مما ادعوه عليه . وبالرغم من كل ذلك حكموا عليه أخيراً بناء على إعترافه بأنه هو المسيح . وكذلك أيضاً لم يجد هيرودس ولا بيلاطس نقصاً فيه ، بل إعترف الوالي ببراءته . أما اليهود فقد هددوا بيلاطس حتى أسلم المسيح للصلب .

وإنه لمن المدهش لنا ، بل من المحزن ، أن بعض اخوتنا المسلمين ينكرون موت المسيح مع أن هذه الحقيقة هي تاج المسيحية وفخرها، ويرتكنون في هذا الإنكار على تفسيرهم لآية في سورة النساء تجحد في الظاهر صلب المسيح ، غير أن ثلاث آيات أخرى تشهد لموته شهادة واضحة ، وأن الآية الأولى يمكن تفسيرها بمعنى آخر من غير أية صعوبة . إلا أن إعتمادهم على منهج التأويل ، وتجنبهم منهج التفسير العلمي أوقعهم في هذه المعضلة . وعلى ذلك قد صادق على موته البعض من أئمة المسلمين ومفسريهم ، من بينهم ابن عباس ، ومحمد بن اسحق ، والربيع بن أنس ، بينما اكتفى الإمام الفخر الرازي في

تفسيره الكبير بمناقشة قضية " شبه لهم " وهي التي رفض قبولها بالمنطق ، وسلم بها بشكل غريب !!

ومهما يكن من الأمر ، فليس من سبيل إلى إثبات هذا التفسير الغريب من التاريخ أو المنطق ؛ بل إن موت المسيح لمن أثبت الحقائق . لأن تفسير " شبه لهم " بأن شخصاً آخر مات محل المسيح لا يعلل لنا واحداً من الحقائق الآتية :

١- أكد التلاميذ موت المسيح لا من جسده الميت فحسب ، بل أيضاً من جسده المقام ومن شخصه الكريم بعد قيامته من بين الأموات ، بل شهد المسيح المقام نفسه لحقيقة موته . فكيف نسلم بأن التلاميذ خدعوا العالم هذا الخداع الفاحش ، بل إن المسيح نفسه مخادع ؟ إن هذا مما لا يقبله العقل ، بل ويرفضه القلب .

٢- لم يكن موت المسيح حادثاً عرضياً طرأ عليه ، بل كان غاية حياته المنشودة . لأنه لم يتنبأ عن موته عدة مرات فحسب ، بل صرح بأن هذا الموت كان تسليماً منه **طوعاً وإختياراً ، لا كرهاً واضطراراً** (يوحنا ١٠) .

٣- لم يكن موت المسيح غاية حياته المنشودة وكفى ، بل كان أيضاً نتيجة طبيعية لتعليمه ، إذ علم المسيح دائماً أن الموت هو باب الحياة ، وأن المحبة العظمى لهي تسليم الإنسان نفسه في سبيل تخليص الآخرين . وفي هذه النقطة من تعليمه ، كما في سائر الأمور ، قدم المسيح نفسه القدوة العظمى لتعليمه .

٤- علم المسيح تلاميذه أن علة موته هي تخليصهم من خطاياهم وفداؤهم من قصاص ذنوبهم . **"هذا هو دمي .. الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا "** . وعلى هذا الأساس أمرهم بتناول العشاء الرباني ذكراً لموته . وحفظت الكنيسة المسيحية لهذه الفريضة في كل العصور ، بل بدأت أن تحفظها مباشرة بعد صعود المسيح إلى السماء . فما معنى هذه الفريضة لو لم يكن المسيح قد مات بالذات .

٥- تتفق أسفار الكتاب المقدس كلها من شريعة موسى ونبوات الأنبياء المختلفين ومزامير داود في العهد القديم ، ومن البشائر والرسائل في العهد الجديد ، على أن هذه الحقيقة هي أساس إعلان الله للناس . فعلم الله بني إسرائيل أن يقدموا ذبائح كفارية فدائية عن خطاياهم . مع أنه لا قيمة لدم هذه الذبائح إن

لم تكن رمزاً لذبيحة المسيح المقبلة . إن الكتاب المقدس وحدة إعجازية تشهد بصوت واحد لصدق هذه الحقيقة ، ويؤكدها التاريخ .

٦- هذه الحقيقة يؤيدها إختبار المسيحيين في كل العصور ، إذ وجدوا في المخلص الذي مات لأجلهم غفراناً وفداءاً ، بل وجدوا فيه أيضاً مخلصاً حياً مقاماً من الأموات يقدر أن ينقذهم من قوة الخطية ويمكنهم من أن يتحرروا من عبودية الذنب والإثم إلى مجد أبناء الله .وغاية الأمر أن من ينكر موت المسيح يكون قد تغافل عن كل الحقائق التاريخية والإختبارية معاً . بل من يرغب في الحق ويتأمل في الحقائق كلها ، لا شك في أنه يهتدي إلى نور اليقين بموت السيد المسيح .

❖ أما التلاميذ فقد كانوا منسحقي القلوب إزاء موته . وبدا لهم أن الحياة قد فقدت معناها وقيمتها . لم يذكروا قط ما قاله لهم المسيح عن موته وقيامته بل أصبحوا جماعة من الجبناء الخائفين اليائسين . فأشرقت الشمس في اليوم الثالث بعد صلبه ، وغذا بأخبار غريبة تتوافد إلى التلاميذ .. ها قد أصبح قبر المسيح فارغا .... رأى بعض النساء رؤيا من ملائكة أخبروهن بأنه قد قام .... وأدعى بعض التلاميذ بأنهم قد رأوه هو بالذات . صدق البعض هذه الأخبار ، ولكن البعض الآخر كذبوها . على أنهم لم يظلوا زمناً طويلاً في غياهب الشك والريب ، لأنه لم يتوان عن أن يظهر لهم جميعاً **"فأراهم أيضاً نفسه حياً ببراهين كثيرة بعد ما تألم ، وهو يظهر لهم نفسه أربعين يوماً ويتكلم عن الأمور المختصة بملكوت الله "** (أعمال الرسل ١ : ٣)

❖ وفي ختام الأربعين يوماً صعد إلى السماء وظهر ملاكان للتلاميذ الذين كانوا واقفين شاخصين إلى السماء وأخبراهم بأن **" يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقاً إلى السماء "** . فرجع التلاميذ إلى أورشليم وبعد أن امتلأوا من الروح القدس بدأوا خدمتهم بقوة فعالة ، كانوا يكرزون بموت المسيح الكفاري وقيامته المنتصرة ، وإنضم إليهم جمهور كبير . وهكذا تأسست الكنيسة المسيحية .

علينا الآن إذن ، أن نبحث في هذه الحقائق كل على حدة في الفصول القادمة بشئ من التفصيل . ويكفينا أن نقول : إذا إعترض معترض على هذه السيرة التي بحثنا في يقينيتها العامة أنه توجد أديان أخرى تدعي بولادة أبطالها من عذراء ، بل بموت أبطالها ورجوعهم إلى قيد الحياة ، فنجيب عليه بقولنا أن هؤلاء الأبطال إنما أشخاص خياليون خرافيون لم

يبدوا قط في عالم الواقع ، أو هم أشخاص عاشوا في زمن لا ذكر له في التاريخ مطلقاً . فمن ذا الذي قد رأى أوزيرس Osiris وتعرف بـ مثراس Mithras ؟ وما أعظم الفرق بينهما وبين المسيح الذي عاش في زمن معين وشهد لع معاصروه شهادة قابلة لكل أساليب النقد العلمي الحديث ؟ . و"على خلاف الأساطير اليونانية ، ليست قصة الحبل بيسوع المسيح من عذراء عبارة عن زواج إله بإمرأة ، ولكن الروح القدس " ظلل " مريم فحبلت بيسوع . ومن الجدير بالذكر أن الحبل من عذراء ، ودون تدخل رجل أو إله ، غير وارد البتة في أية آداب إنسانية ولا أية حضارة بشرية . لذلك ليس الحبل بيسوع من إمرأة أسطورة أو خرافة ، بل هو حدث فريد من نوعه بوجه مطلق ووحيد في تاريخ البشرية".(٥)

٥- الأب فاضل سيداروس ، يسوع المسيح في تقليد الكنيسة ، سلسلة دراسات لاهوتية ، دار المشرق ، بيروت ، ط١، ١٩٨٩، هامش ص ٣٦.

الفصل الثالث

المسيح شخص فريد

قد رأينا في الفصل السابق أن المسيح كان – بلا جدال – شخصاً تاريخياً عاش فعلاً بين الناس ، كما رأينا أيضاً أن الوثائق التي نرتكن عليها في معرفتنا حقائق سيرته هي معاصرة له ولا شبهة فيها ، بل أنه لا سبيل إلى تعليلها إلا كسجلات موثوق بها لما رأوه المؤلفون أنفسهم وسمعوه ، أو لما تعلموه عن شهادة أصدقائهم .

وقد رأينا أخيراً أن هذه الوثائق مملوءة بأمثال تعبر عن تعليمه وحكمته ومعجزاته وغير ذلك من الحوادث المختلفة التي تتمثل لنا فيها شخصيته تمام التمثل . أما في هذا الفصل ، فالبحث هو عن هذه الوجوه الرباعية للمسيح التاريخي ، أي تعليمه الممتاز ، وحكمته الفائقة ، ومعجزاته العظيمة ، وشخصيته العجيبة ؛ لكي نستعين بها في تكوين تقديرنا له ، وفي جوابنا عن هذا السؤال القديم : " **ماذا تظنون في المسيح ؟** "

☐ تعليم المسيح

كان المسيح معلماً فريداً ، كما إعترف بذلك من سمعوه خاصة في أول خدمته . فـ **متى** البشير يحدثنا عن ذلك بقوله :" **لما أكمل يسوع هذهالأقوال بهت الجموع من تعليمه . لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة** " (متى ٧ : ٢٨) ، ويخبرنا البشير لوقا أيضاً أن الجميع كانوا :" **يشهدون له ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه** " (لوقا ٤ : ٢٢) . ولم يكن معاصروه منفردين في تقديرهم لتعاليمه ، بل شهدت أيضاً الأجيال المتتابعة هذه الشهادة نفسها . لأن الجميع ، مهما إختلفت دياناتهم ومذاهبهم ، حتى من الذين ينكرون ألوهية المسيح ، يشهدون بصوت واحد ، بأن ذلك " النجار " الجليلي كان ولا نزاع أعظم معلم في الأمور الأدبية والأخلاقية أتى في تاريخ البشرية . ويكفينا في هذا الصدد أن نقتبس ما كتبه نيكولس Beverly Nichols حيث يقول مشيراً إلى كلمات المسيح :" لا يمكننا أن نجد ، في كل الأدب المعاصر ، عبارة ما فيها ظل من الجمال و الحق من الذاتية والعنصر الخالد ، كتلك التي نجدها في هذه العبارات ".وكمثل هذه الشهادة نجدها أيضاً عند جميع الذين يتشربون من تعاليمه ، وحتى عند الذين يقتربون منه قاصدين النقد والعدوان ، إنه حتى في نفس فولتير Voltaire .

حقاً إن معلمين آخرين قد قاموا بنصيبهم المشكور في سبيل التهذيب الخلقي ، ولكنهم يبدون كمن يتلمسون الطريق من غير يقين أو توكيد . فيؤسسون آراءهم على أسس متزعزعة ، ويخترعون فلسفات غير معتدلة ، ويستنتجون مبادئ ذات قيمة نسبية فقط . أما

المسيح فكان يتكلم بيقين وسلطان شهد لهما الجميع حتى أننا نجد أن المعلمين الذين جاءوا بعده تباعاً لم يتجاوزوا تعاليمه قط ، بل قصرت أفكارهم عن أن تسبر غور مبادئه . فقد أخذ العالم تعليمه — إن عمداً أو عفواً — قياساً عاماً يحكم به لكل تعليم آخر أو عليه . ويكفينا أن نقابل تعليمه بتعليم سقراط وسينكا ومرقس أوريليوس (الذين بلغت بهم الفلسفة الوثنية ذروتها) لكي ندرك أن الفرق ليس في الكمية بل في النوع ، بل أنه هو فريد لا نظير له !

نقول بكل إجلال أن المسيح كان ثائراً في تعليمه ، ولكنه كان فريداً في أسلوب ثورته . فقد طرح العادات القديمة جانباً ، وكان شديد الوطأة على بعض تقاليد الشيوخ ، فحسبه رؤساء الدين خطراً يهدد تعاليمهم لدرجة أنهم كانوا دائماً يحاولون إهلاكه ، ولكن مع أنه صرح بعدم تقديره أو إهتمامه بالتعاليم البشرية التي ألحقت بشريعة موسى ، إلا أنه كان يشير دائماً إلى تلك الشريعة نفسها بإعتبارها صادرة من منشأ إلهي ، وعلم أتباعه أنه لم يأت لينقضها بل ليكملها . وليس ذلك فقط ، بل أظهر بغاية الوضوح مبادئها الخفية التي لم يكن يعلمها أنصارها الغيورون ، لأنه حارب الرأي القائل بأنها كانت مجرد مجموعة لقواعد خارجية طقسية ، بل طبقها بقوة خارقة على أفكارنا وحياتنا الباطنية . ومع أنه تعرض لآثام المجتمع أشد التعرض ، إلا أنه علم تلاميذه ألا يستعملوا العنف الجسدي لأغراض ذاتية ، بل بالأحرى أن يتغلبوا بقوة أدبية وسلطان المحبة .

إكتشف المسيح قيمة الفرد وقرر إحترام الشخصية الإنسانية . أما هذه الحقيقة فإنها أساس تعليمه عن العلاقات بين الجنسين . فالمرأة في عينيه ليست أمة ولا هي مملوكة بل شخصية حرة ، لها الإحترام والتقدير اللذان يجب أن ننسبهما لمثل هذه الشخصية . أما العالم القديم فلم يسبقه فيه أحد إلى أن عرف هذه الحقيقة أو إعترف بها . بل أن تعليمه عن الأولاد أيضاً يقوم على هذه الحقيقة ، إذ قال :" أنظروا ، لا تحتقروا أحد هؤلاء الصغار " (متى ١٨ : ١٠) ، وإذ ندد أيضاً بالذين يعثرونهم أشد تنديد [١] وليس ذلك فقط بل إن هذه الحقيقة أيضاً هي أساس معاملاته كلها مع الناس وتفسير موقفه إزاءهم ، لأنه كان يدعو الناس ليتبعوه ، ولكنه لم يجبرهم على ذلك قط ، بل صارحهم بالصعوبات التي ستعترضهم ، وأمرهم أن يحسبوا حساب النفقة [٢] .

كان تعليمه أيضاً مناسباً للجميع ، فكان تارة عميقاً لدرجة أن أحكم الناس تحيروا منه ، ولكنه — إذ كان يمقت الكبرياء العقلي — وجه معظم تعليمه إلى البسطاء والأشخاص العاديين . لذلك كان يتهلل بالروح أن الله أخفى أسراره عن الحكماء والفهماء وأعلنها

---

٢ - متى ١٨ : ٦ .
٣- لوقا ١٤ : ١٨

للأطفال (٣) ، إذ سر المسيح بأن إدراك الحقائق الروحية لا يتوقف على مقدار التعليم العالي أو عدمه ، بل بالحري الشرط الأساسي في ميدان المعرفة الروحية هو الإخلاص القلبي ، لا الثقافة العقلية .

ولذلك مع أننا نعثر أحياناً على أعمق الألغاز في تعليم المسيح إلا أننا نجده في أغلب الظروف يعبر عن أعجب الأسرار بأحد تلك الأمثال الجميلة التي يتميز بها (بغض النظر عن أي تقدير آخر) نابغة فريداً . وزيادة على ذلك فقد كان تعليمه للجميع في الدائرة الخلقية أيضاً – لأنه يتطلب من أتباعه أسمى مستوى أدبي يتصوره الفكر – مستوى لم يحصل عليه تمام الحصول أحسن الناس وأقدسهم ، ولكنه في الوقت نفسه يمد يديه ليقبل ويعزي ، بل ليخلص ويقوي المسكين والساقط والفاسق .

لنلتفت إلى بعض ضروب تعليمه لنلمس فيها سلطانه الفريد :

١- لنتأمل أولاً في موقفه إزاء الطهارة الخلقية والنظافة الطقسية ، وما يشبه هذا في كثير من الوجوه ، الإخلاص القلبي في الدين دون القيام بالطقوس الرسمية . أما العالم القديم فإنه كان يهتم بالنظافة الطقسية أضعاف إهتمامه بحياة الإنسان الخلقية . بل إلى اليوم أيضاً نجد معظم الطقوس في كل الأديان غير المسيحية تقوم على النظافة الطقسية ، لذلك فإن الغسل والوضوء وما إلى ذلك هي أمور ذات أهمية عظيمة . وقد عمت هذه الفكرة وذاعت بين الناس حتى تسربت مع الأسف إلى بعض المذاهب المسيحية ، أما المسيح نفسه فقد قال :

" اسمعوا مني كلكم وافهموا ، ليس شيئ من خارج الإنسان إذا دخل فيه يقدر أن ينجسه . لكن الأشياء التي تخرج منه هي التي تنجس الإنسان ... أما تفهمون أن كل ما يدخل من خارج لا يقدر أن ينجسه ؟ لأنه لا يدخل إلى قلبه بل إلى الجوف ثم يخرج إلى الخلاء وذلك يطهر كل الأطعمة ... إن الذي يخرج من الإنسان ذلك ينجس الإنسان . لأنه من الداخل من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة ، زنى ، فسق ، قتل ، سرقة ، طمع ، خبث ، مكر ، عهارة ، عين شريرة ، تجديف ، كبرياء ، جهل ، جميع هذه الشرور تخرج من الداخل وتنجس الإنسان" (مرقس ٧ : ١٤ – ٢٣)

أما عن الإخلاص القلبي دون الطقوس الرسمية فقال :

---

٤ - لوقا ١٠ : ٢١

" احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكي ينظروكم ، وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السموات " (متى ٦ : ١)

"ومتى صليت فلا تكن كالمرائين ، فإنهم يحبون أن يصلوا قائمين في المجامع وفي زوايا الشوارع لكي يظهروا للناس . الحق أقول لكم أنهم قد استوفوا أجرهم ، وأما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك وصل إلى أبيك الذي في الخفاء ... وحينما تصلون لا تكرروا الكلام باطلاً كالأمم ، فإنهم يظنون أنه بكثرة كلامهم يستجاب لهم ، فلا تتشبهوا بهم " (متى ٦ : ٥ – ٧)

وكان هذا تعليم المسيح في كل مناسبة لأنه فضل دائما الحقيقة الروحية الباطنية على الصورة الطقسية الخارجية . ولم يقتصر هذا المبدأ على إخلاص الإنسان القلبي لله وحده ، بل علم المسيح أيضاً أن عبادة الله الحقيقية ليست بممكنة ما دامت علاقات العابد باخوانه من البشر غير صالحة .

" فإن قدمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك . فاترك هناك قربانك قدام المذبح وأذهب أولاً اصطلح مع أخيك وحينئذ تعال وقدم قربانك " (متى ٥ : ٢٣ و ٢٤)

وإلا فالقيام بفرائض دينية لا يجدي نفعاً . فقد قال المسيح بلغة التأنيب الشديد:

" احذروا من الكتبة .. الذين يأكلون بيوت الأرامل ولعله يطيلون الصلوات ، هؤلاء يأخذون دينونة أعظم " (لوقا ٢٠ : ٤٧)

ومع أن المسيح علم أن النظافة الطقسية ليست ذات شان كبير غير أنه أوجب التدقيق في موضوع الطهارة الخلقية ولم يتساهل فيه قط . بينما نرى سقراط " أعظم فلاسفة الإغريق " يداعب مومساً هاذراً معها عن حرفتها ، إذا بالمسيح يجهر قائلاً :

" من ينظر إلى إمرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه . فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقي جسدك كله في جهنم " (متى ٥ : ٢٨ و ٢٩)

فكلمة الحب التي كانت في العالم القديم كلمة ملوثة ، قد أصبحت في المسيحية تاج الفضائل . لأن المحبة في عيني المسيح هي قوة ترفع الإنسان وتطهره ، غير أنها كانت في ذلك العصر في أفكار الرواقيين مرضاً نفسانياً ، وهي في عرف الأبيقوريين كلمة مرادفة للتمتع الذاتي . أما في المسيحية

فالمحبة بين الزوجين تمثل إتحاد الروح مع الله ، والمحبة بصفة عامة هي واجب الإنسان نحو جميع الناس .

٢- لنلتفت ثانياً إلى تعليم المسيح عن الغفران ، وعن موقف الإنسان إزاء أعدائه ، وهو تعليم لم يكن أقل غرابة من النقطة السابقة في عصره . لأن المسيح – كما رأينا آنفاً – عرفنا قانون المحبة الكاملة الشاملة ، غير أن العالم القديم قد أظهر إعجابه وولائه بقاعدة أخرى بينها وبين هذه القاعدة هوة سحيقة . ويتبين البون الشاسع بينهما من مقارنة عنوان قبر سلي Sulla القائد الروماني العظيم : " لا صديق أعانني ، ولا عدو أضرني ، إلا ووفيت ديني مع ربح " ، بالمقابل مع كلمات المسيح الفريدة :

" سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك . وأما أنا فاقول لكم : احبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم " (متى ٥ : ٤٣ و ٤٤)

أو ما قاله مرة أخرى :

" إن أحببتم الذين يحبونكم فاي فضل لكم ؟ فإن الخطاة يحبون أيضاً الذين يحبونهم " (لوقا ٦ : ٣٢)

٣- لنتأمل ثالثاً في ما يمكننا أن نسميه " فلسفة المسيح في الحياة البشرية " وسنرى هنا أيضاً كم كانت هذه طريقة على العالم القديم ، وكم كانت تبز تعاليم الآخرين. كان الفلاسفة في ذلك العصر منقسمين قسمين – هما الرواقيون والأبيقوريين – وكانت لكلاهما فلسفة في الحياة البشرية متميزة عن غيرها . أما الأبيقوريين فقالوا :" عش للذة ... لأن اللذة هي الخير الأوحد ، ليست الحياة إلا حياة الدنيا .. فتمتع بالحياة ما دمت حياً " . وأما الرواقيون فقالوا " إن عمل الواجب – لا طلب اللذة – هو أساس الحياة ، فقم بما وجب عليك طوعاً واختياراً ، وإلا فإنك تجد نفسك تقوم به مجبراً وكرهاً . فليس الإنسان حراً فيما يعمل ، بل هو يمشي في طريق مقدر من المهد إلى اللحد ،الذي لا شيئ وراءه ". أما المسيح فقد تجاوز كلا من هذين المذهبين كل التجاوز ، إذ علم الناس أن القبر ليس هو النهاية ، بل بالحري هو المنفذ إلى حياة أفضل . وكما أن اللذة فانية بائدة ، لا يمكن أن تكون غاية جديرة بالإحترام في حياة الإنسان ، كذلك أيضاً لا يقتنع قلب الإنسان باستسلام الرواقي إلى القضاء والقدر . فالواجب فعلاً حق راسخ ولكن المسيح دعا الناس ليقوموا بما وجب عليهم طائعين مختارين ، لأن المحبة تصير الواجب إمتيازاً . ومع أن مطاليب المسيح من تلاميذه تبدو

لأول وهلة كأنها قاسية صارمة كقساوة مطاليب الرواقيين أنفسهم ، إلا أنها في الواقع تختلف عنها كل الإختلاف ، لأن المسيحي يسعى في الطريق الصعب طوعاً واختياراً ، رغبة منه في أن يتمتع بالمجد الروحي الذي يضيئ كل الطريق ، والذي سوف يتوج نهاية الجهاد تتويجاً .

" إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني ، فإن من أراد أن يخلص نفسه يهلكها ، ومن يهلك نفسه من أجلي يجدها . لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟ أو ماذا يعطي الإنسان فداء عن نفسه ؟ " (متى ١٦ : ٢٤ و ٢٥)

ومما يلاحظ أيضاً في هذا الصدد أن المسيح هنا (وفي كثير من تعاليمه الأخرى) سبق كل الناس إلى التصريح بأحسن مكتشفات علم النفس الحديث . لأن هذا المبدأ الذي وضعه المسيح ما هو إلا مبدأ " التسامي " موضوعاً في صبغة إلهية ومصحوبا بالقوة اللازمة لتنفيذه ، تلك القوة الفائقة الإلهية التي يعجز علم النفس عن إعطائها .

وجرياً على هذا علم المسيح التواضع حين أعجب العالم بالكبرياء وحتم تفضيل الآخرين عندما مدح العالم روح الأثرة .

" وأكبركم يكون خادماً لكم ، فمن يرفع نفسه يتضع ، ومن يضع نفسه يرتفع " (متى ٢٣ : ١١ و ١٢)

" الحق أقول لكم ، إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات . فمن وضع نفسه مثل هذا الولد فهو الأعظم في ملكوت السموات " (متى ١٨ : ٣ و ٤)

٤- ولنلتفت أخيراً إلى تعليم المسيح عن الله . فكان العالم القديم — ما عدا إسرائيل — وثنيا ، وكان الناس ينظرون إلى الآلهة كأنها أبطال تفوق الناس في قوتهم ولكنها تشاركهم حمقهم وتقصيرهم . أما اعتقاد اليهود في "يهوه" فقد علا عن ذلك الفكر علو السماء عن الأرض ، لأن إعلانات الله عن طريق أنبياء اليهود كانت سامية جداً . ولكن هذا الإعلان نفسه يقصر كل القصور عن تعليم المسيح الفائق .

علم المسيح أن علاقة الله بالمؤمنين هي علاقة الآب الكامل بأولاده ، الآب الذي يطلب دائماً خيرهم وسعادتهم .

" فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة ، فكم بالحري أبوكم الذي في السموات يهب خيرات للذين يسألونه "
(متى ١٧ : ١١)

فهذا الآب السماوي يحبهم حبا فائقا ..

" أليس عصفوران يباعان بفلس ، وواحد منهما لا يسقط على الأرض بدون أبيكم . وأما أنتم فحتى شعور رؤوسكم جميعها محصاة ، فلا تخافوا ، أنتم أفضل من عصافير كثيرة " (متى ١٠ : ٢٩)

ومع أن الله أب للمؤمنين وحدهم بكل ما في الكلمة من معنى ، إلا أنه ينظر إلى العالم كله بعين المحبة الشاملة الجامعة ، لا فرق في ذلك بين شاكرين وناكرين ، أو محبين ومبغضين ..

" فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين " (متى ٥ : ٤٥)

وقد أعد الخلاص والغفران لكل من يقبلهما ..

" هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به ، بل تكون له الحياة الأبدية " (يوحنا ٣ : ١٦)

ولم يعد هذا الخلاص فحسب بل يريد أيضا أن الجميع يقبلونه ..

" هكذا ليست مشيئة أمام أبيكم الذي في السموات أن يهلك أحد هؤلاء الصغار " (١٨ : ١٤)

بل أكثر من ذلك كله أنه لا شيء يسره مثل توبة الخاطئ ..

" أقول لكم هكذا يكون فرح في السماء بخاطئ واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة " (لوقا ١٥ : ٧)

وكذلك قد سما تعليم المسيح عن الله عن كل حدود الجنس أو المحل ، والطقس أو الصورة . أما الفكر الوثني فقد ذهب إلى ضرورة تقرب الإنسان من الآلهة طبق طقوس معينة وفي معابد خاصة ، وكانت نقط عديدة في عبادة اليهود في الهيكل تؤدى إلى فكر شبيه بذلك من بعض الوجوه . أما المسيح فإنه علم

" أنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للآب .. حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق . لأن الآب

طالب مثل هؤلاء الساجدون له . الله روح ، والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا "   (يوحنا ٤ : ٢١ – ٢٤)

وأخيراً ، جعل المسيح تعليمه عن طبيعة الله أساساً جديداً فريداً ، لتعليمه عن الخلق والآداب . أما في الديانة اليهودية فمع أننا نجد تلميحات للإعلان الكامل المقبل ، إلا أن أساس التعليم الخلقي ، بل الداعي إلى الحياة الأدبية كان مجرد أوامر معينة ونواة خاصة ، فيعتبر هذا الشيء صالحاً لأنه أمر إلهي ، كما أن ذلك الشيء حرام لأنه منهي عنه . لم يفهم الناس أي مبدأ أساسي شامل لهذه الأوامر والنواهي . وكذلك الحال إلى الآن في معظم الأديان غير المسيحية . أما المسيح فإنه أقام مبدأ جديداً وباعثاً فريداً ، إذ يعلمنا أننا أولاد الله وأنه يجب أن نعيش كذلك ، بل علينا أن نكون مثله تعالى وأن نجتهد أن نحيا بحسب ما نعرفه عن طبيعته . علينا أن نحب أعداءنا لا لأنهم يستحقون ذلك ، ولا لأنه أمرنا بذلك فحسب ، بل لأن هذا ما يفعله الله ، إذ يشرق شمسه على الجميع ، على السواء . والفضل العملي في تعليم المسيح واضح ، لأن الأمر قد يكون حملاً ثقيلاً ، ولكن هذا المبدأ الجديد قوة حية . ولا يختلف هذا المبدأ عن كل الأديان الأخرى فحسب ، بل يتجاوز أيضاً المذاهب الفلسفية الأخرى ، التي تؤسس التعليم الخلقي على فكر غير راسخ ، مثل المنفعة أو "مصلحة السواد الأعظم " . وربما لا يكون – في الواقع – من مصلحتنا المادية أن نحب أعداءنا

أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم ...
لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في
السموات ... فكونوا أنتم كاملين كما أن
أباكم الذي في السموات هو كامل

(متى ٥ : ٤٤ – ٤٨)

□ حكمة المسيح ومعرفته

لم يظهر سامعوه ومعاصروه إعجابهم بتعليمه الخلقي والروحي فقط ، ولكنهم أعجبوا أيضاً بحكمته العملية ومعرفته الشاملة . أما هذه النقطة فهي ما يقصر دونها مراراً عديدة المفكرون والقديسون ، الذين يظهرون أنفسهم أحياناً مجرد أطفال إزاء مشكلات الحياة اليومية ، حتى أن الأستاذ الساهي والقديس اللاهي هما مضرب المثل . ولكن لم تحدثنا سطور التاريخ عن إنسان له علم شامل بالأشياء الماضية والحالية والمستقبلة وله خبرة بقراءة ألغاز قلوب الناس مثل الشخص الذي نحن بصدده . ومع أنه كان على الدوام يشير إلى الطبيعة في وقت لم يفهم الناس الطبيعة فيه إلا فهماً بسيطاً ، إلا أنه لم يخطئ أبداً في تعبيره . حقاً إنه يستعمل أحياناً عبارات متداولة بين الناس دون الإصطلاحات العلمية الدقيقة ، ولكنه جاء ليشرح الأسرار الإلهية لأناس عاديين غير مبال بتفصيلات لا قيمة لها . ثم تنبأ عن موته ، وعن القيامة التي تليه بكثير من التفصيل قبل حدوثهما بشهور . وتنبأ أيضاً عن محاصرة أورشليم وخراب الهيكل ، وأخبر تلاميذه بخيانة يهوذا وبإنكار بطرس قبل حدوثهما ، كما أنه علم كل العلم بسريرة المرأة السامرية الملطخة ، وبموت لعازر من غير أن يخبره أحد بذلك . زد على ذلك أنه كان يقرأ أفكار الناس الخفية ، ويخبرنا يوحنا أن اليهود تعجبوا قائلين :

" كيف هذا يعرف الكتب وهو لم يتعلم ؟" (يوحنا ٧ : ١٥)

أما أعداؤه فقد كانوا دائماً ينصبون الحبائل ليوقعوه فيها ويحاولون أن يحتالوا عليه ليمسكوه في جواب غير حكيم . ولكنهم لم يفشلوا فقط في الإيقاع به بل تمكن المسيح دائماً من أن يلقي عليهم درساً روحياً ثميناً . ويكفينا هنا مثلان أولهما نقتبسه من كلمات، الاستاذ (Prof Rendle Short)

" ذات يوم اتحد ضده حزبان سياسيان متناقضان – الوطنيون المتطرفون، وأنصار ولاية هيرودس الأجنبية الرومانية – واتفق الفريقان علي الكيد له إتفاقاً ماهراً. فإتفق الرؤساء علي أن يختفوا ويبعثوا بأتباعهم الشبان مخاصمين بعضهم بعضاً في الطريق حتي يعرضوا المشكلة عليه بغاية الإحترام: هل ندفع الضرائب الرومانية أم لا ؟ فإذا أجاب بالإيجاب عرض نفسه للعنة الشعب أو لقتله. وإذا أجاب جواباً سلبياً أوقع نفسه في قبضة الرومان. أما الإنسان الخائف فيلجأ إلي الإعراض عن أن يجيب علي هذا السؤال. ولكن المسيح لم يكتف بأن قدم جواباً جيداً بل تمكن أيضاً من تحويل الدفاع إلي هجوم، إذ أظهر لهم واجبهم نحو الله، ذلك الواجب الذي تغافلوا عنه : - " أروني ديناراً.

لمن الصورة والكتابة ؟ " أمامهم ملامح قيصر القاسية وألقابه الرسمية. " قد قبلتم معاملة قيصر، وعليه قد إعترفتم بحقه في الجزية. وفه حقه ، ووف الله أيضاً حقه " (٤).

وفي مثلنا الثاني نجمع إقتباسات من الدكتور بنزسن سميث والأستاذ شورت:

" أحضر أمامه جمع من الفقهاء والعلماء والعظماء إمرأة أمسكت وهي تزني في ذات الفعل. فقررت شريعة موسي أن ترجم مثل هذه المرأة ولكن هذا الحكم لم يطبق من زمن طويل، نظراً لإتجاه الرأي العام ولكثرة حدوث الجريمة.
أما المسيح فقد كان ينادي بمستوي خلقي أعلي من المستوي الذي نادي به موسي. فماذا يقول إذن ؟ هل يناقض كلامه هو ويكذب الكتب المقدسة – أو يثير غضب الشعب بما يحسبونه قساوة وصرامة، وفي الوقت نفسه يخالف القانون الروماني الذي حرم علي اليهود إجراء الإعدام ؟ يمكننا أن نتصور الفخ المنصوب أمامه. ولكنه علم بقلوبهم وأدرك أنهم لم يكونوا جماعة من أناس أطهار، متألمين مرتعبين من هذه الخطية الشنيعة، لأن أناساً من هذا النوع لا يجرون المرأة المسكينة أمامه علانية. فلننظر إذن الحكمة والرحمة والقوة التي سيطر بها علي ضمائر الناس، والتي بها حل هذه المشكلة.
لم يرض أن يهين المرأة المسكينة أكثر وينظر إلي عارها، بل إلتفت كأنه لم ينظر أحداً حوله وكان يكتب بإصبعه علي الأرض. أيهما أقبح خطية هذه المرأة الشنيعة أو موقف متهميها المرائين الخبثاء ؟ ولما استمروا يسألونه رغم سكوته، إنتصب وشخص إليهم وقرأ أسرار قلوبهم، ثم إتهمهم أمام محكمة ضمائرهم إذ قال " **من كان منكم بلا خطية فليرمها أولاً بحجر** " – وإنحني أيضاً إلي أسفل وكان يكتب علي الأرض (كما نظن) اسم امرأة أو قرية جعل الشيخ الأكبر الذي يتصدر الصف الأول من هؤلاء المتهمين يبطل صياحه ويصفر فجأة ... من ذا الذي يصدق أن للمسيح علماً بهذه الحادثة القديمة؟ فتسلل من بين زملائه وترك إقامة الدعوي لغيره، لكي لا يكتب المسيح عن خباياه الشنيعة أكثر من ذلك. وهكذا تسلل الجميع واحداً واحداً إلا المرأة وحدها. ولو كانت هي غير تائبة لكانت قد إنطلقت أيضاً. ولكنها مكثت، لأنها قد تابت وكانت تريد أن تسمع عما إذا كان هناك أمل لها في الغفران. ولذا سر المسيح أن يقول لها " **ولا أنا أدينك. إذهبي ولا تخطئي أيضاً** " (٥).

ومما يلاحظ أن هذه القصة هي أحد البنود القليلة الواردة في البشائر التي يشك في وجودها في المخطوطات الأصلية. ولكن لا يشك أحد في كونها قديمة جداً. وكيفما أتت إلينا هذه القصة فهي صحيحة بلا جدال، لأنها مما لا يتسني لنبوغ أي مبتدع قديم أن يبتدعها.

٤- هذه المحاورة دونها البشير لوقا (٢٠ : ٢٠ – ٢٦)
٥- (يوحنا ٨ : ١ – ١١)

❑ معجزات المسيح

ولم يتعجب معاصرو المسيح من كلماته وكفي، بل تعجبوا من أعماله أيضاً. ومهما كان تأثير تعليمه وجاذبيته لمن إستطاع تقديره، فإن الوثائق لا تترك لنا مجالاً للشك في أن معجزاته التي شاع صيتها شيوعاً كانت تؤثر أشد التأثير في عامة الشعب. ومع أننا في نور التأمل الرزين قد نندفع إلي الرأي القائل بأن تعليمه كان أعجب من أية معجزة، إلا أنه علينا أن نضع معجزاته أيضاً في محلها الحقيقي في سلسلة الدلائل علي ذاته الفريدة.

وهنا تعترضنا مشكلة علينا أن نواجهها. لأنه يوجد قوم يسلمون بالوثائق الموجودة كحقيقة تاريخية، غير أنهم يريدون ان يجردوها عن العنصر الإعجازي. أما هذه المحاولة فهي مستحيلة ، ومع أنه من الجائز لمن لا يسلم بوحي هذه الوثائق أن يشك في أية معجزة بمفردها ، إلا أنه مما لا يقبله العقل السليم أن يجرد سيرة حياة المسيح عن المعجزات بجملتها من غير أن يعبث بالكل ، فالزعم بأن التعليم الخلقي والأخبار الطبيعية العادية الواردة في البشائر هي تاريخية صادقة، وأما المعجزات فإنها خرافات قد ألحقت بالنص الأصلي في القرون المتأخرة، إنما هو زعم باطل ، لأن المعجزات تدخل في سياق التعليم وقد نسجت في نسيج باقي الحوادث بحيث أن هذا التعليم أو تلك الحوادث، إذا جردت من العنصر الإعجازي، أصبحت بلا معني. خذ مثلاً :

١. تعليم المسيح عن يوم السبت وتغيظ قادة اليهود منه، فقد نشأ كل هذا عن المعجزات التي أجراها المسيح في أيام السبت، إذ بدونها لا يبقي له سبب ولا مسوغ .

٢. وكذلك أيضاً تلك التهمة التي ألصقها به رؤساء اليهود، أنه كان يخرج الشياطين بقوة رئيس الشياطين. فإن هذه تصبح بلا معني وبلا قيمة إن لم يكن المسيح قد أخرج الشياطين بالفعل ... وهلم جرا ...

بل أنه لا سبيل إلي الشك في أن المعجزات كانت جزءاً من البشائر الأصلية المعاصرة، وأن حياة المسيح لم تفهم إلا علي أساس التسليم بصحتها تاريخياً. ولم تكن هذه المعجزات مسلماً بها عند الكنيسة الأولي بأسرها فقط (إذ كان الكثير من أعضاء هذه الكنيسة معاينين للحوادث نفسها) بل نجد أن أعداء المسيحية الأولين، وحتي المرتدين عن العقائد السليمة، لم يحاولوا إنكارها قط. أما إحتجاج قدراتس (الذي قدمه مؤلفه لأدريان في سنة ١٢٥ م.) ومؤلفات يوستنيان الشهير في سنة ١٥٠ تقريبا، فكلها تشير إلي هذه المعجزات كحقيقة لا جدال فيها، بل يقول يوستنيان أنها موصوفة في السجلات الرسمية لولاية بيلاطس.

حقاً إن بعض المفكرين العصريين قد حاولوا فصل بعض المعجزات عن البعض الآخر، بمعني أنهم يقبلون معجزات الشفاء بينما يرفضون قبول المعجزات التي تتضمن العنصر الإعجازي بالنسبة إلي قواعد الطبيعة والمادة . وسبب هذه المحاولة أنهم يريدون تفسير معجزات الشفاء بالاكتشافات الحديثة عن علاج الأمراض الجسمية بقوة العقل، ولذلك يحسبون المسيح أعظم علماء النفس وأسبقهم. ولكن هذا لا يكون معجزة عظيمة في ذاته فحسب، بل أن هذه النظرية لتعجز كل العجز عن تفسير الحقائق. لأن المعجزات التي يريد هؤلاء المخترعون أن يرفضوها – مثل إسكات الرياح والمشي علي الماء وإطعام الخمسة آلاف وإقامة الموتي – هذه المعجزات لها الثقة نفسها والأسانيد عينها التي لمعجزات الشفاء – بل أن هذا التمييز هو بلا معنى أو قيمة.

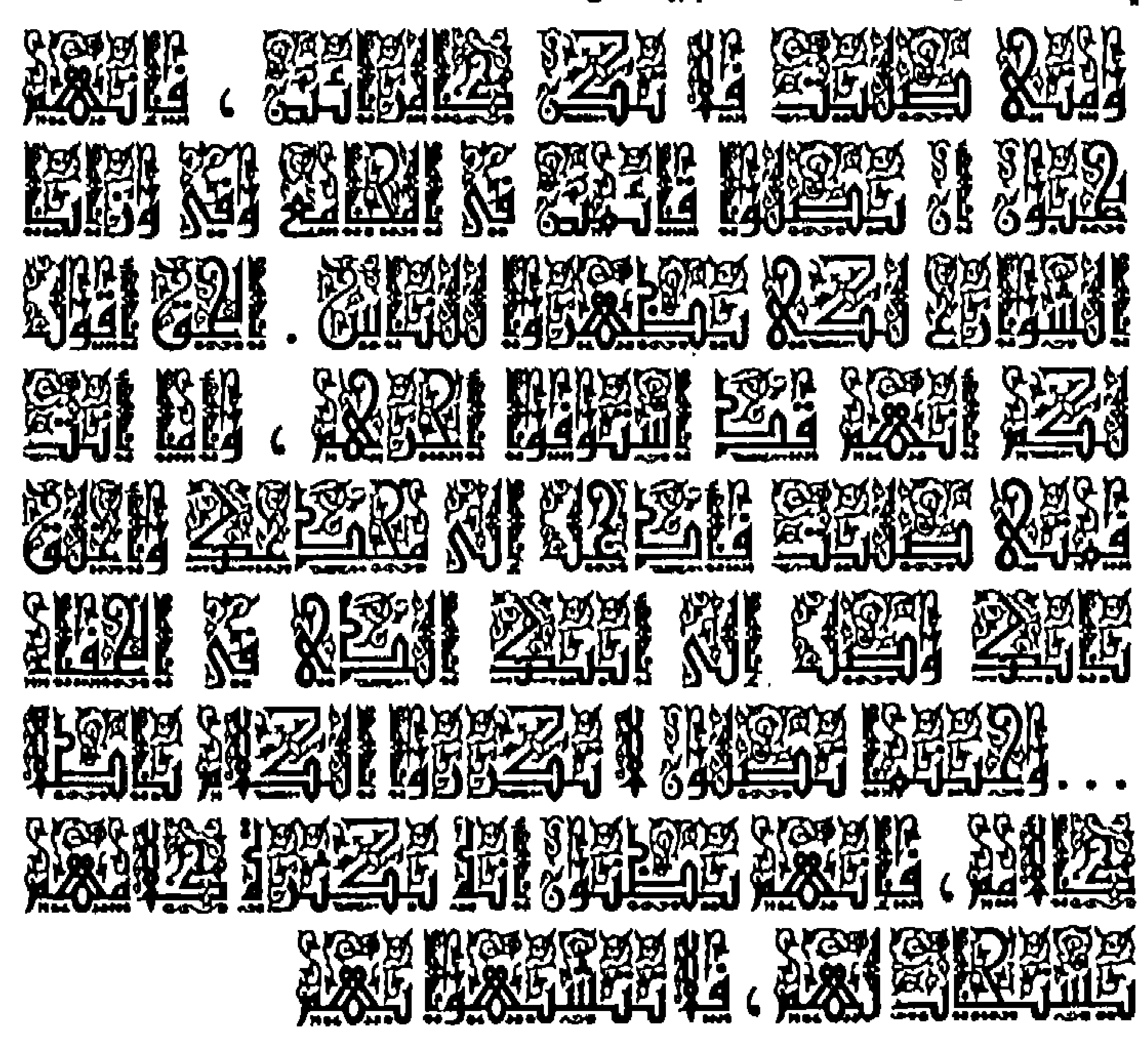
ومما يجدر بنا أن نلاحظه أن معجزات المسيح تتفق كل الإتفاق مع تعليمه وأخلاقه. وتتضح لنا هذه الحقيقة بوضوح إذ نقارن المعجزات الموصوفة في البشائر التاريخية مع تلك الخوارق التي نجد وصفها في المؤلفات المتأخرة، عندما ألحقت الخرافات بسيرة المسيح بعض العجائب التي تنسبها عادة أبطال خرافية. أما هذه القصص المزيفة فإنها تمثل المسيح كمجرد صانع عجائب، عمل معجزات ليكسب ولاء الشعب أو لينتقم لنفسه من أعدائه أو لتخلص من ظروف حرجة .... وما أبعد الفرق بين هذه الصورة وبين المعجزات المذكورة في البشائر التاريخية التي دون فيها المعاينون الحقائق الواقعة الصحيحة- لأننا نري في هذه المعجزات التاريخية صورة المسيح الحقيقي وهو يعمل كما كان يعلم وكما كان يعيش.

لقد ابي المسيح دائماً أن يستعمل قواته الإعجازية لتسهيل ظروف حياته الذاتية، كما حدث في قصة التجربة[٦]، لما رفض طلب الشيطان أن يجعل الحجر خبزاً ليسد جوعه الشديد. وكذلك ابي أن يستعمل هذه القوات ليستعين بها في تأدية رسالته بأن يستميل الناس إلي كرازته وإدعاءاته ، كما حدث عندما رفض إقتراح إبليس أن يطرح نفسه من فوق جناح الهيكل، ليلفت أنظار الناس إليه. وكذلك أيضاً لم يرض أبداً أن يعمل الآيات التي طلبها منه أعداؤه ، بل علي عكس ذلك طلب مراراً من الذين شفاهم أن لا يقولوا لأحد عما عمله بهم. ولم يستعمل قواته قط لإضرار الناس أو إيذائهم. ولكن مع أنه أبي استعمال واهٍ لأية غاية من هذه الغايات غير الجليلة، إلا أنه عندما واجه آلام الناس وشقاءهم (المقارنة بالإيمان الضروري) حتي ذاب قلبه الحساس ودفعه إلي مساعدتهم. وكما كان يعلم الناس عن محبة الله كان أيضاً يظهر هذه المحبة عملياً. ومع أنه لم يرض أن يسد جوعه الذاتي بصنع معجزة إلا أنه لم يتأخر عن عمل معجزة يسد بها جوع الآخرين. ولذلك كان يشفي المرضي

٦- راجعها في الإصحاح الرابع من إنجيل متى ، وكذا بإنجيل لوقا البشير.

ويقيم ابن الأرملة، وابنة القائد، وغيرهما ، وفي كل هذه الحوادث أظهر سموه الخلقي، واحترامه لحرية الشخصية الإنسانية، ومحبته الفائقة. إن معجزات المسيح كانت جزءاً من ذاته.

وفي الختام لنلاحظ أن إثنتين من المعجزات التي نجدها في سيرة المسيح تتطلبان علاجاً خاصاً. فسنبحث في قيامته من بين الأموات في فصل لاحق، وأما تلك المعجزة الفائقة – أعني شخصيته وأخلاقه – فنلتفت إليها الآن.



متى ٦: ٥–٧

□ أخلاق المسيح وشخصيته

إن أخلاق المسيح وصفاته هي في الواقع معجزة المعجزات وعجيبة العجائب. فقد تأثر الناس في كل الأجيال وجميع العصور بفضله الفريد. ويكفينا أن نقتبس ما قاله جون ستيورت مل – وليس هو بمؤمن – في آخر مؤلفاته، نموذجاً لاعتراف الجميع: " مهما انتزع عن طريق النقد العقلي يبقي المسيح – شخصية فريدة – لا يختلف عن الذين سبقوه فحسب بل يختلف أيضاً كل الإختلاف عن أتباعه، حتي عن الذين تمتعوا مباشرة بتعليمه الشخصي "

ولا مجال لنا هنا أن نتوسع في هذا الموضوع الشامل بل نكتفي بثلاث نقط :

(١) اعتدال المسيح الكامل

ان معظم قادة الفكر والعمل هم متطرفون غير معتدلين – وتميل طبيعتهم إلي فضائل خاصة دون غيرها وإلي مزايا معينة دون سواها من المزايا. أما أرسطاطليس Arisitotle فقد قال أن الفضيلة هي الوسط بين رذيلتين – ولكن من أصعب الأشياء علي الإنسان أن يستقر في هذا الوسط السعيد. أما المسيح فنجح في هذا كل النجاح.

من النادر أن نجد أشخاصاً شجعاناً وحلماء في الوقت نفسه ، أقوياء وودعاء. أما المسيح فجمع بين هذه الفضائل كلها. تأمل أولاً في شجاعته، التي تقدم بها في طريقه المعين له بهدوء وثبات، مع يقين العلم بالآلام الجسمية الشنيعة والأوجاع الروحية المروعة التي كان عليه أن يجتازها. ولكن " **حين تمت الأيام لإرتفاعه ثبت وجهه لينطلق الي أورشليم** " – مع أنه أخبر تلاميذه مراراً عما سوف يكابده هناك. تأمل أيضاً في سكوته الجليل ورزانته الكاملة في أثناء تلك القضايا المظلمة، وهيبته في ساعة الشدة والآلام. ثم – من الناحية الأخري – فكر في حلمه الرقيق نحو الأولاد الصغار عندما وبخ التلاميذ علي طردهم إياهم وقابلهم وباركهم – أو حين "أخذ ولداً وأقامه في وسطهم ثم احتضنه وقال لهم. " **من قبل هذا الولد باسمي يقبلني ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني**" (لوقا ٩ : ٤٨). أو حين بكي عند قبر لعازر علي حزن مرثا ومريم، مع العلم بأنه سوف يقيم أخاهم حالاً. ولذلك نجده يطرح الذين كانوا ينجسون الهيكل ولا يبالي بوجوه الناس في خدمة أبيه، مع أنه رفض الدفاع عن نفسه مهما إشتدت المهاجمات عليه.

ب. قلما نجد العطف الرقيق في من تمكن منه العنف والشدة، وعلي عكس ذلك قلما يستطيع العطوف أن يستعمل العنف. أما المسيح فقد جمع بين الاثنين، لأنه كان المثل الأعلي لمن يقدر أن يبغض الخطية وفي الوقت نفسه يحب الخاطئ. اسمع بعض تنديده – " ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون – لأنكم تأكلون بيوت الأرامل ولعله تطيلون صلواتكم. لذلك تأخذون دينونة أعظم. ويل لكم ... لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلاً واحداً. ومتي حصل، تصنعونه ابناً لجهنم أكثر منكم مضاعفاً ..... ويل لكم ..... المراؤون. لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة، تظهر من خارج جميلة وهي من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة ..... أيها الحيات، أولاد الأفاعي، كيف تهربون من دينونة جهنم؟" (متي ٢٣) ولكننا نجده بعد دقائق قليلة يعطف علي أورشليم ويظهر حنانه القلبي في قوله "ياأورشليم ياأورشليم، ياقاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها، كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا". اسمع أيضاً العطف والعنف المختلطين في قوله " ومن أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بي فخير له لو طوق عنقه بحجر رحي وطرح في البحر" (مرقس ٩ : ٤٢) . أو قارن بين ما قاله لرؤساء الدين المحترمين " أنتم من أب هو إبليس، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا " (يوحنا ٨ : ٤٤) وبين هذه الكلمات الرقيقة الموجهة إلي امرأة ساقطة منبوذة " إيمانك قد خلصك. إذهبي بسلام" (لوقا ٧ : ٥٠) أو تلك التي نطق بها إلي عشار غشاش مكروه " أسرع وإنزل لأنه ينبغي أن أمكث اليوم في بيتك " (لوقا ١٩ : ٥) من غير كلمة من كلمات التوبيخ.

ج. من الناس من يعتزلون للتأمل والتفكير ومنهم من يفضلون حياة الجد والعمل. وكثيراً ما نجد الإنسان الذي يركز أفكاره وآماله في عالم الروح غير قادر علي القيام بواجبات العالم اليومية، والشخص الذي يبذل جهده في حياة الدنيا يجد نفسه مشغولاً عن الإهتمام الكافي بما وراء القبر. أما المسيح فلم تكن الحال كذلك في حياته هو، بل كان من جهة يتكلم عن أبيه السماوي كمن هو أقرب إليه من أصدقائه ورفقائه البشريين. كما أنه كان يتكلم عن السماء والملائكة بالسهولة الطبيعية نفسها التي كان يشير بها إلي الدنيا والناس وكان مغزي تعليمه دائماً "ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه. أو ماذا يعطي الإنسان فداء عن نفسه "، لأنه فضل في كل حين ما للروح علي ما للجسد. ولكنه من الجهة الأخري صرف وقته وجهده في خدمة أجساد الناس أيضاً – لأنه كان يعمل الخير لكل الناس – في شفاء المرضي وفي إطعام الجياع وإقامة الموتي – ولم يكن يميز بين الأمور المختصة بالله وبين الأمور الزمنية العادية، بل كان كل ما قام به

"عمل " الآب ومشيئته. ولم يكن الجانب الروحي من حياة البشر يرغمه أن يعتزل العالم لينهمك فيه : فكم من مرات عديدة نقرأ عنه أنه لم يكن له وقت حتي ليأكل ، ومع ذلك فقد كان دائماً يلبي كل دعوة بنعمته الفياضة، ولم يؤثر في هدوء روحه ضوضاء الحياة. فكان المسيح المثل الأعلي للجد في غير هم، وللكد في غير قلق.

(٢) قدوة المسيح

نجد غالباً – بالنسبة إلي المعلمين والمفكرين في دائرة الأمور الخلقية – فرقاً عظيماً بين أفكارهم وأعمالهم، وبين تعليمهم وقدوتهم. ويقدم لنا التاريخ أمثالاً ممتازة لهذه الحقيقة – مثل سنيكا الذي، رغم فلسفته كلها وإعجابه بالعدل والإنصاف، كان دائناً مشهوراً قد خرب بيوت الكثيرين بطلبه ديونه دون تنبيه سابق أو إنذار – ومرقس اوريليوس Marcus Aurelius الذي حدث في أثناء حكمه إضطهادات دموية قاسية. ومهما يكن من الأمر فإنهم جميعهم لم يصلوا في حياتهم إلي المستوي الذي نادوا به. أما المسيح فلم يكن كذلك البته، لأن حياته كانت تلائم تعليمه كل الملاءمة، وتقدم لنا قدوته ذلك المستوي السامي عينه الذي دعتنا إليه كلماته. فلنراجع بعض تعاليمه المذكورة آنفاً لكي نري كيف كانت تصرفاته وأخلاقه تطابق تعاليمه.

أ. كان المسيح يدعو الناس إلي الطهارة الخلقية، فكان هو طاهراً في حياته طهارة ملموسة – حتي إلتجات إليه النساء الساقطات المسكينات وهن يشعرن بتبكيت الضمير ليس بسبب كلماته فحسب بل بنظر عينيه. لجأن إليه باكيات وغسلن قدميه بدموعهن، لأنهن شعرن يقيناً أنه لن يخطئ في ظنه بهن بل يمكنهن أن يثقن فيه كل الثقة.

ب. علم المسيح الغفران ودعا الناس إلي محبة أعدائهم. وقد قابل هو نفسه يهوذا الخائن قائلاً " **يا صاحب لماذا جئت؟** " (متي ٢٦ : ٥٠) ، فكان حزيناً حقاً ولكن بغير أن يتملكه الغضب. وكذلك الحال أيضاً بإزاء التلاميذ الذين تركوه، وبطرس الذي أنكره ، فكانت نظرة الحزن في عينيه هي التي سحقت قلب بطرس ودفعته إلي توبته المرة، بل أعجب من ذلك – أنه كان ينفذ تعليمه القائل " **صلوا لأجل الذين يسيئون إليكم** " تنفيذاً حرفياً إذ صلي علي الصليب لأجل ظالميه من غير أن يوجه إليهم كلمة تعنيف أو توبيخ ، فقال " **يا أبتاه إغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون** " (لوقا ٢٣ : ٣٤)

ج. وأخيراً علم المسيح الناس أنهم يحصلون علي الحياة الفضلي من وراء الموت ، بل أن الموت هو الباب لحياة أسمي وأمجد. فطبق هذا التعليم أولا علي الموت الأدبي لطبيعة الإنسان الدنيئة حتي يتمكن من الوصول إلي الحياة

الأدبية الرفيعة، وثانيا علي الموت الجسدي الشريف في سبيل نيل مجد السماء. أما هو فقد قدم لهم أعلي قدوة لهذا التعليم. لم يعش لنفسه قط بل عاش ليعمل مشيئة الله ويخدم الآخرين. كان وديعاً ومتواضع القلب ، حتي لقد غسل أقدام التلاميذ (يوحنا ١٣ : ٤). بل قال لتلاميذه أيضاً:" **قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان. الحق الحق أقول لكن إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمت فهي تبقي وحدها. ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير**" (يوحنا ١٢ : ٢٣). " **وأنا إن ارتفعت عن الأرض (في الصلب) أجذب إلي الجميع**" (يوحنا ١٢ : ٣٢).

ولم يكن المثل الأعلي لتعليمه فحسب بل كان أيضاً يدعو الناس إليه كمن إستطاع وحده أن يخلصهم من الخطية ويمكنهم من أن يحفظوا تعاليمه. قال " **تعالوا إلي .. وأنا أريحكم**" . " **إن عطش أحد فليقبل إلي ويشرب**". أما هذه النقطة الهامة فإننا نريد بحثها فيما يلي، ويكفينا الآن أن نلاحظ أن المسيح علم الناس دائماً أن سر الحياة هو "**الإيمان به**" و "**قبوله**" و "**طاعته**" و "**اتباعه**" – أي في العلاقة الكائنة بين النفس وبين شخصه هو المجيد.

(٣) عصمة المسيح

وأخيرا نقول ان معجزة أخلاقه الفضلي وميزة طبيعته العظمي كانت كمالاً وعصمة من أي نقص أو خطأ – وقد شهد لها الجميع. ولسنا نستند في هذا الصدد إلي الوجهة السلبية فقط، أعني أن السجلات، مع تصريحها بعيوب التلاميذ ونقائصهم، قد سكتت سكوتاً تاماً عن نسبة اي نقص إلي السيد نفسه – هذا حق كله وله مغزاه وقيمته، ولكننا لا نرتكن عليه وحده، لأن المعترض قد يجيب علي هذا بأن هذه السجلات لا تشتمل علي كل ما فعله وقاله وفكر فيه، بل نستند بالأحري إلي الدلائل الإيجابية الوثيقة كما يأتي :

(١) كان اليهود – ومن بينهم التلاميذ – شديدي التعصب لعقيدة التوحيد، وكان من الصعب جداً أن يؤمنوا بألوهية المسيح. ولكنهم قد دفعوا إلي هذا الإيمان بدافع الحقائق الاختبارية التي لم يكن مفر منها. ولسنا ننكر أن معجزاته لعبت دوراً عظيماً في هذا الإعتقاد، لكن المصدر الحقيقي لهذا هو الإتفاق الكلي بين المعجزات وحياة صانعها، بين العجائب العملية وشخصية عاملها ، فإيمانهم به إلهاً لهو أقوي شهادة وأبلغ حجة لكماله وعصمته.

(٢) لم يشهد أصدقاؤه وأتباعه وحدهم لسمو أخلاقه ورفعة طبيعته، بل لقد شهد أعداؤه أيضاً – تصريحاً وتلميحاً – لكماله الخلقي وعدم نقصه. قال يوماً للذين كانوا ينتقدونه " **من منكم يبكتني علي خطية؟** "، فلم يتجاسر أحد أن يجيبه بكلمة. وكم من مرات عديدة حاول أعداؤه – بل بالغوا في محاولتهم – أن يتلمسوا خطأ يجدونه فيه ، لكنهم فشلوا كل الفشل في هذه المحاولة. وفي

محاكمته الظالمة لم يجدوا شهوداً عليه إلا شهود زور – بل حتي أولئك الكذبة لم يتفقوا في أكاذيبهم.

(٣) ولم يكن معاصروه منفردين في تقديرهم له هذا التقدير، بل قد شهدت الأجيال كلها بما هو عليه من تفوق خلقي وكمال أدبي، لا يدانيه فيهما سواه . ودليل هذا أن المفكرين في كل عصر من العصور قد إتخذوه المثل الأعلي، وجعلوه المقياس السامي الذي يحكمون به علي سواه . بل زد علي ذلك أن القليلين الذين قد حاولوا أن يتلمسوا أنقاصاً في تفصيل من تفصيلات حياته لم يجدوا قياساً يحكمون به عليه إلا قياس حياته وتعليمه هو!

(٤) ولا ننس أن نضيف الي هذا كله ما شهد هو به عن نفسه. لأننا نتعلم من التاريخ والإختبار أن القديسين الحقيقيين يشعرون شعوراً عميقاً بنقائصهم وعيوبهم. بل كلما تزداد قداسة المرء كلما يزداد أيضاً حزنه علي خطاياه. وإذا تجاسر أحد أن يدعي الكمال لنفسه لم يتوان أصدقاؤه وأعداؤه أن يكذبوا إدعاءه . أما المسيح – وهو أول القديسين وأعظمهم – فإنه لم يشر قط في مواعظه أو صلواته لأي شعور بنقص أو عجز، بل علي عكس ذلك إستطاع أن يقول ، مع أنه وديع ومتواضع القلب – " **إني في كل حين أفعل ما يرضيه** " (أي الله). " **من منكم يبكتني علي خطية؟** "

قال يوحنا التلميذ المحبوب " ليس فيه خطية" وصادقه بطرس قائلاً " الذي لم يفعل خطية ولا وجد في فمه مكر" . قالت عنه إمرأة بيلاطس " ذلك البار" وأجاب بيلاطس نفسه " **إني برئ من دم هذا البار**"، " **لم أجد في هذا الإنسان علة مما تشتكون به عليه – ولا هيرودس أيضاً**" . صرخ القائد المئة الذي وقف بجانب صليبه " **بالحقيقة كان هذا الإنسان باراً**"، كما شهد اللص المصلوب معه " هذا لم يفعل شيئاً ليس في محله". وصرخ يهوذا الخائن " **سلمت دماً بريئاً**" ثم خرج وخنق نفسه.

كان المسيح فريداً في تعليمه، في حكمته، في معجزاته، وفي شخصيته – لا نظير له. فلا محيص لنا من أن نواجه هذا السؤال القديم " **ماذا تظنون في المسيح؟** "..

- أكان مجرد إنسان قد تفوق علي الإنسانية كلها في كمال إنسانيته؟
- أو هل كان أكثر من ذلك بكثير – الإله السرمدي ظاهراً في الجسد؟

وسنرجع إلي هذا السؤال في الفصل الخامس بعد أن بحثنا في دلائل قيامته من بين الأموات.

الفصل الرابع

قيامة المسيح من بين الأموات

رأينا في الفصول السابقة :

(١) أن المسيح حقيقة تاريخية لا سبيل إلي إنكار ظهوره علي صفحات التاريخ.

(٢) أن البشائر الأربع حقيقة تاريخية لابد لكل عقل غير متحيز من أن يقبلها كسجلات صادقة كتبها معاصرون عن شخص عاشروه وعرفوه.

(٣) أن هذه الوثائق تكشف لنا عن شخصية فريدة ، لا نظير لها ، إذ كان المسيح متفوقاً في أخلاقه، ممتازاً في تعليمه وحكمته ومعجزاته. أما تأثير شخصيته في معاصريه ونفوذها الروحي في التاريخ البشري فدليل قوي علي صدق هذه السجلات.

(٤) ولا يتسنى للمادي أو الناقد العصري أن يفصل بين تعاليم المسيح ومعجزاته ويحتفظ في الوقت نفسه ببقية تاريخية بعد أن يكون قد ذهب بالعنصر الخارق للطبيعة. كلا .. لأن المعجزات منسوجة في نسيج الحوادث والتعاليم، بحيث أن كل السجلات وحدة لا تتجزأ، فإما أن تقبل كلها أو أن ترفض كلها.

(٥) خرجنا من بحثنا السابق بالسؤال " ماذا تظنون في المسيح؟ " ، هل كان مجرد إنسان قد تفوق علي الإنسانية في كمال إنسانيته، أم كان بالحقيقة ، كما تدعي الكنيسة المسيحية ، الإله السرمدي ظاهراً في الجسد ؟

فلنواصل إذن بحثنا، فنركز نظرنا في نقطة من أهم النقط الواردة في تلك الوثائق التي قد أثبتنا صدقها آنفاً. أما هذه الوثائق فإنها تزعم بلا نزاع أن المسيح لم يمت فحسب، بل قام أيضاً. ثم إنها لا تدعي أنه خالد بمعني روحي وكفي، بل تقول أنه بالحقيقة قد قام من بين الأموات ، فعاد روحه الخالد ولبس جسده الميت، فغيره إلي جسد ممجد.

أما هذا الادعاء فإنه يستحق منا غاية الاهتمام. فإذا أثبتنا إثباتاً لا يشك فيه العقل السليم أن المسيح قد قام فعلاً وحقاً ، فلا مندوحة لنا من أن نستنتج الإستنتاجات الآتية :

(١) أن من يسلم بهذه المعجزة الممتازة لا يبقي عنده مجال للتردد في التسليم بسائر المعجزات التي أجراها المسيح.

(٢) إذا ثبتت قيامة المسيح ثبت معها بلا شك موته وصلبه، وصار من المحقق أن هذا الموت لم يكن هزيمة بل نصرة عظيمة.

(٣) بقيامة المسيح يثبت أيضاً ما إدعي المسيح لنفسه . فهذه القيامة تساعدنا كل المساعدة علي الإجابة عن هذا السؤال" ماذا تظنون في المسيح؟ " لأننا نجد أن الحقائق تقودنا فعلاً إلي تصديق قول الكتاب المقدس : أن المسيح "**تعين ابن الله بقوة .... بالقيامة من الأموات**" . أما هذا اليقين فإنه لنا بمثابة مرساة للنفس وقتما يتزعزع إيماننا أو يدب الشك في قلوبنا.

ولكن ، دعنا أولاً نسأل .. ما هو المقياس الذي نعتمده في قياسنا لهذه القضية ؟

يقول "**رومانو كوارديني**" [١]:

" نحن هنا أمام خيارين اثنين يبلغان بنا منه إلى الأغوار السحيقة . فإما أن نتخذ أنفسنا كمقياس لكل الأشياء مقياساً لنا ، مع كياننا البشري على علاته ، مع العالم على مثل ما يحيط بنا ، مع النمط الذي به نفكر ونشعر ؛ فنبدأ بالحكم على يسوع إنطلاقاً من كل ذلك . وإذ ذاك نرى في لن نستطيع أن نرى في قيامته سوى نتاج بعض الإحساسات الدينية ، وخلاصة حياة جماعية في بدء نشأتها ؛ وبموجز القول ، سوى وهم بوهم . وإذ ذاك سيقوم المنطق ، عاجلاً أو آجلاً ، بالتحول عن ذاك الإيمان ، مستبدلاً إياه بمسيحية صافية لا تلبث أن تنقلب إلى أخلاقية هزيلة ، أو تقوية فارغة ... وإما أن نفهم حق الفهم أن شخصية يسوع تقتضي منا شيئاً واحداً .. الإيمان . فنفهم عندئذ أن يسوع لم يأت ليزود العالم بمزيد من المعارف ، وبالخبرات الجديدة ، بل ليحررنا من سلطان العالم . يجب علينا إذاً أن نعي ما يقتضيه منا المسيح ونذعن له ، ونطلب منه أن يهدينا إلى مقاييس الفكر التي يجب أن نطبقها عليه . وإننا لعلى إستعداد لأن نتعلم منه أنه لا يريد إصلاح العالم عن طريق قيم وطاقات يعدها البشر أكثر نبلاً وباطنية ، وإنما عن طريق شكل جديد من الوجود يبدأ به ، محورين ذاك المحور الذي نسميه الإيمان إلى محور يجعلنا نفكر لا بالأشياء من حيث هي للعالم ، بل بالعالم والأشياء كلها من حيث هي للمسيح . وإذ ذاك لا نقول أن ليس في العالم من ميت يقوم ، وبالتالي ليست رسالة القيامة سوى حديث خرافة ، بل سنقول لقد قام المسيح ، وبالتالي فالقيامة هي أساس العالم الحق ".

---

[١]- رومانو كوارديني ، قيامة المسيح ، سلسلة دراسات لاهوتية ، ترجمة : الأب جرجس المارديني ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٨٨، ص ١٣- ١٤ .

لنلتفت الآن إلي أدلة قيامة المسيح. فقد شهد لقيامته ، شهادة مكتوبة ، ستة شهود مختلفين : هم متي ، ومرقس ، ولوقا ، ويوحنا ، وبطرس ، وبولس. وكان ثلاثة منهم شهود عيان ، ومع أن شهادة كل منهم تتفق وشهادة زملائه في الجوهر ، إلا أنها مستقلة بعضها عن بعض كل الاستقلال، كما يتجلي من مطالعة سجل الكتاب فرفض هذه الشهادة المكررة المتفقة بغير فحص أو بحث لهو غاية في الجهالة والتعصب. أما من يتأمل في هذه الأسانيد فلا مناص له من أن يخرج برأي من ستة :

- إما أن يحكم بأن هذه السجلات المتعلقة بتجلي المسيح المقام هي كلها مجرد أكاذيب أو خرافات إخترعتها مخيلة أصحابها لأغراض ذاتية
- أو أنها خيالات أو أوهام توهمها أناس سذج
- أو أنها ظواهر في عالم الروح تحاكي ما يدعيه بعض المعتقدين بمناجاة الأرواح
- أو أن المسيح لم يمت البتة بل أغمي عليه، ثم أفاق من الإغماء فظن تلاميذه أنه قد قام من الأموات
- أو أن من مات وقام لم يكن المسيح بالذات بل شخص سواه
- أو ، أخيراً ، أن هذه السجلات مؤتمنة وصادقة تدعو إلي الإيمان بها.

فلنبحث إذن هذه الآراء واحداً واحداً، علنا نبلغ ما يهتدي إليه العقل السليم عن إثبات الحقائق.

(١) **الرأي القائل بأن هذه السجلات هي مجرد أكاذيب أو خرافات** إخترعتها مخيلة المسيحيين الأولين تقديساً وإحتراماً لبطلهم ، كم حدث في التاريخ لكثيرين من الأبطال.

أما هذا المذهب فلا يذهب إليه أقلية حقيرة في هذه الأيام ، وأمام الحجج الآتية لا نجد مفراً لنا من رفضه :

أ. الشهود. مع أن المحاكم تقبل عادة شهادة اثنين إلا أن أمامنا في هذا الصدد ستة شهود – بل أكثر بكثير – لأن هذه السجلات المتعلقة بقيامة المسيح لم تؤسس علي شهادة المؤلفين وحدهم، بل علي شهادة الكنيسة كلها – لأن حقيقة القيامة كانت هي العقيدة الأساسية في تلك الكنيسة. ولقد كتب بولس أن المسيح المقام **"ظهر لصفا ثم للإثني عشر. وبعد ذلك ظهر دفعة واحدة لأكثر من خمسمائة أخ أكثرهم باق إلي الآن ولكن بعضهم قد رقدوا. وبعد ذلك ظهر ليعقوب ثم للرسل**

أجمعين" (١ كو ١٥). فإذا كانت كل هذه الأخبار هي مجرد أكاذيب، فلماذا لم ينكرها أحد من هؤلاء الشهود الكثيرين ، فهم علي عكس ذلك صدقوها بالإجماع.

ولكن المحاكم لا تنظر إلي عدد الشهود فحسب، بل أيضاً إلي أخلاقهم والثقة التي يمكن أن تحوزها شهادتهم. أما هؤلاء الشهود فلم يأتوا فقط بأسمي تعاليم في الأمور الخلقية في تاريخ البشرية، بل قدموا أيضاً للعالم الوثني أعظم قدوة لهذه التعاليم ، قدوة إعترف بسموها أعداؤهم ومضطهدوهم . فهل مما يصدقه العقل السليم أن هؤلاء قد تآمروا علي أكاذيب مختلقة قبيحة ؟ !

بل أكثر من ذلك – أن هؤلاء الشهود قد تغيروا تغيراً تاماً بعد ما نادوا بقيامة سيدهم من بين الأموات – فبدل أن كانوا جماعة من الجبناء الخائفين أصبحوا فجأة أبطالاً صناديد قلبوا العالم كله بكرازتهم بهذه القيامة. أفليس من المستحيل إذن أن يكونوا قد تغيروا هذا التغير العجيب بسبب كذب أضمروه في قلوبهم ، مع أن علم النفس الحديث يعلمنا أن الكذب المخفي في الباطن يؤثر أشر تأثير في الحياة الظاهرة ؟

ب. <u>القبر الفارغ</u>. كيف تكون هذه الوثائق مجرد أكاذيب ، مع أنه من المحقق أن القبر الذي وضع فيه جسد المسيح أضحي فارغا؟ وإلا أفلا يكون من مصلحة اليهود والرومان معاً ، وكلاهما رغب في تحطيم هذا الدين الجديد كل الرغبة ، أن يأتوا بجسد المسيح الميت ويعرضوه أمام أعين الشعب، كحجة دامغة علي بطلان إدعاء التلاميذ بقيامته؟ ولا شك في أنهم ما كانوا يتوانون عن ذلك لو لم يكن القبر فارغاً حقاً . أما تلك الرواية التي وضعها اليهود في أفواه الجنود الحراس ، " أن تلاميذه أتوا ليلاً وسرقوه ونحن نيام" ، فكيف يصدقها أحد؟ هل ينام الحراس كلهم في وقت الحراسة ، مع العلم أن الجنود الرومان كانوا مضرب المثل في العالم كله للجد والنظام؟ ولو كانوا فعلاً نياما، فكيف إذاً عرفوا أن الجسد قد سرق، ومن أنبأهم بمن سرقه؟ ثم كيف يتسني لعدد قليل من التلاميذ أن يسرقوه ويفلتوا من قبضة الحراس؟ علي أننا لا نستطيع أن نفترض أن عدداً كبيراً منهم قد تآمروا علي هذه السرقة وعلي هذه السلسلة من الأكاذيب المترتبة عليها ، لأن هذا الإفتراض لا يتلاءم وأخلاق أولئك التلاميذ.

ج. <u>الوثائق نفسها</u>. أن الوثائق نفسها تؤيد البراهين السابقة، وكذلك ما تحويه هذه الوثائق من دلائل باطنية فأولا لم يكن الوقت كافيا لنضوج الخرافات ، لأننا رأينا أن المؤرخين قد أجمعوا علي أن ثلاثاً من البشائر ورسائل عدة كتبت

قبل سنة ٧٠ بعد الميلاد، ولأن الكرازة بهذه الأخبار ترجع إلي ما قبل تدوينها بزمن طويل. ولذلك يجب إعتبارها شهادة شهود عيان. ويؤدي بنا البحث العميق في الأخبار نفسها إلي هذه النتيجة عينها ، مع أن مخترع الأكاذيب يندفع إلي وصفهما إندفاعا؟ ولو كانت خرافات أو أكاذيب، فلماذا نكر أن المسيح ظهر أولاً لمريم المجدلية – التي لم تكن ذات شأن بين التلاميذ – مع أن مبتكر الخرافات لابد له أن يذكر أن المسيح المقام ظهر أولاً لبطرس أو ليوحنا أو لمريم أمه؟ ثم لماذا نجد هذا التباين السطحي بين السجلات المختلفة؟ لأن مصطنعي الأكاذيب يحبكون عادة كل تفصيلاتها. أما هذا الإتحاد في الجوهر مع بعض التباين السطحي فإنه لا يأتي إلا في سجلات صادقة لحوادث واقعة عاينوها ولمسوها ثم دونوها.

(٢) **الرأي القائل بأن هذه السجلات هي مجرد خيالات أو أوهام.** إن الذين يذهبون إلي أن هذه الوثائق هي خرافات وأكاذيب هم نفر قليل جداً. أما الرأي السائد عند السواد الأعظم من الذين ينكرون حقيقة القيامة فهو أن البشيرين – بل المسيحيين الأولين كلهم – لم يكونوا كاذبين بل مخدوعين، وأنهم سجلوا بغاية الإخلاص ما خيل إليهم حدوثه ، أو بعبارة أخري، أن ما وصفوه من تجليات المسيح المقام كان مجرد خيالات أو أوهام.

أما هذا المذهب فقد أصبح من الصعب الدفاع عنه في هذه الأيام الأخيرة. لأن علم النفس – وما ينطوي عليه من فحص الخيالات وبحث الأوهام – قد كشف عن حقيقة خطيرة ، ألا وهي أن الخيالات والأوهام إنما هي أمراض نفسية عقلية تحكمها قوانين مماثلة في كثير من الوجوه للقوانين التي تحكم الأمراض الجسمية. وعليه فلنفحص هذه " **الخيالات** " و " **الأوهام** " في نور هذه القوانين ، لنري ما إذا كان العلم الحديث حكماً لهذا الزعم أم عليه.

أ. قرر علماء النفس ان الخيالات والأوهام إنما هي شخصية جداً ، بحيث أن خيالات فلان تختلف كل الإختلاف عن خيالات غيره بحكم الطبع، لأن مصدر الخيالات هو العقل الباطن وما يذخره من الذكريات والأفكار والتصورات التي لا يشاطره فيها سواه. أما هذه "الخيالات" و "الأوهام" فإنها لا تتفق وهذا القانون علي الإطلاق، لأن كل واحد من هؤلاء الشهود الستة – بل الخمسمائة الذين كتب

بولس عنهم – قد شهد بهذه "الخيالات" نفسها وتلك "الأوهام" عينها التي شهد بها كل واحد من زملائه.

ب. ليست الخيالات والأوهام شخصية فحسب، بل نجدها غالباً تصيب فريقاً خاصاً من الناس دون غيرهم. فالإنسان العصبي المزاج السريع التأثر والإندفاع عرضة لمثل هذه الأمراض العقلية، بينما الإنسان الرزين الهادئ لا يصيبه شئ من ذلك. وعلي هذا يجوز مثلاً التغاضي عن شهادة مريم المجدلية بدعوي أنها شهادة اسست علي أوهام أصابت امرأة عرضة لها. أما شهادة متي (جابي الضرائب) وتوما (الذي أبي التصديق "بأوهام" الآخرين ما لم ير هو بعينيه ويلمس بيديه) وشهادة بطرس وأندراوس وغيرهم، فكيف تلقب "بالخيالات" ؟ - مع العلم أن أناساً أقوياء مثلهم لا يمكن أن تصيبهم مثل هذه الأوهام أو الخيالات.

ج. أن فحص الأوهام يؤدي بنا إلي أن نستنتج أن الناس عادة يتوهمون ما كانوا يتوقعون، أو ما كان موجوداً في عقولهم الواعية أو الباطنة. فالأم مثلاً التي تنتظر يوماً فيوماً رجوع ابنها الضال، هي عرضة لأن تتوهم أنه جاء فعلاً. أما التلاميذ فلم يكونوا متوقعين قط قيامة المسيح بل علي عكس ذلك كان صلبه قد أودي بهم إلي هوة اليأس. وغير أن المسيح كان قد تنبأ فعلاً عن موته وقيامته غير مرة، إلا أنهم لم يفهموا كلامه هذا مطلقاً ، إلا ويزعم أحد أن كل الشواهد التي تشير إلي عدم فهمهم نبواته عن القيامة وحالة اليأس التي تملكتهم بعد صلبه، هي كلها مجرد أكاذيب ! وما الداعي لهذه الأكاذيب التفصيلية الدقيقة المنبثة في أماكن شتي في نسيج السيرة ؟ ولو كانت هي كلها مفتريات، إذن لحسب البشيرون من أقبح الكاذبين بل من أمهر الملفقين!!

د. ثم أن الخيالات والأوهام لا تعتري المصابين بها عادة إلا في ساعة خاصة ، كالمساء ، وفي أماكن معينة ، مثل الغرف المظلمة والغابات الموحشة. أما هذه "الخيالات" المزعومة فقد فاجأت التلاميذ مساء وصباحاً ، داخلاً وخارجاً ، أفراداً وجماعات ، وهم جالسون في غرفة حيناً، وهم يصطادون سمك البحر حيناً آخر.

ه. قرر علماء النفس أن الخيالات والأوهام تدرك المصابين بها بشئ من النظام التدريجي. فتأتي الإنسان مثلاً في أول الأمر كل ليلة، ثم كل ليلتين، ثم مرتين في الأسبوع، إلي أن تزول بالتدرج. أما هذه "الخيالات" و"الأوهام" فقد أتت لكثيرين من الناس مراراً مختلفة مدة أربعين يوماً ، ثم إنتهت فجأة ولم يدع أحد هؤلاء المصابين أن خيالاً واحداً من هذا القبيل قد أتاه بعد ذلك علي الإطلاق.

و. علاوة علي ذلك كله فإن وصف هذه الأخبار بالأوهام لن يحل مشكلة القبر الفارغ، ولا يشرح لنا عجز المقاومين عن أن يأتوا بجسد المسيح.

(٣) **الرأي القائل بأن تجليات المسيح بعد موته هي ظواهر في عالم الروح** مثلما يحدث في مناجاة الأرواح – لا أكثر.

هذا المذهب يشبه في كثير من الوجوه المذهب السابق، غير أن أصحابه يقولون أن تجليات المسيح هذه لم تكن مجرد أوهام، بل ظواهر في عالم الروح كتلك التي يدعيها من يعتقدون بمناجاة الأرواح. أما تفسيرهم هذا للحوادث فإنه لا يتفق والواقع :

لأن مناجاة الأرواح تفترض أولاً وجود جماعة تطلب هذه الظواهر، وتتوق إليها. أما التلاميذ فلا يمكن وصفهم بذلك، لأن قيامة المسيح كانت مفاجأة لهم.

وتتطلب مناجاة الأرواح ثانياً وجود " الوسيط " وإجتماع طالبي الأرواح به في مكان خاص. أما المسيح المقام فإنه قد أظهر نفسه مباشرة لكثيرين من الناس من غير وسيط ما : تارة لأفراد وطوراً لجماعات – كما أنه التقي بهم آناً داخل البيوت وآونة علي شاطئ البحر، وآونة أخري عند سفح الجبل.

وفي مناجاة الأرواح أيضاً لا يلمس أحد " الخيال " أو يراه يتناول طعاماً، مما لا يمكن أن يتأتي للأرواح. ولقد أنكر المسيح نفسه هذا المذهب في قوله لتلاميذه المرتعدين خوفاً مما ظنوه شبحاً " انظروا يدي ورجلي. أنا هو. جسوني وانظروا. فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي".

ومهما يكن من الأمر فإن هذا المذهب أيضاً ليعجز كل العجز عن أن يحل مشكلة "القبر الفارغ " .

(٤) **الرأي القائل بأن قيامة المسيح لم تكن قيامة حقة بل إفاقة من إغماء.**

يري أصحاب هذا الرأى أن المسيح لم يمت بالفعل بل أغمي عليه بسبب آلام الصلب وشدته، فظن أتباعه أنه قد مات حقاً، وخرج من قبره، فظهر لتلاميذه. أما التلاميذ فقد ظنوا أنه قد قام فعلاً من الأموات.

يمتاز هذا المذهب عن المذاهب السابقة بأنه يقدر حقيقة القبر الفارغ تقديراً كافياً، كما أنه يسلم أيضاً بأن التلاميذ قد رأوا المسيح بالذات حياً بعد صلبه. ولكن لا يخلو هذا الرأي من عوائق عديدة وموانع قوية.

أ. لا يتم في الواقع دفن شخص حي ، وإنما يحدث هذا في الروايات الخيالية. أما موت المسيح فقد تحقق منه الرومان والكهنة والتلاميذ معاً ، وإلا فما معني تلك الحربة التي طعن بها جنبه فأسالت منه الماء والدم ؟

ب. هل يصدق عاقل أن إنساناً ما، قد أغمي عليه من كثرة الآلام وشدة الضعف، ومكث في القبر ثلاثة أيام بلا طعام ، أيستطيع إنسان كهذا قد بلغ الضعف به هذا المبلغ أن يفيق من هذا الإغماء وأن يقوي علي التخلص من أكفان وأطياب وزنها نحو مئة منا ؟ أو علي دحرجة حجر ثقيل عن باب القبر ؟ ، أو علي النجاة من الجنود الحراس ؟ أو علي المشي ثمانية أميال من أورشليم الي قرية عمواس ذهاباً وإياباً علي قدميه المثقوبتين ؟

ج. لو كان هذا الرأي حقيقياً لاعتبر المسيح نفسه خداعاً ، لأنه لم يتنبأ لتلاميذه عن موته وقيامته فحسب، بل أكد إتمام هذه النبوات عند ما ظهر لهم بعد خروجه من القبر. ولسنا نظن أن إنساناً وهب ذرة من العقل يتجاسر أن يتهم المسيح بالخداع. ثم لو كان خادعاً فكيف مكنه الله من إجتياز الأبواب المغلقة، ومن التغلب علي حدود المكان، ومن الصعود إلي السماء أيضاً ؟ ولو لم يكن المسيح قد صعد الي السماء حقاً فأين ذهب، وماذا حدث له ؟ وما إلي ذلك من الأسئلة التي لا جواب عنها.

(٥) (ه) الرأي القائل ان الشخص الذي مات لم يكن هو المسيح بالذات.

يعتقد بهذا المذهب بعض اخواننا المسلمين الذين يرتكون علي تفسيرهم لآية في سورة النساء تنكر في الظاهر صلب المسيح. غير اننا قد رأينا أن آيات أخري تشهد شهادة لا غموض فيها لصدق موته ، ولذا نجد بعض المفسرين يعترفون بهذه الحقيقة التاريخية ومهما يكن من الأمر فقد رأينا من البراهين السابقة ، كما سنري أيضاً من البراهين اللاحقة ، أن شخصاً يشبه المسيح كل المشابهة ومن جميع الوجوه، ظهر للتلاميذ مدة اربعين يوماً، مؤكداً انه هو المسيح وأنه قد قام من بين الأموات. ولو لم يكن هو المسيح بالذات فكيف إستطاع ان يخدع التلاميذ كل هذه المدة الطويلة، مع العلم أن صوت المسيح، وأسارير وجهه، وعاداته، كانت كلها معروفة عندهم تمام المعرفة. ولو لم يكن

هو المسيح بالذات، فمن إذن يكون هو ؟ علي الأقل لم يكن نبياً البتة ، وعليه فكيف إذن أتيح له أن يأتي بالمعجزات المذكورة وأن يصعد إلي السماء ؟

كلا .. أن هذا الشخص العجيب لا يمكن إلا أن يكون هو المسيح بالذات، وإذا كان المسيح هو الذي ظهر لتلاميذه مؤكداً أنه قد قام من الأموات، فمن المحتم إذاً أن الشخص الذي مات هو المسيح بالذات ، وإلا فمن أين أتته آثار المسامير في يديه ورجليه والجرح في جنبه من طعنة الحربة ؟ فلو لم يكن المسيح قد مات لكان المسيح نفسه من أكبر الخداعين ! إن وصفاً كهذا لا يمكن أن ينسبه إلي المسيح إلا شخص به مس من الجنون !!

(٦) هذه الوثائق هي حقيقة واقعة

لقد تبين لنا فيما سبق أن الآراء التي مرت بنا لا يمكن ان تتفق والواقع . فلا محيص لكل ذي عقل سليم من أن يسلم بصدق هذه الوثائق. لأن هذا هو المنفذ الوحيد للخروج من المأزق الذي أوقعتنا فيه هذه الحقائق التي بحثنا فيها :

أ. أن بطلان الآراء سالفة الذكر والأدلة السلبية التي بني عليها هذا البطلان، قد أضحت الآن حججاً إيجابية جامعة مانعة تشهد لصدق حقيقة قيامة المسيح. فحقيقة القبر الفارغ مثلا لهي حجة إيجابية دامغة في هذا الباب الإيجابي، وكذلك شهادة الشهود نقطة نقطة ، تلك الشهادة التي لا يمكن أن نعتبرها أكاذيب أو نحسبها خيالات.

ب. في العالم اليوم جمهور عظيم يسمي " الكنيسة المسيحية ". وقد تتبع المؤرخون آثارها إلي ما يقرب من سنة ٣٠ بعد الميلاد في أرض فلسطين. ولا شك في أن الكنيسة المسيحية كلها أسست منذ البداءة علي الكرازة بالقيامة والدعوة إلي مخلص مقام حي. فمن البديهي إذن أن القيامة هي حقيقة واقعة. وإلا فكيف تؤسس الكنيسة علي غير أساس ؟

ج. إن أكثر من نصف العالم قد قرر أن يوم الأحد هو يوم العبادة. وقد تتبع المؤرخون أصل هذه الحقيقة أيضاً، فإنتهي بهم المطاف إلي فلسطين منذ سنة ٣٠ بعد الميلاد، علي وجه التقريب. أما اليهود فقد كانوا شديدي التمسك بيوم السبت. فما الذي حول المسيحيين الأولين ، ورؤساؤهم كلهم يهود في الأصل، عن السبت الذي أعلن الله تقديسه من علي جبل سيناء إلي يوم الأحد؟ لابد من حدوث حادث عجيب سبب هذا التحويل العجيب ، ولا يمكن أن يكون

هذا الحادث إلا ما شهد به كل تاريخ الكنيسة ، ألا وهو قيامة المسيح من الأموات.

د. إختبار المسيحيين الأولين. لسنا نكتفي بأن نشير في هذا الباب إلي التغير الفجائي العجيب الذي ظهر في حياة أتباع المسيح الأولين بعد موت سيدهم بثلاثة أيام ، بل نستدل أيضا بإختبار بولس وغيره ممن آمنوا بالمسيح المقام. وكيف حدث أن آمن جماعة كبيرة من الكهنة ، وهم بطبيعة الحال علي علم اليقين بحقيقة القبر الفارغ ، إلا إذا دفعوا إلي هذا الإيمان بدافع الحقائق؟

ه. إختبارات المسيحيين في كل العصور. بل كيف نفهم أيضا إدعاءات المسيحيين في كل العصور بأنهم إتصلوا – وما زالوا يتصلون – بالمسيح الحي، إن لم يكن المسيح قد قام حقا؟ ورب قائل يقول : " إن هذا كله ضرب من ضروب الأوهام " . وجوابا علي ذلك نقول : كيف نفهم أن هذه الأوهام أمدتهم بقوة عملية عجيبة في حياتهم ، قوة غيرتهم من الخلاعة إلي التعفف ومن النجاسة إلي القداسة ومن أدني الرذائل إلي أسمي الفضائل ، مما لم تأت بمثله أية قوة أخري في تاريخ البشرية؟

و. الشخص الذي قام. ورب معترض يقول : " إنه لن يصدق ، مهما تكن البراهين قاطعة ، بقيامة شخص ما من الأموات " وجوابا علي هذا نقول : إن هذا القول قد يصدق علي أشخاص عاديين، ولكنه لا ينطبق علي المسيح الفريد. لقد امتاز المسيح عن غيره في كل وجه من وجوه الحياة ، فإضطرتنا الحقائق أن نتساءل : " من هو المسيح؟ "

- أكان مجرد إنسان عجيب وفريد؟
- أم هو الله ظاهرا في الجسد؟ فلا عجب إذن إذا عرفنا أن هذا الشخص – وحده – قد قام من الأموات.

وخلاصة القول إن من يتأمل في الحقائق الواقعة لا يجد مفر من أن يؤمن كل الإيمان بأن المسيح قام فعلا وحقا من بين الأموات.

الفصل الخامس

من هو المسيح إذاً.. ؟

عالجنا في الفصول السابقة موضوع المسيح التاريخي والثقة التي يجب أن نوجهها إلي الوثائق الخاصة بحياته وموته : وقد تأملنا أيضاً في تعاليمه، وحكمته، ومعجزاته، وأخلاقه المعصومة من الخطأ والنقص، وأدركنا شيئاً عن شخصه الفريد – مما أوقفنا وجها لوجه حيال ذلك السؤال القديم " ماذا تظنون في المسيح؟ " – هل كان مجرد إنسان فاق البشر كلهم في كمال إنسانيته، أم كان أكبر من ذلك وأعظم بكثير – إذ كان هو الإله السرمدي "ظاهراً " في الجسد؟ وبعد ذلك بحثنا في أدلة القيامة وبراهينها بشئ من التفصيل، ورأينا أنه لا تكاد توجد حقيقة أخري في سطور التاريخ لها وثائق تساوي هذه الوثائق، ولها شهود يشبهون هؤلاء الشهود. فحملتنا هذه الحقيقة أيضاً علي مواجهة ذلك السؤال " ماذا تظنون في المسيح؟ " هل تقوم القيامة برهاناً قاطعاً علي أن المسيح لم يكن مجرد إنسان – بل كان هو الله ظاهراً في الجسد؟ وقد لا يوافق المعترض علي ذلك بحجة أن الله يقدر أن يقيم من الأموات من يشاء، وهذا حق – غير أن المعترض قد نسي نقطة غاية في الأهمية، لأن قيامة المسيح من بين الأموات، مع أنها ليست في ذاتها برهاناً قاطعاً علي الوهيته ، إلا أنها علي الأقل تؤكد لنا تأييد الله لكل ما كان المسيح يدعيه لنفسه تأييداً لا شك فيه.

(١) مزاعم المسيح وادعاءاته

في بحثنا في شخصية المسيح، وما تميز به عن غيره من تعليم، وحكمة، وقوة، وما إلي ذلك، قد تغاضينا إلي الآن عن وجه هام من وجوه شخصيته، وجانب خطير من جوانب حياته ، ألا وهو ما إدعاه المسيح لنفسه. فلا يتجلى شئ في سيرته ، سواء أكان تعليماً أم معجزة، حكمة أم قوة ، أكثر وضوحاً مما تتجلى هذه الإدعاءات العجيبة وتلك المزاعم التي يعجز عن إدراكها العقل. وقد يحدث أننا نقرأ سيرته أحياناً فلا نكاد نلاحظ هذه المزاعم كما يجب، لأننا تعودناها من زمن. ومهما يكن من شئ فلا محيص لنا من أن نلاحظ هذه المزاعم الآن ونقدرها حق قدرها، بل أن نحدد موقفنا إزاءها.

أ. قال المسيح – مراراً وتكراراً ومن غير لبس ولا إبهام – أنه " ابن الله ". أما هذا اللقب فلا يقصد به معني جسدي ولا يشار به إلي مدلول طبيعي، بل يشير بالحري إلي أنه جاء من الله مباشرة ليعلن لنا الذات الإلهية، كما يتضح

لنا بجلاء تام من درس بعض الشواهد التي إدعي المسيح فيها بهذا اللقب وهذه الوظيفة.

" لا أحد يعرف الآب إلا الابن ومن أراد الابن أن يعلن له "
(متي ١١ : ٢٧)

" أنا هو الطريق والحق والحياة. ليس أحد يأتي إلي الآب إلا بي "
(يوحنا ١٤ : ٦)

وقال المسيح للرجل الذي ولد أعمي: " **أتؤمن بابن الله؟** " (يوحنا ٩ : ٣٥) ،وعندما أجابه قائلاً :" **من هو يا سيد لأؤمن به؟** " قال له المسيح: " **قد رأيته والذي يتكلم معك هو هو** " ، فقال " **أؤمن يا سيد وسجد له** ". كذلك قبل المسيح هذا اللقب أيضاً من نثنائيل (يوحنا ١ : ٤)، ومن مرثا (يوحنا ١١ : ٢٧)، ورحب بإعتراف بطرس الصريح " **ونحن قد آمنا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحي** " (يوحنا ٦ : ٦٩) بل أكده بقوله:" **أن لحماً ودماً لم يعلن له هذه الحقيقة بل قد أعلنها له الله نفسه** " (متي ١٧ : ١٦). ولما سأله رئيس الكهنة في قضيته المعهودة " **أأنت المسيح ابن المبارك؟** " قال: " **أنا هو. وسوف تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً في سحاب السماء** " (مرقس ١٤ : ٦٢).

كذلك قال المسيح: " **الآب لا يدين أحداً بل قد أعطي كل الدينونة للابن، لكي يكرم الجميع الابن كما يكرمون الآب** " (يوحنا ٥ : ٢٢). و "**كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطي الابن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته. وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً لأنه ابن الإنسان** " (يوحنا ٥ : ٢٧). وبقوله هذا أشار إلي أنه سوف يكون قاضياً علي الناس، كما جاء في (متى ٢٥ : ٣١) وفي غير ذلك من المناسبات.

ب. كان المسيح يدعي أيضاً أنه كائن قبل ولادته من مريم العذراء وقبل مجيئه إلي هذا العالم الحقير، بل أنه موجود في الذات الإلهية منذ الأزل ، بل كان المسيح يدعي بوحدانيته مع الله في ذات الله الواحدة.

" الحق الحق أقول لكم قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن " (يو ٨ : ٥٨)

" والآن مجدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم " (يو ١٧ : ٥)

" أنا والآب واحد " (يو ١٠ : ٣٠)

" لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً، ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه ..... الذي رآني فقد رأي الآب. ألست تؤمن أني أنا في الآب والآب في؟ الكلام الذي أكلمكم به لست أتكلم به من نفسي، لكن الآب الحال في هو يعمل الأعمال " (يو ١٤ : ١٠)

زد علي ذلك أن المسيح كان دائماً يدعي لنفسه إدعاءات تصبح هي الكفر بعينه لو أنه كان مجرد إنسان ، كما أن اليهود فعلاً قد اعتبروها تجديفاً. إذ قال المسيح غير مرة للذين جاءوا إليه :" **مغفورة لك خطاياك** " (متى ٩ : ٢) "**مغفورة لك خطاياك** " (لوقا ٧ : ٤٨). فتذمر اليهود قائلين: " **من يقدر أن يغفر خطايا إلا الله وحده؟** ". فقال المسيح مرة أخري : " **إن عطش أحد فليقبل إلي ويشرب. من آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي"** (يوحنا ٧ : ٣٧). " **أنا هو نور العالم. من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة** " (يوحنا ٨ : ١٢) " **أنا هو الباب. إن دخل بي أحد فيخلص، ويدخل ويخرج ويجد مرعي** " (يوحنا ١٠ : ٩). " **أنا هو خبز الحياة ..... إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلي الأبد** " (يوحنا ٦ : ٤٨).

ج. أما عن العلاقة الوثيقة الكائنة بين المسيح وبين المؤمنين به فقد أشار المسيح إليها فيما قاله عن الكرمة ، إذ علم تلاميذه أنه هو الكرمة الحقيقية وأن المؤمنين هم الأغصان : "**كما أن الغصن لا يقدر أن يأتي بثمر من ذاته إن لم يثبت في الكرمة كذلك أنتم أيضاً إن لم تثبتوا في .... لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً** " . أو بعبارة أخري علم المسيح أن المؤمنين به هم وحدة حية ، بعضهم مع بعض ومعه هو نفسه أيضاً ، تحيا حياة واحدة هي حياته هو، لأنه هو الكل في الكل.

أما هذه المزاعم فلا مندوحة لنا من أن نواجهها ونحسب لها حساباً. علي أن هناك قوماً يحاولون أن يجردوا البشائر منها بدعوى أنها زيادات ألحقت بالنص الأصلي بعد نضج عقيدة ألوهية المسيح ،أما هذا الرأي فهو غاية في السخف، طبقاً لما رأيناه بالنسبة إلي معجزات المسيح. بل إن هذه المحاولة هي ضرب من الأوهام ، لأن هذه المزاعم قد نسجت في نسيج السيرة وتقوم محوراً لكثير من التعليم وسبباً لمعظم عداوة اليهود ، حتى أنها كانت علة الصلب. وبقطع النظر عما قد يعترض به متربص متعصب ضد أي زعم منها بمفرده فإننا لا نجد سبيلاً إلي الشك في أن يسوع الناصري قد صرح فعلاً وحقاً بهذه المزاعم بجملتها.

ولكن كيف نفهم هذه المزاعم وكيف نؤولها؟ هل نقبلها كما هي ، حقيقة لا مبالغة فيها؟ ولم لا؟ فلنتكلم الآن بمطلق الصراحة. لو لم تكن هذه المزاعم حقيقة صادقة لم يبق مفر لنا من أن نذهب إلي أحد مذهبين :

- إما أن نقول: إن من إدعي بها هو أقبح الكاذبين وأشنع الكافرين (ولسنا نظن أنه يخطر ببال أشد المعترضين وأكثرهم جرأة أن يوجه مثل هذه الألفاظ لذاك الذي قال " أنا هو الحق ").
- أو أن نعتبره مثالاً عجيباً للكبرياء والغطرسة والأوهام الباطلة. ولكن كيف يتفق هذا الإفتراض وحقائق أخلاقه، وحياته، وخدمته، وتعليمه؟ . أنه مما لا يقبله العقل مطلقاً.

ومهما يكن من الأمر، فلو قام أحد اليوم ، بالغاً ما بلغ من القداسة والصلاح ، مدعياً لنفسه هذه الإدعاءات، لقلنا فيه ما قال مالك في الخمر ونسبنا إليه الخروج عن طور التعقل.. ! أما معاصرو المسيح فلم يخامر أحدهم ريب أو ظل شك في قوة إدراكه (عدا تلك التهمة ،التي قامت علي الحقد والضغينة ، والتي ذهبت إلي أنه كان يخرج الشياطين برئيس الشياطين) ، بل علي عكس ذلك لسنا نجد في سطور التاريخ إنساناً ما يساويه في رزانة عقله وإعتدال أمزجته. كلا .. فليس هناك تعليل لهذه الإدعاءات إلا أنها تعبر عن حقيقة راسخة.

وليس ذلك فقط بل أيد الله نفسه هذه الإدعاءات وصدق عليها تصديقاً لا غموض فيه ولا إبهام. ففي مناسبة معمودية المسيح قد سمع صوت من الله قائلاً : " أنت ابني الحبيب الذي به سررت " (مرقس ١ : ١١).. له اسمعوا (مرقس ٩ : ٧). وفضلاً عن ذلك فإن حياة المسيح كلها تشهد لرضاء الله عنه. فمن أين جاءته هذه القوي الإعجازية إلا من وحدانيته مع الله؟ وكيف نعلل ما استجيب من صلواته لو لم يكن الله معه؟ بل أكثر من ذلك، كيف إتفق أن الله أقامه من الأموات ، إتماماً لنبوة المسيح السابقة ، لو لم يرد تأييد إدعاءاته والتصديق عليها؟ وهذا هو التفسير الحقيقي لقول بولس عن المسيح إنه :" **تعين ابن الله بقوة ... بالقيامة من بين الأموات** ".

(٧) تأييد النبوات لهذه الادعاءات

وفي هذا الصدد أيضاً لا مفر لنا من التأمل في تلك النبوات الوافرة — الواردة في العهد القديم — التي تدعي الكنيسة المسيحية بأنها تمت في حياة المسيح وفي موته. ومع أنه لابد

من قوم – علي ما يظهر – ينكرون النبوات إطلاقا، بحجة أن النبوة أمر لا تقبله عقولهم (ونحن لا نعرف لذلك سبباً إلا كون عقولهم ضيقة جامدة !) – إلا أن العقل السليم لا ينكر شيئاً إلا وقد استقرأه ولا يجحد أمراً إلا بعد أن يقتله بحثاً. ومع أننا لا ننكر أن تفسير بعض النبوات بمفردها بمعني آخر يبدو أحياناً من المحتمل، إلا أننا نؤكد أن النبوات بأسرها تقسم برهاناً لا يدحض علي أنها كتبت بوحي الله في الأيام القديمة وتمت في شخص المسيح ، كما قال المسيح نفسه لليهود: " **فتشوا الكتب لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية. وهي التي تشهد لي** ". فلنلتفت إلي بعض هذه النبوات ونتأمل فيها، وفي إتمامها في شخص المسيح.

(أ) كتب أشعياء وملاخي ، قبل ظهور المسيح بمئات من السنين ، عن الشخص الذي سيرسله الله قبل مجيء المسيا، لكي يمهد الطريق أمامه :

" صوت صارخ في البرية أعدوا طريق الرب قوموا في القفر سبيلاً لإلهنا " . (أشعياء ٤٠ : ٣)
"هاأنذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب العظيم المخوف. فيرد قلب الآباء علي الأبناء وقلب الأبناء علي آبائهم "(ملاخي ٤ : ٥)

أما عن إتمام هاتين النبوتين فإننا نقرأ في الإنجيل أولاً أن الملاك خاطب زكريا الكاهن قائلاً :

" لا تخف ... لأن طلبتك قد سمعت وامرأتك ... ستلد لك ابناً وتسميه يوحنا ... ويرد كثيرين من بني إسرائيل إلي الرب إلههم. ويتقدم أمامه بروح إيليا وقوته ليرد قلوب الآباء إلي الأبناء " (لوقا ١ : ١٣)

وعندما سأل اليهود يوحنا:

" من أنت؟ ماذا تقول عن نفسك؟ "

قال يوحنا :

"أنا صوت صارخ في البرية قوموا طريق الرب، كما قال أشعياء النبي" (يوحنا ١ : ٢٢)

كما أن يوحنا نفسه شهد أيضاً لرفعة قدر المسيح بقوله:

" يأتي من هو أقوي مني الذي لست أهلاً لأن أحل سيور حذائه " (لوقا ٣ : ١٦)

(ب) كتب الأنبياء أيضاً عن ولادة المسيح في الجسد . فتنبأ أشعياء أن المسيا سيكون من نسل داود (أشعياء ١١ : ١). وأنه سيولد من عذراء :

" لكن يعطيكم السيد نفسه آية. ها العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل " (أشعياء ٧ : ١٤)

أما ميخا فصرح بأن المسيح سيولد في بيت لحم :

" أما أنت يا بيت لحم .... فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطاً علي اسرائيل، ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل " (ميخا ٥ : ٢)

وإتماما لذلك نقرأ في البشائر :

" أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا. لما كانت أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبلي من الروح القدس " (متي ١ : ١٨)

وعندما تحير يوسف من هذا، ظهر له ملاك الرب قائلاً :

" لا تخف ... لأن الذي حبل به فيها هو من الروح القدس. فستلد ابناً وتدعو اسمه يسوع. لأنه يخلص شعبه من خطاياهم " (متي ١ : ٢٠)

ويخبرنا لوقا أن يوسف كان من بيت داود، وأن الرب قد وعد أن يعطي المولود " كرسي داود أبيه " (لوقا ١ : ٣٢). وقد استخدم الله أمر أوغسطس قيصر " بالإكتتاب " ليتمم النبوات عن بيت لحم ، إذ كان هذا الأمر مدعاة لسفر يوسف ومريم من الناصرة ، حيث كانا يقيمان ، إلي بيت لحم ، حيث ولد المسيح :

" فصعد يوسف أيضاً من الجليل .... إلي مدينة داود التي تدعي بيت لحم، لكونه من بيت داود وعشيرته – مع مريم امرأته المخطوبة وهي حبلي. وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد. فولدت ابنها البكر ..... " (لوقا ٢ : ٤)

وتنبأ أرميا أيضاً :

" صوت سمع في الرامة (بيت لحم)، نوح وبكاء. راحيل تبكي علي أولادها وتأبي أن تتعزى عن أولادها لأنهم ليسوا بموجودين " (أرميا ٣١ : ١٥)

وقد تمت هذه النبوءة فعلاً عندما أرسل هيرودس:

" وقتل جميع الصبيان الذين في بيت لحم وفي كل تخومها من ابن سنتين فما دون "   (متي ٢ : ١٦)

لكي يتأكد أن المسيح كان ضمن الذين قتلوا، لأنه أوجس خوفه من ذلك الملك الموعود به ، غير أنه فشل في محاولته ونجا المسيح منه.

(ج) وردت في العهد القديم أيضاً نبوات تشير إلي ألوهية المسيح. فقد رأينا في نبوة ميخا هذه الكلمات :

" الذي مخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل"

وهي كلمات تدل حتماً علي ما كتب يوحنا عنه قائلاً :

" في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله "

وما إلي ذلك من آيات صريحة في الإنجيل. بل قد تنبأ أشعياء أيضا قائلاً:

" لأنه يولد لنا ولد ونعطي ابناً وتكون الرياسة علي كتفه ويدعي اسمه عجيباً مشيراً إلها قديراً أبا أبدياً رئيس السلام " (أشعياء ٩ : ٦)

وقال أرميا :

" ها أيام تأتي يقول الرب وأقيم لداود غصن بر، فيملك ملك .... وهذا اسمه الذي يدعونه به الرب برنا "   (أرميا ٢٣ : ٥)

كذلك توجد نبوات أخري تشير إلي هذه النقطة بعينها. أما في العهد الجديد فتظهر هذه الحقيقة بغاية الوضوح في أماكن عديدة.

(د) وعندما نصل إلي الأسبوع الأخير من حياة السيد المسيح نجد النبوات وافرة جداً فقد كتب زكريا:

**" ابتهجي جداً يا ابنة صهيون، اهتفي يا بنت أورشليم. هوذا ملكك يأتي إليك. هو .... وديع وراكب علي حمار وعلي جحش ابن أتان "
(زكريا ٩ : ٩)**

ونقرأ في **(متي ٢١ : ١ – ٩)** كيف تمت هذه النبوة حرفياً.

أما خيانة يهوذا للمسيح فقد ورد ذكرها في مكانين علي الأقل :

" رجل سلامتي الذي وثقت به آكل خبزي رفع علي عقبه "

(مزامير ٤١ : ٩)

" وزنوا أجرتي ثلاثين من الفضة. فقال لي الرب ألقها إلي الفخاري الثمن الكريم الذي ثمنوني به. فأخذت الثلاثين من الفضة وألقيتها إلي الفخاري في بيت الرب " (زكريا ١١ : ١٢)

اما في الإنجيل فبعد أن تقرأ كيف إتفق يهوذا مع رؤساء الكهنة علي خيانة المسيح

" جعلوا له ثلاثين من الفضة " (متي ٢٦ : ١٥)

وكيف أنه غمس يده مع المسيح في الصحفة عند العشاء الأخير (متي ٢٦ : ٢٣)، يخبرنا البشير ايضاً أن:

"الذي اسلمه اعطاهم علامة قائلاً الذي اقبله هو هو .. فتقدم إلي يسوع وقال السلام يا سيد وقبله" (متي ٢٦ : ٤٩)

ثم يستانف متي حديثه ويقول :

" حينئذ لما رأي يهوذا ... أنه قد دين ندم ورد الثلاثين من الفضة إلي .... الشيوخ قائلاً قد اخطأت إذ سلمت دماً بريئاً. فقالوا ماذا علينا أنت أبصر. فطرح الفضة في الهيكل ..... فأخذ رؤساء الكهنة الفضة وقالوا لا يحل أن نلقيها في الخزانة لأنها ثمن دم. فتشاوروا واشتروا بها حقل الفخاري مقبرة للغرباء " (متي ٢٧ : ٣)

أشار الأنبياء أيضاً إلي بعض ظروف محاكمة المسيح وما انطوت عليها. قال أشعياء:

" ظلم، أما هو فتذلل ولم يفتح فاه – كشاة تساق إلي الذبح وكنعجة صامتة أمام جازيها فلم يفتح فاه "

أما مرقس فقد كتب أن رئيس الكهنة قال له:

" أما تجيب بشئ؟ " أما هو فكان ساكتاً ولم يجب بشئ "

(مرقس ١٤ : ٦٠)

وأمام بيلاطس أيضاً :

" كان رؤساء الكهنة يشتكون عليه كثيراً فسأله بيلاطس أيضاً قائلاً أما تجيب بشئ؟.. فلم يجب يسوع أيضاً بشئ حتي تعجب بيلاطس "

(مرقس ١٥ : ٤)

ثم تنبأ أشعياء أيضا قائلاً :

" بذلت ظهري للضاربين وخدي للناتفين وجهي لم أستر عن العار والبصق " (أشعياء ٥٠ : ٦)

" محتقر ومخذول من الناس رجل أوجاع ومختبر الحزن. وكمستر عنه وجوهنا. محتقر فلم نعتد به " (أشعياء ٥٣ : ٣)

وذلك مطابق كل المطابقة لما ذكره البشير "متي" :

" حينئذ بصقوا في وجهه ولكموه وآخرون لطموه. قائلين تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك؟ " (متي ٢٦ : ٦٧)

" فأخذ عسكر الوالي يسوع إلي دار الولاية ... فعروه وألبسوه رداء قرمزياً. وضفروا إكليلاً من شوك ووضعوه علي رأسه ... وكانوا يجثون قدامه ويستهزئون به ... وبصقوا عليه ... وضربوه علي رأسه " (متي ٢٧ : ٢٦)

ومع أن الإعدام صلباً لم يكن معروفاً عند اليهود في أيام العهد القديم إلا أن النبي كتب بالوحي الإلهي وصفاً جيداً عجيباً لشدة الصلب وآلامه:

" كالماء إنسكبت. إنفصلت كل عظامي. صار قلبي كالشمع. قد ذاب في وسط أمعائي. يبست مثل شقفة قوتي ولصق لساني بحنكي .... جماعة من الأشرار إكتنفتني. ثقبوا يدى ورجلي. أحصي كل عظامي. وهم ينظرون ويتفرسون في. يقسمون ثيابي بينهم وعلي لباسي يقترعون " (مزمور ٢٢ : ١٤)

زد علي هذا ما كتب في مزمور آخر :

" يجعلون في طعامي علقماً وفي عطشي يسقونني خلاً " (مزمور ٦٩ : ٢٠)

وما تنبأ به زكريا:

" فينظرون إلي الذي طعنوه "

أما هذه الآيات العديدة التي كتبت قبل صلب المسيح بمئات السنين ، فكيف أتفق أنها وصفت صلبه هذا الوصف الدقيق إلا إذا كانت نبوات إلهية تشير إلي المسيح الإلهي؟ ، لأننا نقرأ في الإنجيل :

" ولما أتوا إلي موضع يقال جلجثة ... أعطوه خلاً ممزوج بمرارة ليشرب : ولما ذاق لم يرد أن يشرب. ولما صلبوه اقتسموا ثيابه مقترعين عليها .... ثم جلسوا يحرسونه هناك ". (متي ٢٧ : ٣٣)
" وركض واحد منهم وأخذ اسفنجة وملأها خلاً وجعلها علي قصبة وسقاه " (متي ٢٧ : ٤٨)
" ثم أن العسكر لما كانوا قد صلبوا يسوع أخذوا ثيابه وجعلوها أربعة أقسام لكل عسكري قسماً. وأخذوا القميص أيضاً ... فقال بعضهم لبعض لا نشقه بل نقترع عليه لمن يكون " (يوحنا ١٩ : ٢٣)

ثم تنبأ أشعياء أيضاً قائلاً :

" وجعل مع الأشرار قبره ومع غني عند موته " (أشعياء ٥٣ : ٩)

مشيراً إلي أن الرومان كانوا قد دفنوه مع اللصين لو لم يأت..

" رجل غني من الرامة اسمه يوسف ... فتقدم إلي بيلاطس وطلب جسد يسوع ... فأخذ يوسف الجسد ولفه بكتان نقي. ووضعه في قبره الجديد " (متي ٢٧ : ٥٣)

كذلك تنبأ داود عن قيامته قائلاً :

" لأنك لن تترك نفسي في الهاوية. لن تدع تقيك يري فساداً "

وفضلاً عن هذا كله فإننا نجد في العهد القديم آيات عديدة ، خاصة في أشعياء ٥٣ ، تشير إلي أن موت المسيح لا يكون إلا لأجل الآخرين كفارة عن خطاياهم ، كما قال المسيح عن نفسه في كثير من المواضع. بل قد تنبأ دانيال عن تاريخ موت المسيح إذ قال:

" فاعلم وافهم أنه من خروج الأمر لتجديد أورشليم وبنائها إلي المسيح الرئيس سبعة أسابيع واثنان وستون أسبوعاً .... وبعد اثنين وستين أسبوعاً يقطع المسيح وليس له " (دانيال ٩ : ٢٥)

(أي يقتل المسيح ليس لأجل نفسه بل لأجل الآخرين). أما الكلمة المترجمة " أسابيع " فمعناها سبعة، وهي تشير إلي سبع سنين. ويخبرنا نحميا في (٢ : ١ — ٨) أن الأمر بتجديد أورشليم صدر في نيسان (مارس) في السنة العشرين من حكم أرتحشتا. وقد أجمع المؤرخون، ومن ضمنهم أيولد وسايس، علي أن أرتحشتا تولي الحكم في سنة ٤٦٤ أو ٤٦٥ ق. م. وعليه فقد صدر هذا الأمر في سنة ٤٤٥ ق. م. وقد أيد هذا التاريخ ما قام به

سير جورج ايري (Sir George Airy) الفلكي العظيم من استقرا آت – وإذا ضربنا ٦٩ في ٧ في ٣٦٥ يوماً (لأن السنة في الكتاب المقدس هي السنة القمرية، كما يتضح من مقارنة رؤيا ١٢ : ١٤ مع رؤيا ١٣ : ٥ ورؤيا ١٣ : ٦ وما إلي ذلك من آيات) نتج أن التاريخ المعين لموت المسيح هو سنة ٣٢ ميلادية – وهي غالباً السنة عينها التي صلب فيها (لأنه بدأ خدمته في السنة الخامسة لحكم طيباريوس أي سنة ٢٩ وقد استمرت خدمته علي ما يظهر ثلاث سنين ونصف سنة).

أما هذه النبوات العديدة فقد كتبت قبل ظهور المسيح بمئات من السنين. وإذا اعترض معترض بأنه من الممكن للمسيح ولتلاميذه أن يسيرو الحوادث لإتمام هذه النبوات أجبناه بقولنا أن كثيراً من الحوادث لم يكن في طاقة المسيح أو التلاميذ أن يبتدعوها. وزد علي ذلك أن هذا الافتراض أيضاً لا يتفق وأخلاق المسيح البتة.

(٢) تأييد عقائد الكنيسة الأولي لهذه الادعاءات

ليست نبوات العهد القديم وحدها هي التي تؤيد صدق هذه الإدعاءات بل تؤيدها أيضاً عقائد الكنيسة المسيحية منذ نشأتها. فمن أين أتت هذه العقائد التي تطوع المسيحيون الأولون بأن يموتوا لأجلها لو لم تكن وليدة الحقائق الواقعة؟.

ولا يجب أن ننسي في هذا الصدد أن اليهود ، ومن بينهم التلاميذ ، كانوا متعصبين لعقيدة التوحيد – كما أسلفنا – وفي بدء خدمة المسيح كان التلاميذ ينظرون إليه كالمسيا المنتظر ، ولم يدركوا إلا تدريجاً أن معلمهم العزيز وسيدهم المحبوب كان في الواقع أكثر من مجرد إنسان . ويدل حتماً علي نمو هذه العقيدة عندهم تلك الإعترافات المرتجلة التي فاهوا بها والتي نجدها مدونة هنا وهناك في سياق البشائر ، كقول يوحنا المعمدان:

" وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله " (يوحنا ١ : ٣٤)

وإقرار نثنائيل:

" يا معلم أنت ابن الله. أنت ملك إسرائيل " (يوحنا ١ : ٤٩)

وشهادة مرثا :

" نعم يا سيد أنا قد آمنت أنك أنت المسيح ابن الله "(يوحنا ١١ : ٢٧)

وإعتراف قائد المئة الذي وقف بجانب المسيح المصلوب:

" حقاً كان هذا ابن الله "

وتصريح بطرس معبراً عن عقيدته الراسخة وعقيدة زملائه من التلاميذ:

" نحن قد آمنا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحي "

وقد ترددت هذه الشهادة أيضاً علي أفواه الشياطين التي أخرجها المسيح فكانت تصرخ قائلة:

" مالي ولك يا يسوع ابن الله العلي "؟ (لوقا ٨ : ٢٨)

ومن المسلم به أن لقب " ابن الله " الذي رددته أفواه التلاميذ في أثناء حياة المسيح علي الأرض، لم ينطو علي مدلول هذا اللقب في كمال معناه كما هو في علم اللاهوت، اليوم، بل كان يدل بالأحرى علي أنهم آمنوا بأن المسيح قد أتي من الله رأساً ومباشرة . علي أنه تضمن أيضاً الإعتقاد بأن المسيح جدير بهذا السجود الذي لا يجب أن يوجه إلا لله وحده.

" والذين في السفينة جاءوا وسجدوا له قائلين بالحقيقة أنت ابن الله"
(متي ١٤ : ٣٣)

أما هذه الحقيقة فقد تقوت وإتسعت كل الإتساع في نور القيامة . وفي مقابلة المسيح المقام ، لم نقرأ فقط أن السيدتين اللتين ذهبتا إلي القبر " **تقدمتا وأمسكتا بقدميه وسجدتا له**" (متي ٢٨ : ٩)، وأن التلاميذ " **لما رأوه سجدوا له** " (متي ٢٨ : ١٧)، بل نقرأ أيضاً كيف أن حتى توما المتشكك صرخ " **ربي وإلهي** " (يو ٢٠ : ٢٨). ونري في سفر أعمال الرسل كم نمت هذه العقيدة وتأصلت. فقد بدأ بطرس لساعته يتكلم ويكرز عن " الرب " يسوع — فقال :

" الله جعل يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم رباً ومسيحاً"
(أعمال ٢ : ٣٦)

" إله آبائنا مجد فتاه يسوع الذي سلمتموه أنتم وأنكرتموه ... ولكن أنتم أنكرتم القدوس البار ... ورئيس الحياة قتلتموه الذي أقامه الله من الأموات " (أعمال ٣ : ١٣)

" وليس بأحد غيره الخلاص لأن ليس اسم آخر تحت السماء قد أعطي بين الناس به ينبغي أن نخلص " (أعمال ٤ : ١٢)

أما إستفانوس الشهيد :

" فشخص إلي السماء ... فرأي مجد الله ويسوع قائماً عن يمين الله "
(أعمال ٧ : ٥٥)، كما أن الصوت الذي خاطب بولس في رؤياه كان
صوت يسوع الذي كان بولس يضطهده (أعمال ٩ : ٥)

وهكذا إمتدت هذه العقيدة امتداداً سريعاً كلما ازداد اختبار المؤمنين العميق ، ويمكننا أن نتتبع كيف كانت عقيدة الكنيسة تطابق ما ادعاه المسيح نفسه كل المطابقة :

أ. بالنسبة إلي ما إعتقدته الكنيسة عن المسيح كابن الله ، أي كالمعلن الوحيد للذات الإلهية. أما هذه العقيدة فإننا نجدها بدراً كاملاً في البشارة الرابعة وفي كثير من الرسائل . ولسنا بحاجة إلي أن نورد بعض الإقتباسات من البشارة، فإن هذه العقيدة تتجلى أمام كل من يقرأها واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار ، ولذلك نكتفي بآية واحدة ، " **الله لم يره أحد قط الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبر**" (يو ١ : ١٨). مثل ذلك ما ورد في الرسائل " **الله بعدما كلم الآباء بالأنبياء قديماً .... كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه. الذي جعله وارثاً لكل شئ، الذي به أيضاً عمل العالمين. الذي وهو بهاء مجده ورسم جوهره وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته، بعدما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا جلس في يمين العظمة في الأعالي** " (عبرانين ١ : ١). وأيضاً " **الآب .... الذي أنقذنا من سلطان الظلمة ونقلنا إلي ملكوت ابن محبته. الذي لنا فيه الفداء بدمه غفران الخطايا. الذي هو صورة الله غير المنظور بكر كل خليقة** " (كو ١ : ١٤).

فنري من هذه الآيات كيف تأصلت هذه الفكرة ورسخت، فتأكد الناس أن المسيح هو ابن الله بمعنى أنه هو الشخص الوحيد الذي أظهر للإنسانية الساقطة " **بهاء مجده ورسم جوهره** "، وأعلن صورته الحقيقية في شكل إنساني يمكن العقل البشري المحدود أن يدركه ويفهمه. وهذه العقيدة واضحة أيضاً في بشارة يوحنا. إذ يقول : "**والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده، مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً** " (يو ١ : ١٤)، وفي هذه الكلمات التي نطق بها بولس: " **الله الذي قال أن يشرق نور من ظلمة هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع**" (٢ كو ٤ : ٦).

وكما رأينا أن المسيح في هذا الصدد إدعي مقرراً أن الآب قد سلمه مقاليد الدينونة وجعله القاضي في اليوم الأخير، كذلك أيضاً نجد هذه العقيدة راسخة في الكنيسة الأولي. قال بولس:

" لأنه أقام يوماً هو فيه مزمع أن يدين المسكونة بالعدل برجل قد عينه مقدماً للجميع إيماناً إذ أقامه من الأموات " (أعمال ١٧ : ٣١)

وقال الرسول نفسه في مكان آخر:

" في اليوم الذي فيه يدين الله سرائر الناس حسب إنجيلي بيسوع المسيح " (رومية ٢ : ١٦)

" أنا أناشدك إذاً أمام الله والرب يسوع المسيح العتيد أن يدين الأحياء والأموات عند ظهوره وملكوته " (٢ تيموثاوس ٤ : ١)

ب. وقد سلم المؤمنون الأولون أيضاً بوجود المسيح قبل تأسيس العالم بالعلاقة الكائنة بينه وبين هذا العالم ، بمعني أن التجسد لم يكن بداءة حياة المسيح بل علي عكس ذلك كان مجرد دور من أدوار تلك الحياة ، دور عجيب فيه صار الكلمة الأزلي جسداً وحل بين الناس كإنسان مثلهم. أما " الكلمة " نفسه فنقرأ عنه:

" في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله. هذا كان في البدء عند الله. كل شئ به كان وبغيره لم يكن شئ مما كان. فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس .. كان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتياً إلي العالم. كان في العالم وكون العالم به ولم يعرفه العالم " (يوحنا ١ : ١ – ١٠)

وكتب بولس أيضاً :

" فإنه فيه خلق الكل، ما في السموات وما علي الأرض، ما يري وما لا يري، سواء كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين. الكل به وله قد خلق. الذي هو قبل كل شئ وفيه يقوم الكل "

(كولوسي ١ : ١٦)

وكذلك فهمت الكنيسة الأولي أيضاً وحدانية المسيح مع الله ، وآمنت بألوهية المسيح كل الإيمان. فكتب بولس في هذا الصدد أن الله سر أن يحل في المسيح كل الملء (كو ١ : ١٩):

" فإنه فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً " (كولوسي ٢ : ٩)

وكتب أيضاً :

" وبالإجماع عظيم هو سر التقوى ،الله ظهر في الجسد، تبرر في الروح، تراءى لملائكة، كرز به بين الأمم، أومن به في العالم، رفع في المجد "(١ تيموثاوس ٣ : ١٦)

واشار إلي اليهود مرة بهذه الكلمات:

" منهم المسيح حسب الجسد، الكائن علي الكل، إلهاً مباركاً إلي الأبد " (رومية ٩ : ٥)

كما كتب كاتب الرسالة إلي العبرانيين :

" وأما عن الابن (فقال) كرسيك يا الله إلي دهر الدهور " (عبرانيين ١ : ٨)

ج. واخيراً نجد أن بولس كان يعبر عن العلاقة الكائنة بين المسيح والكنيسة (التي أشار إليها المسيح بمثل الكرمة) بأنها كالعلاقة بين العريس والعروس، أو بين الراس والجسد. لأن المؤمنين فرداً فرداً هم أعضاء جسده ، الذي هو وحدة إلهية تحيا بحياة أبدية واحدة تصدر من رأس " الجسد " الإلهي

" وهو رأس الجسد الكنيسة ، الذي هو البداءة ، بكر من الأموات ، لكي يكون هو متقدماً في كل شئ " (كولوسي ١ : ١٨)
" لأنه كما أن الجسد هو واحد وله أعضاء، وكل أعضاء الجسد الواحد إذا كانت كثيرة هي جسد واحد، كذلك المسيح أيضاً " (١ كورنثوس ١٢ : ١٢)

ولذلك نري أن عقيدة المؤمنين الأولين وإختبارهم العملي كانا يؤيدان ما إدعاه المسيح لنفسه ويدعمانه.

(٤) تأييد التاريخ لهذه الادعاءات

وهذه الشهادة تؤيدها أيضاً كل أجيال التاريخ . وليس المقصود بذلك شهادة الكنيسة الرسمية — أو الكنائس الطائفية — بل تقصد بالحري شهادة أولئك المؤمنين الكثيرين الذين لا حصر لهم ، الذين قد شهدوا بقلوب ملؤها الفرح والإبتهاج أنهم علي صلة شخصية مع مخلص حي حقيقي. فماذا نقول عن أولئك القديسين العديدين الذين لا سبيل إلي الشك في شركتهم الروحية مع الله، والذين يشهدون بصوت واحد بأنهم نالوا هذه الشركة عن طريق الرب يسوع، الذي قال هو نفسه :" **ليس أحد يأتي إلي الآب إلا بي** "، وماذا نقول أيضاً عن

ذلك الجمهور الغفير من الخطاة الذين كانوا عبيداً لعادات شريرة لم يجدوا، منها مخرجاً، رغم مجهوداتهم العديدة في التخلص منها، ولكنهم وجدوا في المسيح الغفران والراحة ، بل الحرية والقوة ، إذ إنه قادر أن يخلص إلي التمام؟ أو ماذا نقول عن أولئك الأدباء المشهورين الذين وجدوا في المسيح قوة الله وحكمته، فإعترفوا بحقيقة الآية القائلة " **المذخر فيه (المسيح) جميع كنوز الحكمة والعلم** "؟ وما هو حكمنا في الألوف ، بل الوف الألوف ، من الفقراء والبسطاء الذين وجدوا فيه غبطتهم وسعادتهم وغناهم؟ فالمسيح هو الكل في الكل لمختلف طبقات البشر.

ورب سائل : ما رأيكم إذن في شهادة الفريق الآخر من الناس – أعني به ذلك الجمهور الوافر ممن لم يؤمنوا بالمسيح – ومن بينهم بعض قادة الفكر، الذين قد صرحوا ، بل بالغوا في تصريحهم ، بعدم الإيمان؟

ورداً علي ذلك نقول : أن الإجابة عن هذا السؤال تبدو لأول وهلة صعبة المنال، ولكنه في الواقع سؤال سهل بسيط. لأن سبب عدم إيمانهم راجع إلي أنهم ، في معظم الأحوال ، لم يقابلوا المسيح الحي وجهاً لوجه، إما لأن ظروف حياتهم حرمتهم معرفة ذلك الشخص العجيب ، ومعرفته هي الحياة الأبدية بعينها، أو لتراخي المؤمنين الحقيقيين، أو لأن بعضهم قد أهملوا فرصهم الروحية عمداً. وليس من المحتم علي أحد أن يبقي في الظلمة، لأن الإلحاد يقوم في نهاية الأمر علي إرادة الإنسان، لا علي إدراكه ، إذ قال المسيح لليهود بنغمة التأكيد:

> **"إن شاء أحد أن يعمل مشيئته (أي مشيئة الله) يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلم أنا من نفسي"**

وكتب يوحنا في ختام بشارته:

> **" وآيات أخري كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تكتب في هذا الكتاب. وأما هذه فقد كتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه "**

فإذا أراد أحد أن يؤمن، وكانت الشكوك العقلية تحول بينه وبين الإيمان الوطيد ، فليصل صلاة مثل هذه " اللهم ، إذا كان هناك من إله حق ، إظهر نفسك لي في شخص يسوع المسيح، لأنني مستعد أن أتبعه إلي آخر حياتي " ، وليقرأ بشارة يوحنا في روح هذه الصلاة. ونحن نؤكد له ، إرتكاناً علي وعد الرب نفسه ، أن النور الإلهي سوف يشرق عليه ، إذا ما واظب علي الصلاة والقراءة.

ولكن ألا يوجد أناس قد نظروا إلي وجه المسيح وأعرضوا عنه؟ بلي. فهناك قوم قد عرفوا في قرارة نفوسهم حقيقة المسيح، ومع ذلك هزءوا به وأهانوه ، مثلما عمل رؤساء الكهنة في أيام حياته علي الأرض : " **والرجال الذين كانوا ضابطين يسوع كانوا يستهزئون به وهم يجلدونه . وغطوه، وكانوا يضربون وجهه ويسألونه قائلين : تنبأ ؛ من هو الذي ضربك؟" " فابتدأ قوم يبصقون عليه ويغطون وجهه ويلكمونه ويقولون له، تنبأ. وكان الخدام يلطمونه** ". يا لعار هذا المشهد! كان المسيح المغطي الوجه جالساً وسط جماعة قد أطبق البغض علي قلوبهم. ومع أنهم قد عرفوه وسمعوا تعاليمه وشهدوا عجائبه وقد " **رجعوا إلي الوراء وسقطوا علي الأرض** " خشية منه وهو في البستان، أما الآن فإنهم " **يغطون وجهه** " ويستهزئون به. ولماذا فكروا في تغطية وجه يسوع؟ ، أليس لأن عينيه كانتا مملوءتين بالتعجب المقدس من عدم إيمانهم، والعطف علي حماقتهم وخطيتهم ، وفي الوقت نفسه كانتا تسطعان بهذا النور الذي جعل ضمائرهم تتلظى كلهيب نار ، وهكذا لم يستطيعوا أن ينظروا إلي وجهه إلا وقد " **غطوه** "؟ " **محتقر ومخذول من الناس رجل أوجاع ومختبر الحزن. وكمستر عنه وجوهنا** " .. وعندما يتعذر علينا أن نستر وجوهنا عنه، نستر وجهه هو ونغطيه.

إن البغض الناشئ عن عدم الإيمان ظاهر اليوم كما كان في محكمة قيافا. إذ لا يستطيع الناس أن يضبطوا تيار أفكارهم عن المسيح، لأن وجهه يأسر الفكر وعينيه كلهيب نار. فهو الآن، كما كان قديماً، إما يجتذب الناس إليه أو يدفعهم عنه ولكننا كثيراً ما نحول وجوهنا عن المسيح أو نغطي وجهه .. ونبقي غير مقتنعين بخطايانا وغير مبكتين عليها.

إن كل ديانة جديدة أو فلسفة حديثة تبعد الناس عن الإنجيل لابد لها أولاً من تغطية وجه يسوع ، لأن الذين يتفرسون في عينيه لا يحتاجون معه إلي نور آخر، والذين قد رأوا وجهه لا يتبعون قائداً سواه. أما الذين يتلمسون طريقهم في الظلام بعقول عمياء فهم في الغالب الذين حجبوا عنهم النور بتغطية وجه مسيح الله. لأن العمي يتقدم الكفر وهو سببه وأساسه، والعمي إنما يترتب علي ستر وجه الإنجيل وإبهام كلمة الله الواضحة وإغماض عيوننا عن رؤية الحق .

قال المسيح :

" لدينونة أتيت أنا إلي هذا العالم حتى يبصر الذين لا يبصرون ويعمي الذين يبصرون "

وكتب بولس:

" ولكن إن كان إنجيلنا مكتوماً فإنما هو مكتوم في الهالكين. الذين فيهم إله هذا الدهر قد أعمي أذهان غير المؤمنين لئلا تضئ إنارة إنجيل مجد المسيح الذي هو صورة الله .... لأن الله الذي قال أن يشرق نور من ظلمة هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح".

أما صدق هذا الكلام فتؤيده الكلمات الأخيرة التي فاه بها كثيرون من الملحدين والكافرين وهم علي شفا الموت ، لأن الموت يكشف عن أفكار الناس المخفاة ويعلن سرائر قلوبهم. وليس من يرغب في الوقوف بجانب ملحد ساعة إحتضاره. ولكن ما أعظم الفرق بين هذا المنظر ومشهد المسيحي الحقيقي علي فراش الموت! وهاك ثلاثة أمثال لكل من الفريقين :

توماس باين – Thomas Paine : كان يصرخ بلا إنقطاع في بؤس شديد ويأس مرير قائلاً " يارب ساعدني. اللهم ساعدني. يا يسوع المسيح ساعدني. يارب ساعدني ". ثم قال " كنت ابذل كل العوالم ، لو كانت ملكا لي ، لو لم يكن كتابي " عصر الإدراك " قد نشر "!

فولتير – Voltiare " كانت ساعات الشدة الطويلة التي قاساها ذلك الملحد، وقد أشرف علي الموت، مصحوبة بتبكيت وتعيير وتأنيب وتجديف ، بل لقد تميزت بها في أثناء الثلاثة الشهور الأخيرة لحياته. ولا ينكر حتى زملاؤه في الإلحاد إن موته كان أشد فظاعة من أي موت لقيه سواه من العلماء. ورغم أنف جميع الفلاسفة الملحدين الذين تجمهروا حوله، أظهر رغبته في الرجوع إلي ذلك الإله الذي قد كفر به مرات متعددة. فطلب قساً، بل كتب إلي القس جولتيار يلتمس منه أن يزوره. ثم قرر قراراً رفض فيه إلحاده. أما الملحدون الملتفون حوله فكم من مرة كان يشتمهم ويقول " إذهبوا ..إنصرفوا. ما أحقر المجد الذي جلبتموه لي "، فكانوا يسمعونه يتضرع إلي الله حيناً ويجدف عليه حيناً آخر. فكان يصرخ بنبرات تدعو إلي الشفقة والرثاء " أيها المسيح! يا يسوع المسيح! ... ثم يشتكي بأنه منبوذ من الله والناس معاً. فقال يوماً " أيها الطبيب إني مستعد أن أعطيك نصف أملاكي إذا مكنتني من أن أعيش ستة شهور أيضاً. فأجاب الطبيب " يا سيدي " لا يمكنك أن تعيش ستة أسابيع ". فقال فولتير " سأذهب إذن إلي الجحيم " .. ثم توفي بعد فترة وجيزة.

فرانسيس نويورت – Francis Newport : قال :" من يقدر أن يكتب مأساته هو من غير دموع، أو أن يسجل تحتيم هلاكه الأبدي بغير رعب؟ إنني أعلم بوجود إله لأني أتأثر دائماً بتأثيرات غضبه، كما أنني أعلم أيضاً بوجود جحيم لأني قد تناولت الآن في قلبي

عربون ميراثي هناك. قد أهنت خالقي، وأنكرت مخلصي. قد إنضممت إلي صفوف الملحدين والكافرين. وظللت في هذا الطريق رغماً عن تبكيت ضميري المتكرر ، إلي أن صرخ إثمي متطلباً دينونة الله العادلة. إلي أين أنا ذاهب؟ إني محكوم علي بالهلاك الأبدي! قد أصبح الله عدواً لي، وليس لي معين .... ". ثم صرخ بأنين مروع يمزق الأحشاء ، كأنه قد خرج عن نطاق البشر ، قائلاً : " يا لها من آلام لا تطاق .. آلام الجحيم والهلاك! " ، ومات كذلك.

قابل أيها القارئ الكريم هذه القصص المروعة ، التي يمكن أن نسوق إليك الكثير منها ، بالراحة واليقين اللذين يتمتع بهما المؤمنون الحقيقيون في ساعة الموت. ولنكتف هنا بثلاثة أمثال لهؤلاء القديسين.

مارتن لوثر – Martin Luther : قال " إني منطلق وسأسلم روحي عن قريب، ثم قال ثلاث مرات " يا أبي، بين يديك أستودع روحي ..لأنك قد فديتني يا إله الحق ". ثم سكت سكوتاً تاماً. وسأله الدكتور جونس بصوت خافت " يا أبانا المحترم .. هل تتمسك بالمسيح وبالعقائد التي كرزت بها؟ هل يكفيك المسيح في ساعة الموت؟ " فصرخ لوثر قائلاً " أي نعم .. ألف مرة نعم " وأدار وجهه فنام نوم الموت.

جون بايسون – John Payson : كانت حجرة موته منظراً عجيباً مقدساً. فصرخ قائلاً :" يكفيني .. لقد مات المسيح لأجلي. إني صاعد إلي عرش الله ". ثم شرع يسبح بنبرات تخلب العقل قائلاً :" أنا أعلم أني مشرف علي الموت، ولكن فراش موتي هو فراش منبسط الورود. لقد أتتني السماء هنا، والحياة الأبدية تناولتها الآن. أما أنت يا إلهي فإنك حاضر، وأني أشعر بوجودك يا يسوع العزيز! مجداً مجداً لله ! وتوفي وهو يقول: " يا إلهي. يا إلهي. يا إلهي !"

توبلادي – Toplady : قال " ليس المرض بمصيبة ولا الألم لعنة ولا الموت فساداً. بل إن السماء صافية بلا سحاب. تعال يارب يسوع. تعال ".



الخلاصة

لنلخص في الختام ما أدت بنا الحقائق إليه. فقد رأينا في الفصول السابقة أن المسيح كان فريداً لا نظير له. بل كان بلا شك أكمل إنسان ظهر في تاريخ الجنس البشري. وليست هذه شهادة أتباعه فقط ، بل شهادة الذين ينكرون ألوهيته أيضاً. أما الفصل بين تعاليمه وأخلاقه من جهة، وبين معجزاته ومزاعمه من الجهة الأخرى، فهذا من المحال ، لأن هذه النواحي المختلفة من شخصيته تتماسك بعضها ببعض تماسكاً تاماً. فالمسيح الذي ألقي التعاليم السامية المضمنة في " الموعظة علي الجبل " هو المسيح نفسه الذي أقام الموتى ، كما أن المسيح الذي إمتاز عن غيره بسمو أخلاقه ورفعة شمائله هو المسيح عينه الذي قام منتصراً من بين الأموات ، فمن يؤمن بمسيح آخر لهو إنما يدين بمسيح خيالي لا حقيقة له.

أما المسيح التاريخي فإدعي حقاً وفعلاً أنه ابن الله ، الذي أعلن وحده الذات الإلهية ، وهو المتحد بالآب كل الاتحاد ، والذي يستطيع وحده أن يسد حاجات البشر. وإذا أنكر أحد صدق هذه الإدعاءات ، فلا يعتبر المسيح بعد ذلك إنساناً كاملاً ، بل علي عكس ذلك يحسب خداعاً قبيحاً أو مخبولاً مختلاً ، وليس هناك طريق وسطي. إن الحقائق لتؤدي بنا حتماً إلي تصديق إدعاءاته.

وتؤيد هذا الحكم كل النبوات القديمة. ومهما يقل المعترض عن نبوة ما بمفردها فإنه مما لا يقبله العقل أن تكون كل هذه النبوات الدقيقة، التي تمت حرفياً في حياة المسيح وموته، مجرد سلسلة من ضروب الصدف. أما من يتناول العهد القديم بيد الإحترام وعين التقدير ويدرسه درساً دقيقاً، فإنه يجد أن المفتاح الذهبي الذي يفتح له معني الكتاب كله هو المخلص الإلهي الذي سبقت النبوات فأشارت إلي أنه سوف يحمل خطايانا، وهو الملك المنتصر الذي سوف يملك بالعدل ، ذلك الذي يشهد له العهد القديم في شعره ونثره، في رموزه وفي تعاليمه، في تلميحاته وتصريحاته.

وتشهد أيضاً عقائد الكنيسة الأولي هذه الشهادة عينها. فما الذي حمل أناساً متمسكين بعقيدة التوحيد المطلق – بل متعصبين لها – علي الإيمان الكلي بألوهية المسيح؟ لا جواب علي هذا السؤال إلا إنهم دفعوا إلي هذا الإيمان بدافع الحقائق الواقعة وإختبارهم الشخصي. ما الذي يا تري حمل بولس وجمهوراً من زملائه المتربين في تلك البيئة اليهودية المتعصبة إلي قبول المسيح إلهاً ، بل إلي الافتخار بذلك؟ كان ذلك – بلا شك – دافع الحقائق الإختبارية، ليس إلا .

وربَّ سائل يقول: إن عقيدة الكنيسة الأولي بالثالوث الأقدس لا تكاد تساوي تلك العقيدة عينها في القرن الثاني والثالث في كمال تدقيقها ومنطق نظامها ودقة شرحها. وجواباً علي ذلك نقول: هذا صحيح ، وسببه ظاهر. لأن عقيدة الثالوث الأقدس لم تنشأ عن مجرد المنطق والإستنتاج العقلي، بل عن الوحي الإلهي وعن حقائق الحياة العملية ، ولذا لم تحصل علي شكلها المنطقي الكامل إلا في الدفاع ضد هجمات الوثنيين من الخارج والهراطقة من الداخل. أما العقيدة نفسها فكانت موجودة فعلاً منذ بدء الكنيسة ، لأن الكنيسة الأولي ، كما رأينا ، آمنت الإيمان كله بألوهية المسيح ، مخلصهم وربهم .. وبحقيقة الروح القدس ، مرشدهم ومعزيهم .. وبالله الآب ، أبيهم السموي. ولكنهم بذلك لم يكونوا مشركين قط ، ولم يؤمنوا أبداً بثلاثة آلهة. بل آمنوا إيماناً صادقاً بأنه واحد .. " الرب إلهكم رب واحد " ، واحد في الجوهر والذات والمجد والصفات. ولكن هذا الإله قد أظهر ذاته للناس في ثلاثة أقانيم : الآب الذي يمثل الذات الإلهية غير المنظورة، والذي دبر خلاص البشر .. والابن الذي يعلن للناس تلك الذات الإلهية، والذي تجسد لكي يتمم خلاص البشر .. والروح الذي هو روح الله وروح المسيح أيضاً، والذي ينفذ في قلوب الناس هذا الخلاص. فكان الروح القدس يمكن المؤمنين من أن يحل المسيح بالإيمان في قلوبهم، كما كان المسيح أيضاً يعلن لهم من هو الآب السموي ، بل كان كل أقنوم من الذات الإلهية يحقق لهم النعمة والمجد، بل المحبة والشركة، الصادرة عن الإله الواحد السرمدي للناس الساقطين.

وأخيراً يؤيد التاريخ أيضاً هذه الحقيقة المجيدة. فقد حاول الملحدون أن يفسروا إختبارات المسيحيين عن طريق علم النفس، كما أنهم تنبأوا أن الكتاب المقدس سيصبح عن قريب نسياً منسياً. ولكن الملحدين أنفسهم يموتون، وتتلاشى أفكارهم بين يوم وليلة. أما الكتاب المقدس فإنه يزداد رواجاً يوماً بعد يوم، ويجد المؤمنون دائماً فيه قوة إلهية ، بل مخلصاً إلهياً منتصراً ، يعجز علم النفس كل العجز عن تفسيره بتفسير بشري . ومهما يكن من الأمر فإن من يقابل المسيح الحي وجهاً لوجه يجد فيه الكل في الكل ، ليشبع عقله وقلبه، إدراكه وضميره. وليس هذا الإختبار وقفاً علي جماعة من المختارين، بل قد وعد الله به جميع الذين يرغبون فيه رغبة قلبية، ويطلبونه بإخلاص. فمن يطلب مخلصاً من هذا النوع، يشعر في قلبه، بل يتيقن في نفسه ، وهو يقرأ قصة المسيح التاريخي ، بوجود المسيح الذي يحيا اليوم بجانبه.

بل لماذا أتي المسيح الأزلي من مجد السماء لهذا العالم الحقير؟ أتي ليعلن الذات الإلهية لعالم الناس. وقد أعلنه فعلاً بتعليمه وحياته. ولكن ماذا يا تري نقول عن موته؟ هل أعلن الله في موته أيضاً؟ نعم لقد أعلنه بصورة ظاهرة. ولذا سنبحث في الفصل المقبل في هذا السؤال الهام ، بل الهام جداً ..

لماذا مات المسيح؟ ولماذا كان من المحتم عليه أن يموت على صليب العار؟.



الفصل السادس

لماذا مات المسيح إذاً..؟

رأينا في الفصل السابق أن لا سبيل إلي الشك في حقيقة صلب المسيح ، لأنها مؤيدة ومدعمة بالبشائر الأربع كلها ومعظم الرسائل (وقد بحثنا سابقاً في الثقة التي يجب أن ننسبها إلي هذه الوثائق المعاصرة للحوادث الموصوفة فيها). ومما يؤيد أيضاً حقيقة موته جميع الآثار الأخرى التي بلغتنا من المسيحيين الأولين ، بل يؤيدها أيضاً ما بقي إلي عصرنا من آثار تاستيوس وبليني وكلسس وغيرهم من كتاب الرومان الوثنيين ، مع النسخ غير المنقحة للتلمود اليهودي. وتدعم أيضاً حقيقة صلبه براهين أخري عديدة ، من ضمنها إتمام النبوات القديمة، وتصريحات المسيح نفسه عن موته، وهاتان الفريضتان اللتان تمارسهما الكنيسة المسيحية في كل أنحاء العالم – المعمودية والعشاء الرباني – إذ لا أساس لهما إلا في موت المسيح التاريخي.

ومهما يكن من شئ فإنه من المحقق أن التلاميذ الأولين ، وكل الكنيسة الأولي ، أدركوا مباشرة أن صلب سيدهم هو لب الإنجيل ، بل كان موته – بلا جدال – أهم لديهم من حياته. فنجد حوادث آلام المسيح وصلبه وقيامته قد تناولها البشيرون الثلاثة الأولون بتفصيلات دقيقة وفيرة. وأما البشير الرابع فقد خلع عليها أوصافاً تفوق في وفرتها وغناها أوصاف سائر البشيرين. وفي سفر أعمال الرسل نجد أن موت المسيح وقيامته كانا أساس الكرازة الرسولية ولبها ، بل هاتان الحقيقتان هما " **الخبر المفرح** " الذي جاهر به الرسل للعالم أجمع. " **فليعلم يقيناً جميع بيت إسرائيل** " قال بطرس في موعظته الأولي " **إن الله جعل يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم رباً ومسيحاً**". وصرح أيضاً في موعظته الثانية " **رئيس الحياة قتلتموه** ". بل بقيت هذه الحقيقة لب رسالته وزبدة كرازته إلي آخر حياته، إذ كتب في رسالته الأولي " **افتديتم ... بدم كريم كما من حمل لا عيب ولا دنس دم المسيح ..... الذي حمل هو نفسه خطايانا في جسده علي الخشبة** ". فكانت هذه الحقيقة أيضاً أساس تعاليم بولس ، إذ نقرأ أنه دخل مجمع اليهود في تسالونيكي " **وكان يحاجهم ثلاثة سبوت من الكتب، موضحاً ومبيناً أنه كان ينبغي أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات** ". بل في كورنثوس لم يعزم بولس أن يعرف شيئاً إلا يسوع المسيح وإياه مصلوباً. فنجد كل رسائله مؤسسة علي هذه الحقيقة، إذ كان صليب المسيح ، لا تجسده ، محور تعليم بولس ، لأن التجسد، مهما يكن عجيباً وعظيماً، إلا أنه لم يكن في الواقع إلا تمهيداً للصليب والقيامة. "**فحاشا لي أن أفتخر إلا بصليب ربنا يسوع المسيح** " كتب الرسول إلي أهل غلاطية ،

مثلما كتب لأهل فيلبي من قلب ملؤه حزن وبكاء عن قوم " هم أعداء صليب المسيح ". وإشترك في هذه الرسالة أيضاً سائر كتاب العهد الجديد ، فكان دم المسيح المسفوك لأجلنا هو الموضوع الأساسي الأقدس لكاتب الرسالة إلي العبرانيين ، كما أن يوحنا يعرف تلك المحبة التي هي موضوعه المركزي بأن يقول: " **في هذا هي المحبة ليس أننا نحن احببنا الله بل أنه هو أحبنا وأرسل ابنه كفارة لخطايانا** " ، ونجد أيضاً في سفر الرؤيا أن الشخص البارز هو الحمل المذبوح .. " **الذي أحبنا وقد غسلنا من خطايانا بدمه** ".

إذاً لا مجال للتردد في شهادة العهد الجديد كله لحقيقة صلب المسيح وعظم أهميته وجلال معناه الروحي العميق، بل لا سبيل إلي الشك أيضاً في تقديرهم وتفسيرهم لهذا الصلب. حقاً أنهم إعتبروه المثل الأعلى والقدوة العظمي للتضحية والمحبة والمغفرة ، قدوة يجب عليهم أن يحاولوا تقليدها في حياتهم. ولكنهم إعتبروه فوق ذلك بكثير ، إذ حسبوه في الواقع كفارة لخطايا البشرية – مصالحة بين الله والناس – فداء من عقاب الخطية ودنسها وعبوديتها. فالإنسان المنفصل عن إله قدوس بفاصل خطاياه الشنيعة وجد في الصليب الخبر المفرح الناطق الغفران، والتطهير، والتبرير، والشركة المردودة، والقوة الجديدة، والحياة الأبدية. أما هذا الشرح لمعني الصليب فليس من المحتمل أن يشك أحد في كونه هو الشرح الذي نادي به المسيحيون الأولون ، بل شهدوا به من قلوب مبتهجة كإختبار حي عملي.

ما امجد هذه الحقيقة للذين يقبلونها ويختبرونها! ولكنها قامت مع ذلك هدفاً لمهاجمات متكررة من الملحدين والعصريين ، إن خارج الكنيسة المنظورة أو داخلها. أما بولس الرسول فقد أشار إلي هذه المهاجمات المتكررة في قوله :" **فإن كلمة الصليب عند الهالكين جهالة. وأما عندنا نحن المخلصين فهي قوة الله**" .. لليونانيين المثقفين المتعزين بعقولهم الزكية كان المسيح المصلوب جهالة، كما أنه كان عثرة أيضاً لليهود المتدينين المفتخرين ببرهم الذاتي. " **أما للمدعوين، يهوداً ويونانيين** "، **فهو "قوة الله وحكمة الله"**. وقد أيدت سطور التاريخ هذا القول. فالذين يقتربون إلي قدس الأقداس هذا في روح النقد والعدوان، معتمدين علي مجرد الإستنتاج العقلي، رافضين إستنارة الروح القدس ، هؤلاء القوم ينحرفون متحيرين خائبين ،لأن عقولهم لا تتسع لفهم إله متألم يقوم بتضحية كفارية عن خطايا مخلوقاته. أما الذين يرتكنون علي برهم الذاتي فإنهم يبغضون رسالة الصليب التي تحضهم علي الإنصراف عن كل أعمالهم الحسنة والإقلاع عن فرائضهم المحببة لديهم، وأن يلقوا بأنفسهم متفرغين من كل بر ذاتي عند قدمي المخلص المصلوب الذي يستطيع وحده أن يعطيهم خلاصه المجيد.

فلا عجب إذا كان صلب المسيح قد أصاب نصيباً وفيراً من البحث مما لم يفز به أي موضوع آخر في تاريخ العالم. ورغماً عن الشرح الواضح الذي قدمته الكنيسة الأولي لهذا

السر العجيب، قد قام أيضا كثيرون، من كل ديانة وكل مذهب وكل فلسفة، فتصدوا لتفسيره ؛ كل منهم علي طريقته الخاصة. أما هذه الآراء المختلفة فإنها تقع ، مع إختلافاتها في التفصيلات والدقائق ، تحت ثلاثة أبواب فلنبحث الآن في كل من هذه الأبواب الثلاثة ، لكي نري أيا منها. يتفق والحقائق، فيتطلب ولاءنا وإيماننا.

(١) الرأي القائل بأن المسيح مات موت الشهيد

إن الذين يذهبون هذا المذهب، يقولون إن المسيح كان أعظم مصلح في الأمور الخلقية في تاريخ البشر، أي أنه مصلح أتي بتعاليم لم يكن العالم الساقط مستعداً لقبولها، فكابد ما كابده معظم المصلحين المسجلة سيرهم في سطور التاريخ ، فأماته أولئك الذين حاول إصلاحهم. فسعي المسيح إلي جذب الناس إلي الله وكاد ينجح في سعيه. ولما خابت آماله وإشتدت عليه قوات الشر. أبي مطلقاً أن ينكر رسالته أو يتساهل فيها. وذهب إلي الموت بشجاعة تامة دفاعاً عن تعاليمه.

ولكي نبين أفكار من يذهب هذا المذهب ننقل هنا إقتباساً من أحد الكتيبات، قيل فيه: "كان موت المسيح تضحية عظيمة بالمعني الذي تنطوي عليه هذه العبارة في آرائنا نحن. ولكن سببها كان مؤامرة خسيسة من رجال أشرار. ولم يستطع المسيح التخلص من موته من غير أن يتخلى عن تلك المبادئ السامية التي عاش لأجلها. ولكن ضرورة موته هذه نشأت عن ظروف زمانه، وعداوة الكهنة والشعب له .. لا عن إتفاق سري بينه وبين أبيه، ولا عن ضرورة ما لتقديم ذبيحة له تعالي كفارة عن خطايا الجنس البشري".

أما هذا الرأي ؛ أو ما يشبهه جوهرياً وإن إختلف عنه في تفصيلاته وأساليبه ،أهو حقيقة أم ضرب من الخيال ، أهو صدق أم كذب؟ إننا نعتقد أنه كذب صراح ، لأنه يستدل منه أن موت المسيح لم يكن طوعاً منه وإختياراً، بل كرهاً وإضطراراً ، كما أنه يستنتج منه أيضاً أن هذا الموت لم يكن من القصد الإلهي، بل من وضع بشر. أما هذان الإستنتاجان فإنهما والحقائق علي طرفي نقيض .. كما يتضح من البراهين الآتية :

نسلم بالطبع بأن أعداء المسيح قاموا بنصيب كبير في موته ، لأن المسيح لم ينتحر قط، بل أن الرومان ، تنفيذاً لتحريض اليهود ، هم الذين صلبوه ، كما أننا نسلم أيضاً بأن هؤلاء القوم كانوا مخيرين في عملهم، مسؤولين عليه. ولكن الدلائل كلها ، من البشائر والرسائل والعهد القديم وحقائق الإختبار المسيحي ، تدل كلها مجتمعة معاً علي أن المسيح قبل طوعاً ذلك الموت الذي كان في إستطاعته أن يتخلص منه في أية لحظة، وأنه كابده بإعتباره من القصد الإلهي الأزلي ؛ بل بإعتباره هو الغاية الأساسية التي قد تجسد لأجلها. أما هاتان

الوجهتان لموت المسيح – الوجهة الإلهية والوجهة البشرية – فقد عبر عنهما تعبيرا واضحاً في سفر أعمال الرسل ، حين قال بطرس في موعظته الأولي:

" هذا أخذتموه مسلماً بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق وبأيدي اثمة صلبتموه وقتلتموه "

وحين صلي المؤمنون كلهم قائلين :

" لأنه بالحقيقة اجتمع علي فتاك القدوس يسوع، الذي مسحته، هيرودس وبيلاطس مع أمم وشعوب إسرائيل. ليفعلوا كل ما سبقت وعينت يدك ومشورتك أن يكون "

ويؤيد هاتين الآيتين كل ما جاء في البشائر. فحقاً صعد المسيح إلي أورشليم ليعطي شعبه فرصة أخيرة لقبوله ، عبر عنها بقوله :" **زمان إفتقادهم** " ، ولكنه علم عِلم اليقين أنهم لم ينتهزوا هذه الفرصة ، إذ قال :

" ها نحن صاعدون إلي أورشليم، وابن الإنسان يسلم إلي رؤساء الكهنة والكتبة فيحكمون عليه بالموت ويسلمونه إلي الأمم. فيهزءون به ويجلدونه ويتفلون عليه ويقتلونه "

ولم يجدوا إلي ذلك سبيلاً كرهاً منه، بل ظلوا مكتوفي الأيدي إلي أن جاءت ساعة الله المعينة، ولم يواجهه أعدائه أبداً إلا وإنكسروا إنكساراً. وفوق ذلك، فإننا نلاحظ أن المسيح ، إلي نقطة معينة في خدمته الجهارية ، كان يتجنب الموت تجنبا ظاهريا. فلما تآمر عليه أعداؤه في الناصرة وحاولوا قتله، نقرأ إنه: " **جاز في وسطهم ومضى** "، كما أنه أيضا في مناسبة أخرى: " **إختفى وخرج من الهيكل مجتازاً في وسطهم** ". أما بعد تلك النقطة المعينة فإنه يظهر لنا أنه بادر إلي الصليب. فهو لم يختف بعد، بل " **ثبت وجهه لينطلق إلي أورشليم** ". فذهب لإقامة لعازر من القبر رغماً عن ما أنذر به ، وأغضب الفريسيين بتوبيخاته لهم والصدوقيين بطرده التجار وقلبه موائد الصيارف في الهيكل وعندما حاول أعداؤه القبض عليه ذهب علانية إلى الجهر بأنه ينتظر خائنه فلماذا يذهب؟ ، مع علمه الكامل بأنه سيخونه. ولما رأي أن الذين كانوا قد أتوا ليمسكوه قد " **رجعوا إلي الوراء وسقطوا علي الأرض** " قدامه، لم يحاول قط التخلص منهم. وحينما فشلت التهم الموجهة إليه قدام قيافا، وربما كان الصمت خير منجاة له، إلا أنه نطق بكلمات علم أن الحكمة ستعتبرها تجديفاً. ثم قدام بيلاطس ، حينما يكون قد خلص من الحكم بشئ من التعليل

لموقفه، نراه سكت سكوتاً مدهشاً. نعم. يبدو كأنه بادر إلي الصليب ، فكان موته بلا شك طوعاً منه وإختياراً.

فلماذا إذن كان المسيح يتخلص من أعدائه هذا التخلص السهل في المناسبات السابقة، ولم يحاول قط التخلص منهم في بستان جثسيماني. السبب في ذلك أنه علم من الظروف السابقة إن وقته " **لم يكمل بعد** " ، كما نقرأ ذلك مراراً في البشائر . أما قبل عيد الفصح الأخير فقد صرح المسيح لتلاميذه " **إن وقتي قريب** "، وأيضا" **قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان** " ، كما أنه قال لأعدائه في البستان " **هذه ساعتكم وسلطان الظلمة** ". ولم يكن يشير بهذا القول إلي قوة أعدائه المادية. لأنه قال أيضا : " **أتظن أني لا أستطيع الآن أن أطلب إلي أبي فيقدم لي أكثر من اثني عشر جيشاً من الملائكة؟** "، بل علق علي هذا السؤال تعليقه المعهود " **فكيف تكمل الكتب أنه هكذا ينبغي أن يكون** ". كلا. بل كان يشير إلي النبوات القديمة القائلة بأنه يسمح لقوات الظلمة (علي أيدي أولئك الأشرار الذين إستسلموا لتنفيذ أغراضها) إن تعذب ابن الله حيناً. فصرح المسيح أيضاً بأنه كان يعتبر موته إتماماً لكل هذه النبوات القديمة ، إذ إقتبس كلمات الأنبياء نفسها مرتين، وإذ أشار إليها مراراً كثيرة. بل لم يتحدث إلي موسى وإيليا علي جبل التجلي إلا عن " **خروجه** (أي موته) **الذي كان عتيداً أن يكمله في أورشليم** " — كما أنه بعد قيامته فسر هذه النبوات تفسيراً دقيقاً لتلاميذه. فلا عجب إذن إذا كتب البشير عن موته " **وأما هذا كله فقد كان لكي تكمل كتب الأنبياء** ".

أما في مكان آخر فكان المسيح يشير إلي هذه الحقيقة بوضوح ليس بعده من وضوح.

"لهذا يحبني الآب لأني أضع نفسي لآخذها أيضاً. ليس أحد يأخذها مني بل أضعها أنا من ذاتي. لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن آخذها أيضاً. هذه الوصية قبلتها من أبي "، وأيضاً " أنا هو الراعي الصالح. والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف".

ومن هذه الأدلة كلها، بل من وثائق، الكتاب المقدس بأسرها ،لا يبقي سبيل إلي الشك في أن موت المسيح لم يكن طوعاً وإختياراً فحسب، بل كان تنفيذاً لقصد الله الأزلي، وإتماماً للغاية الأساسية التي جاء لأجلها المسيح الأزلي من مجد السماء إلي عالم البشر ، كما أشار المسيح نفسه إليه في قوله " **لأجل هذا أتيت إلي هذه الساعة**".

(٣) الرأي القائل بأن المسيح مات لكي يؤثر موته في قلوب الناس تأثيراً فعالاً

أما هذا الرأي فيمكن التعبير عنه بأساليب عديدة مختلفة ، ولا يسعنا هنا أن نتناولها كلها، بل يلزمنا بالأحرى أن نلخصها تلخيصاً. فمات المسيح – حسب آراء من يذهبون هذا المذهب – ليعلن للناس تمام الإعلان حقيقتين عظيمتين : بغض الله للخطية، ومحبته للخاطئ.

ورب سائل : " ألم يكن ممكناً للمسيح أن يعلن للناس هاتين الحقيقتين بتعليمه وحياته، من غير حاجة إلي موته؟

وجواباً علي هذا السؤال نقول : إن المسيح قد قام بذلك فعلاً وحقاً، والناس لا يكترثون ولا يفهمون. فكم من مرات كثيرة علم المسيح الناس عن شناعة الخطية وخباثتها وقباحتها ، وكيف أنها تحزن قلب الله المحب الطاهر ، وكان سامعوه معرضين عن كلامه. وكم من أحيان عديدة علم المسيح أن الله ، مع أنه يبغض الخطية غاية البغض، إلا أنه مع ذلك يحب الخاطئ منتهى المحبة ، وسامعوه لا يحفلون بتعليمه. وأخيراً ما كان عليه إلا أن يبذل نفسه حتى الموت ،لأن صوت الأعمال أقوى من صوت الأقوال وأشد منه تأثيراً. فمات المسيح ليبين للناس بوضوح تام كم كانت الخطية شنيعة في نظر الله ، إنها سوداء جداً حتى أنه صار حتماً مقضياً أن يموت بسببها رب الأرباب وملك الملوك. ومات المسيح أيضاً ليعلن احسن إعلان عظم المحبة الوافية الصادرة من قلب الله للناس الساقطين ، إنه أحبهم لدرجة أنه أرسل ابنه الوحيد المحبوب ليموت لأجلهم علي صليب العار. فبموت المسيح – وبموته فقط – نستطيع أن نقيس مقدار بغض الله للخطية ومحبته للخاطئ.

إن هذا المذهب إنما يبني قيمة صلب المسيح علي تأثيره فينا نحن ، لا علي أية كفارة خارجية تكفر عن دنس خطايانا وعقابها ، كما آمنت بها الكنيسة الأولي. ويسلم أصحاب هذا الراي كل التسليم بأن موت المسيح كان إختيارياً ، بل أنه كان مقدراً في القصد الإلهي. فيقولون أن الله يتألم دائماً بسبب خطايا مخلوقاته ،وإنما نجد في صليب المسيح مظهراً عجيباً في عالم المادة لما يحدث بلا إنقطاع في عالم الأزل. فلا توجد – في رأيهم – أية عقبة للغفران من قبل الله ، لأنه مستعد .. بل يتوق ، أن يغفر الخطايا كلما يلتفت إليه الخاطئ. أما الشرط الوحيد للغفران فهو أن يكون فينا نحن روح يتفق والغفران أي أن نتوب توبة حقيقية ونرغب رغبة قلبية في أن نحب الله ونخدمه. وهذا ما يحدثه فينا صليب المسيح ، إذ يذيب قلوبنا الجافة ويجعلنا نبغض الخطايا التي سببت للمسيح هذه الآلام المروعة، وإذ يجذب محبتنا لمن أحبنا هذه المحبة الفائقة.

أما هذا فلا شك في صدقه، ولا نريد البتة أن نحط من قيمته. حقاً أن صليب المسيح يعلن بغض الله للخطية إعلاناً لا شك فيه ، كما أراد الله أن يكون، كما يظهر الصليب أيضاً محبة الله بأجلى وضوح ، كما قصد الله أيضاً. أما هاتان الحقيقتان فإذا ما دخلتا قلب الإنسان إستطاعتا أن تؤثرا فيه تأثيراً عظيماً، كما قال المسيح نفسه. ولكن هذا كله، وإن يكن حقاً، إلا أنه ليس كل الحق ، بل هو نصف الحق فقط. فهذا المذهب يعجز كل العجز عن تفسير كاف للكفارة ، كما يظهر من الأسباب الآتي ذكرها :

أ. يقصر هذا الرأي تقصيراً فاضحاً في تفسير بعض تصريحات المسيح نفسه عن موته ، حينما تكلم عن موته كفدية عن كثيرين، وعن دمه " **الذي سفك لأجل كثيرين لمغفرة الخطايا** ". أما هاتان العبارتان فلا معنى لهما إذا إفترضنا أن قيمة صليب المسيح قاصرة علي تأثيره في قلب الخاطئ ، ولكنهما تفيضان بالمعاني الجليلة إذا قبلناهما كما هما ، لأنهما تشيران إلي أن المسيح سيموت عوضاً عن الآخرين لكي يمكن إلهاً قدوساً من أن يغفر خطاياهم من غير أن تناقض رحمته المسامحة عدله الكامل.

ب. يعجز هذا المذهب كل العجز من أن يفسر تلك النبوات القديمة التي قال المسيح مراراً عديدة أنه يكملها. فكيف يمكن تفسير عبارات كهذه " **والرب وضع عليه إثم جميعنا** " ، وما إلي تلك من نبوات من هذا القبيل ، إلا أن المسيح – فعلاً وحقاً – بكيفية عجيبة لا نستطيع سبر غورها ، حمل تلك الخطية التي تفصل بيننا وبين الله؟ بل أن كل نظام الذبائح الموسوية يشير إلي هذه الحقيقة بعينها.

ج. وهذه النظرية تناقض تعاليم الكنيسة المسيحية الأولي ، غير أن الجميع يسلمون بأن الرسل أظهروا قوة روحية لا يساويهم فيها أحد الآن. أما هؤلاء الرسل فإنهم يشهدون بصوت واحد بأن المسيح مات كفارة عن خطايانا. فمن أين أتتهم هذه العقيدة إلا من ذلك الروح القدس الذي ملأ قلوبهم فرحاً ومنح كرازتهم قوة؟

د. لا تتفق هذه النظرية وحقائق الإختبار المسيحي في كل العصور. فأينما نجد يقيناً منتصراً وتوكيداً ظافراً يحكيان تلك الراحة القلبية التي يجدها الضمير المبكت في إتكال تام علي المخلص الذي مات ليرفع الخطايا التي لا يستطيع الإنسان مطلقاً أن يخلص نفسه منها ..مهما عظمت مجهوداته؟

ه. هذه النظرية تفشل كل الفشل في تفسير تلك الشدة المروعة التي أصابت المسيح في حديقة جثسيمان .. وسنتناولها بحثاً في الجزء المقبل من هذا الفصل. بل تعجز أيضاً عن تفسير صراخ المسيح علي الصليب " **إلهي إلهي لماذا تركتني؟** " !!

و. وإذا كان صلب المسيح مجرد مظهر مسرحي لمحبة الله – لا أكثر – فلا يمكن اعتباره مظهراً لمحبة حقيقية علي الإطلاق – كما يظهر لنا بوضوح من مثل بسيط:

افرض أني كنت واقفاً ، آمناً سالماً ، علي رصيف الميناء، متطلعاً إلي مياه البحر المضطربة. وإذا بصديق أتاني وقال لي " اريد ان أعطيك برهاناً لا تشك فيه علي أني احبك حباً فائقاً ، ولذا عزمت علي أن أموت دليلاً علي محبتي العجيبة " ، وعلي الفور القي بنفسه في لجج اليم، فغرق. ماذا ؛ يا ترى ماذا يكون فكري في هذا الصديق؟ هل هو فعلاً جدير بإعجابي الكامل؟ .. لا اظن؛ ايمكنني ان أقول : "ما أعظم محبته!!!" ، ولكن في الحقيقة كل ما أستطيع قوله هو : "ما أغباه من محب ، إذ بذل نفسه بلا سبب أو مسوغ! " فما أبعد المحبة الحقيقية عن مثل هذا التظاهر الإستعراضي التافه.

ولكن لنفترض الآن أن هذه الحادثة حدثت في ظروف أخري . ولست الآن واقفاً بأمن وسلام علي رصيف الميناء، بل أني مشرف علي الغرق في لجج البحر الغامرة ، علي وشك الهلاك، وإذا بالصديق هذا أتي ليخلصني من موت شنيع ، بل قدم حياته ثمناً لنجاتي ومات فرحاً لكي أحيا أنا. ما أعظم الفرق بين هذه الظروف والظروف السابقة! إن هذا الصديق الآن خليق بإحترامي الكامل وولائي الكلي. بل هذه المحبة هي محبة حقيقية ،إذ تضحي بنفسها فرحة لأجل غاية سامية (خلاص نفس الغير) لا لأجل تظاهر إستعراضي لا معني له. وتبين لنا هذه الحقيقة نقص هذه النظرية في صلب المسيح .. بل تبدي لنا كيف أن المسيح حقاً مات ليخلصنا من موت الخطية الأبدي.

وأخيراً .. إذا كان صليب المسيح مجرد مظهر مسرحي لمحبة الله ، لا ضحي المسيح بالحقيقة المثل الأعلى لحياتنا، ولكنه لن يكون مخلصاً لنا. فإفترضوا أننا إجتذبنا إلي الله عن طريق قراءة قصة موت شهيد من الشهداء ..بطل شهد موته شهادة بليغة بالإيمان الذي مات لأجله عن شخص مثل هذا نقول شاكرين : " قادني ذاك إلي الله " ، ولكن لن نقول البتة إنه مخلصنا وفادينا. ولكن، إذا كان موت المسيح مجرد مظهر لمحبة الله – لا أكثر – فلا يمتاز المسيح عن هذا الشهيد ، بل يعتبر فقط مجرد شخص قادنا إلي الله . أما هذا فهو حق كل الحق ، ولكن المسيح أيضاً أكثر من ذلك بكثير ، لأنه في الواقع هو المخلص. فيشهد كل من يعترف به في قلبه أنه مخلص وفاد، بأن موته كان أكثر من مجرد عرض أو تظاهر لمحبة الله، بل أنه مات لكي يخلصنا.

ورب سائل : " ومن أي شئ يخلصنا المسيح؟ " ويجيب الكتاب المقدس علي هذا السؤال إجابة لا شك فيها. إن المسيح يخلصنا من الخطية .. ومن الموت الروحي الأبدي الذي تنتجه الخطية.

(٣) الرأي القائل بأن المسيح مات كفارة عن خطايانا حسب الكتب

قد لا يصح أن نسمي هذا رأياً لأننا نعتقد كل الإعتقاد أنه حقيقة إلهية ، ومع أننا نعترف أيضاً بأن موت المسيح له معاني كثيرة ووجوه عديدة، لا يكفي أي وجه بمفرده أن يسبر غوره، إلا أننا نقرر أن هذه الكفارة هي عنصر ضروري ، بل أساسي ، في أي تفسير لموت المسيح يستحق إهتمامنا وإحترامنا. " **إنني سلمت إليكم في الأول ما قبلته أنا أيضاً** " كتب بولس الرسول: " **أن المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب** " ، ولم تكن هذه الحقيقة رسالة بولس الدائمة فحسب، بل كتب أيضاً أنه قبلها " **ليس بحسب إنسان. لأني لم اقبله من عند إنسان ولا علمته. بل بإعلان يسوع المسيح** "، بل حسبها بولس الحقيقة الرئيسية المركزية بين كل حقائق المسيحية ، حتى أنه وصف الذين كانوا يكرزون برسالة أخرى " **كقوم ... يريدون أن يحولوا إنجيل المسيح** ". ثم إستأنف كلامه قائلاً: " **ولكن إن بشرناكم نحن أو ملاك من السماء بغير ما بشرناكم فليكن أناثيما (أي ملعوناً)**". وكان بولس نفسه يكرز بهذه الرسالة الكفارية بعد صلب المسيح بمدة تقل عن سبع سنين. بل كانت هذه الرسالة أيضاً لب كرازة بطرس ويوحنا وفيلبس وكل من بلغتنا آثارهم من رؤساء الكنيسة الأولي.

ورب سائل : " ألم تكن هذه الكنيسة الأولي مكونة من أناس أغلبهم يهود ؟" أناس كانت عقولهم مشبعة بالفكر الرباني أن البهائم المذبوحة يمكنها أن ترفع خطايا البشرية " ، أناس فسروا صلب المسيح في نور هذا الفكر القديم؟.. مهلاً !، دعنا نوازن الدلائل والحقائق. ألا يحملنا المنطق بالحري علي أن نستنتج أن تلك الذبائح اليهودية قد فرضها الله ونظمها لهذا الغرض بعينه ، فكان القصد منها أن تهيئ عقول الناس لتفهم حق الفهم معني ذبيحة المسيح العتيدة؟ بل فقدنا المفتاح الذهبي للعهد القديم كله، إذا أنكرنا أن المسيح أتم الرموز الروحية الموجودة في الذبائح الموسوية، والتصريحات الواردة في تعليم الأنبياء ؛ بل فقدنا أيضاً مفتاح سر الذبائح الدموية التي قدمت كفارة عن الخطية البشرية في تاريخ كل الأمم والقبائل.

ولعل المعترض يقول : " وما الحاجة إلي هذه الكفارة؟ أليس الله أباً محباً، يكفيه أن ينتظر أول علامة من علامات التوبة حتى يرحب بالتائب أجمل ترحيب؟ فما الحاجة إذن إلي استعطافه بكفارة؟ أما هذه الحجة فليست مبنية علي أساس متين صحيح. لأن الله ليس أباً محباً فحسب. ولكنه أيضاً قاض عادل، وحاكم قدوس علي الكون بأسره، يسيطر علي النظم الأدبية بأسرها ، بل هو في الواقع مصدر هذه النواميس جميعها. فحقاً أنه المحبة كلها ،لا يريد هلاك نفس واحدة، ويفرح بتوبة الخاطئ. فكان من المحتم علي إله طبيعته المحبة، ألا

يترك شخصا واحدا من مخلوقاته يهلك من غير أن يقدم له طريقة كاملة لخلاصه. أما الله فهو نور أيضا، وليس فيه ظلمة البتة. بل هو طاهر قدوس ، ولا يمكن لأية خطية أن تدخل إلي حضرته المقدسة. بل لا يمكنه تعالي أن يحتمل الخطية ولا أن يتساهل فيها علي الإطلاق، لأنها تناقض ذاته الإلهية. فلا يمكنه البتة أن يتغافل عنها كأنها بلا قيمة ، أو أن يغفرها بلا عقاب أو كفارة ، لأن هذه المعاملة تتناقض وطبيعته وصفاته الأزلية.

يتضح لنا إذن أننا في حاجة عظمي إلي كفارة ، إذ نري من جهة واحدة حالة الإنسان الیائسة الهالكة وعجزه عن أن يخلص نفسه ، ثم نري من الجهة الأخرى إشتياق محبة الله إلي خلاصه، مع إستحالة تغافله عن الخطية أو تساهله من جهتها. فلم تكن المسألة البتة مسألة إله غضوب ينتظر إستعطافا حتى ينظر إلي الخاطئ بعين الرحمة .. كلا، بل هي بالأحرى مسألة إله طبيعته محبة ، فهو يشتاق دائما إلي أن يرحب بالخاطئ التائب، وقد دبر فعلا -- قبل تأسيس العالم -- الطريقة الوحيدة التي تتفق فيها محبته وعدله. لأن الخطية لابد من أن تنال عقابا عادلا ، بل تنتج الخطية حتما للخاطئ موتا أبديا أبديا في إبتعاده وإنفصاله عن الله. أما هذا الحكم فمن المحتم علي الخاطئ إما أن يحمله هو بنفسه أو أن يجد مخلصا يتحمله عنه. ثم لا يصح أن يكون هذا المخلص، الذي يرفع خطايا البشرية، مجرد إنسان، لأنه لا يوجد إنسان كامل، بلا نقص ولا عيب، يليق به أن يقوم بهذه الكفارة العجيبة ؛ ولأنه أيضا لا يكون من العدل أن يعاقب الله إنسانا بريئا عوضا عن الأشرار. ولكن لا تكون الحال كذلك بالنسبة إلي الله نفسه ، الذي هو نفسه القاضي والشارع والشخص المساء إليه. فأتى الله نفسه في شخص المسيح وتحمل في نفسه حكم الخطية ونتيجتها. فيمكنه الآن أن **"يكون بارا ويبرر من هو من الإيمان بيسوع "**. وقصارى القول أننا لا نؤمن البتة بإله غضوب يلزم إستعطافه بكفارة قبل أن يرحب بالناس الساقطين . لكننا نؤمن بالأحرى بإله محب يشتاق كل الإشتياق إلي الترحيب بهم ؛ بل قد أحبهم لدرجة أنه رضي أن يأتي، في شخص المسيح، لكي يتمم بنفسه تلك الكفارة التي كان عدله يتطلبها، والتي بدونها لا يكون هو منصفا لو غفر الخطايا. فلم يكن من سبيل إلي طريقة أخرى، لدى إله عادل قدوس، لمغفرة الخطية والإثم.

ما أعجب هذه الحقيقة! لو إتفق أن غفر الله خطايانا بلا قصاص ولا كفارة، لاستنتجنا أن الله ليس بإله قدوس، وأن الخطية ليست بأمر خطير. ولكن الله علي عكس ذلك ، حكم علي الخطية حكما هائلا ، إظهارا لقداسته ولشناعة الخطية. ثم . في محبته العظيمة ، أتي في شخص المسيح وتحمل هذا الحكم الهائل في نفسه ؛ لكي يغفر خطايانا من غير أن يبدي تساهلا في القداسة الإلهية ولا أن يناقض عدله الأزلي.

(أ) أما هذا التفسير فإنه – في رأينا – التفسير الوحيد الذي يتفق والحقائق. ومما يجدر بنا أن نلاحظه هنا أن أفلاطون كتب في كتابه : " السياسة " (٤٦٩ ق. م.) "إن الإنسان الكامل الذي – من غير أن يفعل شراً – يقبل علي نفسه أفظع مظاهر الظلم، فيجلد ويقيد ويعذب بل وتقلع عيناه وبعد أن يحتمل كل الآلام الممكنة يربط إلي سارية، هو الذي يلزمه أن يعيد ثانية بدء البر الأصلي وصورته ". ومع أننا لا نزعم أن هذه الكلمات نبوة موحى بها بملء معني هذه العبارة، إلا أننا نظن أن ضوء الكلمة الأزلي هو الذي أضاء عقل ذلك اليوناني الحكيم حتى فهم هذا السر العميق ، حاجة البشرية الماسة إلي فاد يتألم لأجلها ويرد لها برها الأصلي لدى الله. ومهما يكن من شئ، فإننا نعلم أن أشعياء النبي كتب قبل زمن أفلاطون هذه الكلمة الإلهية:

" محتقر ومخذول من الناس رجل أوجاع ومختبر الحزن. وكمستر عنه وجوهنا محتقر فلم نعتد به. لكن أحزاننا حملها، وأوجاعنا تحملها .... وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا. تأديب سلامنا عليه وبحبره شفينا. كلنا كغنم ضللنا. ملنا كل واحد إلي طريقه، والرب وضع عليه إثم جميعنا ...... ضرب من أجل ذنب شعبي .... سكب للموت نفسه وأحصي مع أثمة وهو حمل خطية كثيرين وشفع في المذنبين ".

ويكفينا دليلاً علي أن هذه النبوة تشير إلي المسيح بالذات، ما ورد في هذا الفصل من نبوات عن صمت المسيح في المحاكمة، وموته مع الأشرار، ودفنه في قبر غني ، كما رأينا في الفصل السابق. فنري إذن أن النبوات الواردة في العهد القديم التي تشير إلي موت المسيح تدل حتماً علي أن هذا الموت كان موتاً كفارياً ، عن الآخرين.

(ب) إن نبوات العهد القديم لا تشهد هذه الشهادة الجلية وكفى، بل إن المسيح نفسه علم هذه الحقيقة بوضوح لا غموض فيه. وفي مناسبتين إقتبس المسيح كلمات الأنبياء عينها مشيراً بها إلي موته. فقال مرة " إنه ينبغي أن يتم في هذا المكتوب وأحصي مع أثمة " ، وبهذا الإقتباس أيد المسيح نبوة إشعياء الصريحة، بل أكد المعنى الكفاري لموته الذي يعبر عنه أشعياء بوضوح تام. وقال المسيح أيضاً غير مرة " أن **كلكم تشكون في في هذه الليلة لأنه مكتوب : إني أضرب الراعي فتتبدد الخراف** ". وبهذه الكلمات، طبق المسيح علي نفسه – بلا شك – نبوة زكريا ، بل فسر المسيح هذه النبوة بأن الله سيضربه هو – كالراعي الصالح – وكيف يكون ذلك إلا بمعنى أن " **الرب وضع عليه إثم جميعنا** " ؟؟ وعلاوة علي هذين الإقتباسين الدقيقين، كان المسيح يشير بإستمرار

إلي أن موته المقبل هو إتمام لنبوات الإنبياء ، وأما معنى هذه النبوات الكفاري فهو واضح لكل من يدرسها.

وليس ذلك فقط، بل اشار المسيح أيضاً إلي موته في أماكن أخرى بعبارات تفيد هذا المعنى بعينه. " **هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا** ". " لأن ابن الإنسان أيضاً لم يأت ليخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين ". وبعد قيامته من الأموات علم تلاميذه قائلاً :" **هكذا هو مكتوب وهكذا كان ينبغي أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات في اليوم الثالث** " — مشيراً في تعليمه إلي ما هو مكتوب عنه " **في ناموس موسى، والأنبياء، والمزامير** ".

(ج) هذا التفسير — وهذا وحده — يفسر لنا ذلك النفور الذي أصاب المسيح في حديقة جثسيماني إذ كان مواجهاً موته (مرقس ١٤ : ٣٣ — ٣٩) : فكيف إتفق أن المسيح ، الذي كانت مسرته دائماً في إتمام إرادة أبيه ، نفر في الحديقة نفوراً مؤلماً مروعاً مما قادته إليه هذه الإرادة المحببة دوماً لديه؟ حقاً إنه خضع كل الخضوع لهذه الإرادة الإلهية ؛ ولكننا هنا نتساءل عن سبب هذا النفور العجيب. فلا يكفينا أن نعلل هذا النفور بأنه الفزع الطبيعي الذي يصيب الطبيعة الإنسانية إزاء الآلام البدنية الهائلة. فمهما تعظم هذه الآلام فهي لا تكفي لهذا التعليل بالنسبة للمسيح المقام ، بل قد كابد كثيرون من أتباعه آلاماً تساوي — أو تزيد — آلامه هو (من الوجهة البدنية) بشجاعة كاملة، وفرح لا يعبر عنه. ولا يمكن أيضاً تفسير هذا النفور المروع بالشدة القلبية التي إعترته من جراء جبن تلاميذه، الذين قد تبنأ بتركهم اياه وهروبهم منه. علي أن كثيرين من أتباعه قد فقدوا كل صلة بشرية وكل عطف إنساني، ولم يزالوا فرحين مبتهجين ، شاعرين بحضوره الإلهي. ولو كان سبب حزنه قاصراً علي جبن تلاميذه ، ألم يكن علمه بحضور أبيه يكفيه؟ بلى. إننا لا نجد تفسيراً لهذه الشدة المرعبة إلا أنه كان ينتظر تلك الساعات الفظيعة التي سيحمل فيها علي نفسه — وهو القدوس الطاهر — دنس الخطية البشرية كلها ، تلك الخطية التي نفرت روحه الطاهرة منها نفوراً ، بل تلك الساعات الهائلة التي صرخ فيها ، هو الذي لم يختبر قط لحظة واحدة إنقطعت فيها شركته الكاملة بالآب السماوي ؛ تلك الصرخة المروعة " **إلهي إلهي لماذا تركتني؟** ".

(د) وليس من تفسير آخر يشرح لنا تلك الصرخة المؤلمة التي دونها متى ومرقس — وهي وحدها — في عباراتها العبرية الأصلية. ولو لم يفه المسيح بهذه الصرخة، لإستحال على أحد أن يتصورها. بل كيف نفهمها إذن؟ هل أصاب المسيح فتور وقتي في إيمانه؟ كلا وحاشا ؛ لأن كثيرين من أتباعه قد ماتوا بلا ظل من الشك ، وهم كلهم معترفون

بأنه هو المثل الأعلى في حياة الإيمان (كما يظهر جلياً من درس البشائر). هل فقد المسيح إذن شعوره بشركته بالآب ، نظراً لتحمله – إلي حد ما – خطية البشرية؟ هذا التفسير ليس بكاف البتة، إذ إستطاع المسيح – ولا شك – أن يثق بالله وبحضوره دون أي إتكال علي شعوره أو إحساسه البشري. إن هذه الصرخة عبرت عن حقيقة أعمق من هذا بكثير. وليس من تعليل لها إلا هذا التعليل الواحد، وهو : إن الخطية ، وحدها ، تفصل بين النفس وبين الله، أما المسيح ؛ الذي لم يختبر هذا الفاصل طيلة حياته الطاهرة المعصومة ، فإنه قد ذاق مرارة هذا الإنفصال الفظيع للمرة الوحيدة أثناء تلك الساعات المروعة. ولكن هذه الخطية التي فصلت بين المسيح وبين الآب، لم تكن خطيته هو، بل خطية العالم .. خطيتك انت، أيها القارئ : " **الذي حمل هو نفسه خطايانا في جسده علي الخشبة** ". هذا ما قاله بطرس، وإليك ما قاله بولس :

> **" المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا. لأنه مكتوب ملعون كل من علق علي خشبة " – وأيضاً " لأنه (الله) جعل الذي لم يعرف خطية (المسيح) خطية لأجلنا، لنصير نحن بر الله فيه "**

لو مات المسيح كالمثل الأعلى للتضحية – لا أكثر – أو لكي يبرهن أنه يمكن الإنسان ان يثق بالله مهما أصابه من الضيق ، فما معنى هذه الصرخة إذن؟ ولكن موته كان أكثر من ذلك بكثير ؛ إذ علق علي الصليب إتماماً لرموز الذبائح الموسوية – تلك الذبائح التي سفكت دماؤها كفارة عن الخطية والإثم – وإتماماً أيضاً لرمز الكبش الذي حمل خطية إسرائيل إلي البرية (لاويين ١٦) – إلي مكان لا يذكر فيه فيما بعد.

حقاً إن هذه الصرخة – رغماً عن كل ما يمكننا أن نقوله عنها – تظل دائماً لغزاً – بل أعمق سر من أسرار الكفارة. كما نقرأ في كتاب " فخر الصليب " : " إذ ترى بأي معنى معقول يستطيع الآب المحب القدير أن يترك ابنه الحبيب وحيداً في الظلمة العميقة، والحاجة المتناهية؟ ... وبكل تأكيد لم يمكن أن يكون ذلك المتألم الإلهي، ولو لحظة أو طرفة عين، موضوع عدم مسرة الأب. فإنه هو الذي نزل من السماء ليفعل مشيئة الأب، ويتمم قصد المحبة الإلهية بفداء عالم ساقط ، مهما كلفه ذلك شخصياً. بل علي النقيض من ذلك، لم يكن قط فكر الآب مركزاً في الابن بأكثر رضا أو أعمق محبة، من هذه اللحظة، حتى قال المسيح : " **لهذا يحبني الآب لأني أضع نفسي لآخذها أيضاً** ". ولم يكن المسيح قط أكثر شعوراً بإتمامه مشيئة الآب وكسب رضاه ".

نعم – إنه لغز، وسر عميق – كيف انفصل الآب السماوي عن الابن الذي كان يتحد به في وحدانية الجوهر الإلهي. أما سبب هذا الانفصال، فواضح لا غموض فيه – إذ صار المسيح الكامل – بكيفية روحية لا يسبر غورها العقل البشري، " خطية لأجلنا "، وذاق عنا هذا الانفصال عن أبيه الذي تسببه الخطية وحدها.

وهنا نقتبس اقتباساً آخر من كتاب " فخر الصليب "وهو كتاب بلا غلاف لم يمكنني أن أعرف مؤلفه أو دار النشر ولا سنة النشر ، فعذراً للقارئ :

" وبدون الإيمان بأن المسيح قد حمل خطايانا في جسده علي الصليب، وبدون قبول العنصر الكفاري في موته، نرى أن صرخته علي الصليب سر غامض لا يمكن تعليله. أما إذا كان يسوع هو حمل الله، والله نفسه وضع عليه إثم جميعنا، فإنا نقبض بأيدينا علي مفتاح سر مثل هذا الألم. إذا كان موت المسيح هو موت شهيد عظيم لأجل الحق فقط، فإن صرخته لا محل لها بالمرة، ولكن إذا كان قد مات البار لأجل الأثمة، إذا كان جعل خطية لأجلنا، إذاً تكون خطايانا وخطايا كل العالم هي التي أخرجت من صدر الفادي صرخة الألم والوحشة هذه .... إذ مرت عليه بصورة ما كل خطايا العصور وعارها، مع كل أمواجها وتياراتها. وطغت فوق رأسه، غمر ينادي غمراً، كل الشهوات الدنيئة وظلمة الشعوب القديمة .. عناد إسرائيل وصلابة رقبته .. كبرياء نينوى وصور ..قساوة مصر وبابل .. ظلم المجتمع الإنساني وجرائم الأسواق .. البغاء والحروب .. بل كل خطايا البشرية في الماضي والحاضر والمستقبل. بطريقة ما غامضة ضغطت كل هذه علي نفسه ، حتى ولدت صرخة الألم هذه .... لقد **"وضع عليه إثم جميعنا "** ؛ أي الخطية وعارها. الألم والتبكيت. أجل كل عجزنا ونقائصنا، سقطاتنا وذنوبنا، تجاربنا ومعاصينا، تعدياتنا وديوننا وخطايانا، غلطاتنا وجهالاتنا، وأرجاسنا وآثامنا. فينبغي لنا ألا نهرب من النتائج المروعة لهذه الحقيقة المرة ". بل بالحري لنعترف من صميم قلوبنا بأننا نحن استحققنا ما كابده المسيح لأجلنا، ولنعبد المخلص الذي يستطيع وحده أن يخلصنا، والذي وحده يحبنا هذه المحبة الفائقة. إن سر الكفارة الأعمق ليس هو آلام المسيح البدنية، بل آلامه النفسية الروحية، حين حمل خطية العالم ورفع خطايانا عنا.

الخلاصة

قد رأينا ضرورة الكفارة، والعلة التي قضت بها هذه الضرورة. فتطلبت محبة الله قبول الخاطئ التائب ومغفرة خطاياه من جهة، في حين أن قداسة الله وعدالته كانتا تمنعانه تعالي عن أن يتغافل عن الخطية أو يغفرها من غير قيد. وفي الصليب وحده

تتلاقى محبة الله مع قداسته وتتلائم رحمته مع عدالته. أما المخلص، فلابد من كونه هو الله – من الجانب الواحد – وإلا فلا تجدي كفارته شيئاً، بل قد تعتبر ضرباً من ضروب الظلمة ، كما أنه من المحتم أيضاً – من الجانب الآخر – أن يكون إنساناً تاماً، لكي لا يموت بدلاً عن البشرية فحسب، بل نائباً عنها أيضاً ؛ ممثلاً الإنسانية الساقطة في شخصه الكامل، وليس بأحد غير المسيح تكمل هذه الشروط أو تتحقق.

أما الكفارة، فقد نشأت من وحدانية الثالوث. " فالذبيحة لم تكن عبارة عن الإنسان في المسيح مراضياً الله، بل كانت هي الله في المسيح مصالحاً الإنسان في نفسه وبمعنى آخر مصالحاً نفسه ... لأن الفداء كان عمل اللاهوت الكامل. إن الله كان في المسيح مصالحاً العالم لنفسه – ليس مصالحاً بواسطة المسيح فحسب بل حاضراً بالمسيح في المصالحة، وعاملاً بالمسيح عمله الذاتي في المصالحة. فالمصالحة تمت باللاهوت الكامل، وليس بالابن وحده. أما الله فقد تألم في الكفارة، لا في طبيعته الإلهية الأزلية، بل في شخص المسيح المتجسد ، إذ مع أن الكفارة دبرها الله قبل تأسيس العالم في وحدة الثالوث الأقدس، بلا شئ من التميز بين الأقانيم الثلاثة (الذين يتحدون دائماً في إرادتهم وفي جوهرهم وذاتهم) إلا أنه كان من وظيفة أقنوم واحد – وهو الابن – أن يتجسد ويتألم عنا.

التطبيق الشخصي

من الواجب أن تستحيل هذه النظرية إلي قوة عملية في حياتنا، وأن تصبح عقيدة الكفارة إختباراً شخصياً. فعلينا أن ندرك أن المسامير لم تكن هي التي علقت المسيح علي الصليب، بل خطايانا وآثامنا. ولم يكن بيلاطس واليهود والرومان، هم وحدهم المسؤولين عن صلبه، بل إننا نحن أيضاً مذنبون – إذ صلبنا رب المجد. " والآن يليق بك أن تسمع قول القديس أنسلموس وهو يتأمل أمام الصليب : " ماذا صنعت يا يسوع، يا أحلى البشر، وأعز الأصدقاء، حتى تعامل هذه المعاملة؟ ..... أنا هو تلك اللطمة التي آلمتك، أنا مسبب موتك، أنا الذي عملت علي تعذيبك ". ثم يشير إلينا بكلمات لا تزال ترن بوضوح في قلوبنا قائلاً : " ضع كل إعتمادك نهائياً علي موته، لا تثق بشئ سواه، بل ثق كلية في ذاك المصلوب. أستر نفسك كلية في ذلك وحده، بل لف نفسك كلية في ذلك المصلوب ". واسمع أيضاً كلمات الدكتور كلي كران لترجي (الهندي المشهور) " طالما سئلت لم طلقت ديانتي الهندوكية، وصرت تلميذاً للمسيح؟ والجواب إني قد جذبت بغير شعور مني تقريباً إلي شخص المخلص، بحياته الطاهرة النقية، وإطاعته لإرادة الله، وأعمال البر والرحمة التي صنعها لتخفيف آلام الإنسانية المعذبة.

ثم إن تعاليمه كما جاءت في الموعظة علي الجبل، ومحبته للخطاة، قد إكتسبت إعجابي وخلبت لبي، فأعجبت به وأحببته .... ولكن العقيدة التي إضطرتني إلي أن أعتنق المسيحية، وأن أعلن إيماني به علي رؤوس الإشهاد هي عقيدة آلام المسيح الكفارية وموته عني. فقد شعرت بأني خاطئ، ووجدت في المسيح شخصاً مات عن خطاياي وحمل العقاب الذي تستوجبه معاصي. " **لأنكم بالنعمة مخلصون**". وكان هذا موضوع تأمل قلبي ، إن المسيح مات وبموته قد قضى ديناً لا يستطيع الإنسان أن يسده ".

إن لكفارة المسيح وجهة إلهية ووجهة إنسانية. فقد تأملنا في الوجهة الإلهية، ورأينا أن الله مستعد، بل مشتاق إلي أن يخلص الخطاة. فما علي الإنسان إذن إلا أن يقوم بنصيبه هو. أما نصيبه فهو تافه جداً ، عليه فقط أن يتوجه إلي الله بالتوبة والإيمان. فمعنى التوبة هو الرغبة الحقيقية في ترك الخطية، التي بدونها لا يوجد إيمان حقيقي بالمخلص الذي مات لكي يخلصنا من خطايانا، لا في خطايانا. أما هذه التوبة، فإنها تتناقض البتة والحقيقة القائلة بأن علة خلاصنا ليست في شئ عملناه ، حتى في التوبة عينها ، بل أن المسيح – والمسيح وحده – هو المخلص، فلا يحتاج خلاصه الكامل إلي شئ بشري يكمله. إن الإيمان هو مجرد اليد التي نتناول بها خلاص المسيح المجاني، كما أن التوبة هي مجرد التخلي عما كانت اليد متشبثة به سابقاً.

" لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان، وذلك ليس منكم. هو عطية الله. ليس من أعمال كيلا يفتخر أحد ".

النتيجة

لا يظن أحد أن الصليب مجرد حادث تاريخي قديم، مستقل عن حياتنا، نحن، قد خلصنا بسببه كأنه مجرد إفتراض شرعي – لا أكثر – بينما نظل كما كنا في حياة الخطية القديمة. كلا. بل أن غاية الله في الصليب لم تقتصر علي تخليص المؤمن من عقاب الخطية وكفي، بل علي أن يعطيه أيضاً دافعاً جديداً ، بل قوة جديدة ، تمكنه من أن يعيش عيشة الغلبة والنصرة علي قوة الشر. كما قال أحدهم : " عندما نتمسك بالإيمان بالفداء الذي في يسوع المسيح نتحد به في موته، فيصير موته موتنا نحن ، بحيث إننا لم ندفع فيه ثمن عقاب الخطية فحسب، بل قد متنا للخطية فيه. وقد ولدنا من فوق، وأصبحنا خليقة جديدة، " **مخلوقين في المسيح يسوع لإعمال صالحة** ". أما هذه الأعمال فلا يمكننا البتة أن ننال الخلاص عن طريقها، ولكنها تنبعث إنبعاثاً طبيعياً من الحياة الجديدة التي يمنحنا إياها المسيح ، وقد أمرنا الله أن نمارسها.

إذن كان صليب المسيح إنتصاراً عظيماً علي قوة إبليس ، الذي هو جبار قاس علي عبيده الأسرى في عبودية الخطية. أما المسيح فقد " **جرد الرياسات السلاطين أشهرهم جهاراً، ظافراً بهم في الصليب**". فحرر المسيح هؤلاء العبيد حتى أنهم الآن ليسوا في حاجة إلا أن يتملكوا حقهم من هذه الحرية ويستمتعوا بها. " **فإذ قد تشارك الأولاد** (الناس) **في اللحم والدم، اشترك هو** (المسيح) **أيضاً كذلك فيهما، لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت أي إبليس، ويعتق أولئك الذين خوفاً من الموت كانوا جميعاً كل حياتهم تحت العبودية** ". " **فشكراً لله أنكم كنتم عبيداً للخطية ولكنكم ... إذا أعتقتم من الخطية، صرتم عبيداً للبر** ".

كتب أحدهم " إن المغفرة ليست بسبب المسيح وكفى، بل هي في المسيح. فلا يمكنك أن تنال المغفرة من غير أن تقبل الغافر نفسه ، وتتصل به وتتحد به في عقلك وقلبك وحياتك. فحقاً إننا نتبرر بدم المسيح، لا علي أساس عمل صالح عملناه ، ولكن هذا التبرير هو في ذاته ولادة جديدة، ويصير لنا موته وقيامته قوة تمكننا من الإنتصار علي قوة الخطية ".

يا له من مخلص! يا له من خلاص مجيد! عندما نواجه معجزة صلب المسيح يتردد العقل ويعجز الإدراك. إذا كان يسوع حقاً هو الله ظاهراً في الجسد .. فمات ... إذن ينبغي أن تحدث حادثة مروعة ... ألا ينفجر الكون كله؟ هكذا كتب الأستاذ شورت. ونقرأ في البشائر أن بعض العجائب حدثت فعلاً ، لأنه حدثت ظلمة على كل الأرض مدة ثلاث ساعات في منتصف النهار .

> **" وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل ، والأرض تزلزلت والصخور تشققت ، والقبور تفتحت وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين .. وظهر لكثيرين "**

ولكن لم يمت أحد قط ، لأن يسوع مات ليمنح الناس حياة ، لا الموت .


أي إن الله كان في المسيح مصالحا
العالم لنفسه غير حاسب لهم
خطاياهم وواضعا فينا كلمة
المصالحة . إذاً نسعى عن المسيح
كأن الله يعظ بنا . نطلب عن
المسيح تصالحوا مع الله . لأنه
جعل الذي لم يعرف خطية ،
خطية لأجلنا لنصير نحن بر الله
فيه (٢كورنثوس ٥: ١٩-٢١)

الفصل السابع

المسيح هو الملك المنتصر

قد رأينا في الفصول السابقة أن المسيح لم يكن حقيقة تاريخية فحسب ، بل هو أفرد وأعجب شخصية ظهرت على صفحات التاريخ ، بل لا محيص لنا ، أيضاً ، من أن نستنتج أنه كان أكثر من مجرد إنسان – مهما يكن هذا الإنسان فريداً – بل كان في الواقع الإله السرمدي ظاهراً في الجسد .

وقد رأينا أيضاً أن الدواعي التي دعته إلى هذا التجسد تتضمن غايتين أساسيتين :

أولهما : أن يعلن للناس الذات الإلهية غير المنظورة ، بكيفية يمكن للعقل البشري أن يفهمها بها ، وللقلب البشري أن يحبها ويعبدها .

ثانيهما : ليتمم تلك الكفارة المجيدة (المدبرة من الذات الإلهية قبل الأزمنة) التي بها – وبها وحدها – إستطاع إله قدوس أن يغفر الخطايا .

ثم بعد أن أكمل المسيح مهمته تماماً ، قام منتصراً من بين الأموات ، وأرى تلاميذه **"أيضاً نفسه حياً ببراهين كثيرة بعد ما تألم وهو يظهر لهم اربعين يوماً "** ، وأوصاهم وصيته الأخيرة أن يذهبوا إلى العالم أجمع ويكرزوا بـ " **الإنجيل** " المجيد للخليقة كلها ، بين كل الأمم .

ما أعجب هذه الوصية !

عرفنا في المسيح حقيقة طبيعة الله وصفاته معرفة تقنع العقل ويطمئن إليها القلب .

هل الله عادل ؟
أهو محب ؟
هل يبالي بآلام البشرية ؟
أيقبل التائب حقاً ؟

كيف نعلم صفاته علم اليقين ؟... لأن الطبيعة – بالرغم من جمالها – قاسية صارمة......ولكن عن كل هذه الأسئلة يمكننا أن نجيب ، بثقة تامة ، أن الله والمسيح واحد .

كيف ..؟!..... لأن المسيح أتى ليعلنه ..

أكان المسيح عادلا ؟...... فالله إذن عادل .

أكان المسيح محبا ؟...... فالله إذن محب .

أكان المسيح يتألم مع آلام البشرية ؟...... فالله إذن يتألم أيضا .

لأن المسيح الذي قد رجع الآن إلى أمجاد الذات الإلهية السماوية ، ليس هو إلا ذات المسيح الذي كان يمشي في حقول الجليل " يسوع المسيح هو هو أمسا واليوم وإلى الأبد ".

وليس ذلك فقط ، إذ ليس لنا علم تطمئن إليه قلوبنا بحقيقة طبيعة الله وكفى ، بل نجد أيضاً الحل الوحيد الكامل لمشكلة الخطية البشرية . فالمسيح هو الكفارة ، وهو المخلص؛ ولنا فيه الغفران والمصالحة والتبرير ، إذ محا المسيح ما كان في الوسط بيننا وبين الله من فاصل وحجاب !

يا له من إنجيل إلهي !

بل أكثر من ذلك كله ، إذ ليس لنا في المسيح غفران خطايانا السابقة فحسب ، بل نجد فيه أيضاً مخلصاً قديراً يحيا في كل حين ليشفع فينا ، ويقدر أن يخلصنا إلى التمام من قوة الخطية في حياتنا اليومية إذن لم يعد الموت ملكاً للأهوال ، لأن المسيح قد " أبطل الموت وأنار الحياة والخلود بواسطة الإنجيل " . بل نعتبر قيامة المسيح من الأموات ضماناً وكفالة أننا سنقوم نحن أيضاً ، إذ هو وحده الذي قام من الأموات . لا يلزمنا أن نخاف من الموت بعد . إذ ليس الموت إلا باباً ومنقذاً إلى حياة أفضل . وعندما نحزن على وفاة أعزائنا المؤمنين ، لا حاجة لنا إلى حزن العالم اليائس ، " **لأنه إن كنا نؤمن أن يسوع مات وقام فكذلك الراقدون بيسوع سيحضرهم الله أيضاً معه . فإننا نقول لكم هذا بكلمة الرب ، أننا نحن الأحياء الباقين إلى مجيء الرب لا نسبق الراقدين . لأن الرب نفسه بهتاف ، بصوت رئيس ملائكة وبوق الله ، سوف ينزل من السماء ..**".

ما معنى هذه الكلمات ؟

أتبقى لبحثنا حقيقة أخرى ، حقيقة مدهشة ، حقيقة تذوب أمامها المشكلات والمعضلات التي تزعج هذا العالم الشقي الساقط ؟ هل تعين أن المسيح الذي كان يمشي في حقول الجليل

وشوارع أورشليم سوف ينزل حقاً ويأتي ثانية إلى عالمنا هذا ؟ وهل سنرى مجده بعيوننا البشرية ؟

نعم ، حقاً سيأتي ثانية ، لأن مجيئه يفوق الفجر تأكيداً ويقيناً ، ونريد بحث هذا الموضوع الخطير في فصلنا هذا .

❑ يقينية مجيء المسيح الثاني ..

▪ شهادة الأنبياء :

لاحظنا في فصولنا السابقة غنى التفصيلات التي عبر بها أنبياء العهد القديم عن مجيء المسيح الأول . فقد قام كُتاب مختلفون ، تفصلهم عن بعضهم مئات السنين ، وتناولوا تفصيلات ولادته وخدمته وآلامه وموته بدقة في التعبير وبإتفاق في الوصف لا يأتيهما أحد لو لم يكونا من الوحي الإلهي . ولم تسقط إحدى هذه النبوات ، بل تمت جميعها في حينها . أما من يتعمق في درس العهد القديم ، فلابد من عثوره على نبوات أخرى عديدة ، تزيد تلك النبوات الكثيرة التي بحثنا فيها آنفاً ، وتشير إلى المسيح بأوصاف تختلف عما رأيناه كل الإختلاف . فلا تصوره هذه النبوات آتياً في ضعف ، بل في قوة ..لا في صمت بل بهتاف .. لا ليتألم بل ليملك .. لا ليخلص بل ليحكم ... بل نراه في هذه النبوات العديدة كالملك المقبل الذي سوف يجلس على عرش داود ، ونراه كمنقذ الأمة اليهودية وكحاكم العالم أجمع.

وكانت هذه النبوات عديدة جداً ، حتى أن أغلب اليهود كانوا يتصورون المسيا بهذه الكيفية وحدها ، وكانوا ينسون ، أو يتناسون ، تلك النبوات الأخرى التي تأملنا فيها سابقاً ، والتي أشارت إلى ذاك الذي هو " محتقر ومخذول من الناس " والذي سوف يموت عن خطايا البشرية . وهكذا اتفق أن اليهود – على العموم – لم يروا في يسوع الناصري المسيا المنتظر ، لأنهم كانوا يتوقعون ملكاً أرضياً ومنقذاً قومياً ، ولم يعرفوا رب المجد عندما أتى متسربلاً بالضعف والتواضع . " إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله " . فأتموا النبوات التي لم يفهموها برفضهم إياه وصلبه .

ولكن ماذا نقول عن تلك النبوات كلها التي إعتمدوا عليها ، وعن المجد الموعود به ؟ هل أخطأ الأنبياء ؟ حاشا ! لم يخطئوا في هذه كما لم يخطئوا في تلك التي أشارت إلى آلام المسيح وموته . فهل يلزمنا إذن أن نؤول هذه النبوات تأويلاً روحياً مجازياً ، دون معناها

الحرفي ؟ هل تشير إلى ملكوت روحي فقط وعرش مجازي ؟ كلا ، لا يكفينا هذا التأويل البتة – كما سنرى – بل ليس هناك سوى تفسير واحد يتفق والحقائق ، وهو أن المسيح الذي أتى متواضعا وسيأتي ثانية مجيئا شخصيا في مجده . أما الأنبياء فإنهم رأوا صورتين متناقضتين :

رأوا مسيا متألما متواضعا يحمل خطايا الآخرين .

ورأوه أيضا ملكا منتصرا يملك على العالم كله .

ودونوا كلتا الصورتين بدقة وأمانة . وعبر بطرس عن هذه الحقيقة قائلا :

" الخلاص الذي فتش وبحث عنه أنبياء ... باحثين أي وقت أو ما الوقت الذي كان يدل عليه روح المسيح الذي فيهم ، إذ سبق فشهد بالآلام التي للمسيح والأمجاد التي بعدها "   (١ بطرس ١ : ١٠)

ماذا ، إذن ، كتب الأنبياء عن مجيء المسيح الثاني ؟

كتبوا نبوات عديدة جدا ، لدرجة لا يسعنا فيها إلا أن نلخص هذه النبوات تلخيصا موجزا ، ولسنا نريد الآن بحث تفصيلات منفردة ،بل بالحري نشير إلى بعض النبوات التي تنبئ عن الحقيقة الأساسية ، مجيء المسيح الثاني " ملكا وحاكما ".

- في نبوة "زكريا"وصف للمجيء الأول والمجيء الثاني في آنين متتابعين :

" ابتهجي جداً يا ابنة صهيون ، اهتفي يا بنت أورشليم . هوذا ملكك يأتي إليك هو ... وديع وراكب على حمار ، وعلى جحش ابن أتان (كما تم في مجيء المسيح الأول) واقطع المركبة من أفرايم .... ويتكلم بالسلام للأمم ، وسلطانه من البحر إلى البحر ومن النهر إلى اقاصي الأرض "
(زكريا٩ : ٩)

- فإذا تم الجزء الأول بحرفية النص في مجيء المسيح الأول ، أفلا ننتظر إتمام الجزء الثاني حرفيا أيضا في مجيئه الثاني ؟

- أما دانيال فقد وصف هذا المجيء بصراحة تامة ، قائلا :

" كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام ... فأعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة . سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول ، وملكوته ما لا ينقرض " (دانيال ٧ : ١٣)

ونجد هذه الصورة أيضاً ، صورة حكم المسيح العالمي وملكوته الأرضي – الذي لم يتم بعد – في أماكن أخرى كثيرة ، مثلاً (أشعياء ٩ : ٦) حيث نقرأ : أن " الولد " الذي " يولد " و " الابن " الذي " يعطى " – وهو الإله القدير – سيملك على كرسي داود إلى الأبد .

وفي (أرميا ٢٣ : ٥) : حيث نتعلم أن الله سوف يقيم لداود " **غصن بر** " وهو " الرب برنا " ، يملك وينجح و " **يجري حقاً وعدلاً في الأرض** " .

ويخبرنا زكريا أنه ، لما يأتي:

" تقف قدماه في ذلك اليوم على جبل الزيتون من وسطه ... ويكون الرب ملكاً على كل الأرض . في ذلك اليوم يكون الرب وحده واسمه وحده " (زكريا ١٤ : ٤ – ٩)

وفي سفر العدد نقرأ :

" أراه ولكن ليس الآن ، أبصره ولكن ليس قريباً ، يبرز كوكب من يعقوب ويقوم قضيب من إسرائيل فيحطم طرفي موآب ويهلك كل بني الوغي " (عدد ٢٤ : ١٧)

وإلى هذا المجيء المجيد يشير كل الأنبياء ، معبرين عنه " كيوم الرب " أو " ذلك اليوم " . ويكفينا مثل واحد من نبوة يوئيل :

" جماهير جماهير في وادي القضاء ، لأن يوم الرب قريب في وادي القضاء . الشمس والقمر يظلمان والنجوم يحجز لمعانها ، والرب من صهيون يزمجر ، ومن أورشليم يعطي صوته فترجف السماء والأرض " (يوئيل ٣ : ١٥ و ١٦)

وتشير رؤيا دانيال العظيمة إلى هذا المجيء أيضاً ، معبرة عنه كالحجر الذي قطع بغير يدين ، الذي ضرب التمثال على قدميه فسحقهما ، أما الحجر " **فصار جبلاً كبيراً وملأ الأرض كلها** " .

- **شهادة المسيح نفسه :**

ولسنا نرتكن في هذا الصدد على نبوات العهد القديم وحدها ، لأن المسيح نفسه تكلم عن مجيئه الثاني مراراً عديدة ، وتكلم عنه في كلمات وعبارات تتفق والنبوات القديمة إتفاقاً تاماً، قال يوماً :

" لأنه كما أن البرق يخرج من المشارق ويظهر إلى المغارب هكذا يكون أيضاً مجيء ابن الإنسان " (متى ٢٤ : ٢٧)
" وللوقت بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس ، والقمر لا يعطي ضوء والنجوم تسقط من السماء وقوات السماواتتتزعزع ، حينئذ تظهر علامة ابن الإنسان في السماء ، وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض ويبصرون ابن الإنسان آتياً على سحاب السماء بقوة ومجد كثير "
(متى ٢٤ : ٢٩ و ٣٠)

وقال يوما آخر :

" متى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة القديسين معه ، فحينئذ يجلس على كرسي مجده ، ويجتمع أمامه جميع الشعوب فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعي الخراف من الجداء " (متى ٢٥ : ٣١ و ٣٢)

ثم في محاكمة المسيح ، عندما قال له رئيس الكهنة :

" أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا : هل أنت المسيح ؟ " أجابه المسيح قائلاً :" أنت قلت ، وأيضاً أقول لكم من الآن تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً على سحاب السماء " (متى ٢٦ : ٦٤)

وكان هذا التصريح كافياً لإعدامه وصلبه .

أما هذه الإقتباسات فجميعها من بشارة متى ، ولكن مرقس أيضا يشهد هذه الشهادة بعينها . ويكفينا مثل واحد :

" اسهروا إذاً لأنكم لا تعلمون متى يأتي رب البيت ، أمساء أم نصف الليل أم صياح الديك أم صباحاً ، لئلا يأتي بغتة فيجدكم نياماً . وما أقوله لكم أقوله للجميع اسهروا" (مرقس ١٣ : ٣٥ و ٣٧)

ودون لوقا أيضا هذه الأقوال وما إليها .

- **شهادة الكنيسة الأولى :**

وتشهد الكنيسة الأولى أيضاً هذه الشهادة بالذات ، فيخبرنا لوقا في وصفه صعود المسيح إلى السماء أن ملاكين وقفا بالتلاميذ بلباس أبيض قائلين :

" أيها الرجال الجليليون ، ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء ، إن يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقاً غلى السماء " **(أعمال ١ : ١١)**

أي سيأتي بجسده المقام من الأموات .

أما بطرس ، فقد اقتبس في موعظته الأولى قول النبي القائل :

" قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك " **(أعمال ٢ : ٢٤)**

وفي موعظته الثانية قال :

" توبوا وارجعوا لتمحى خطاياكم ... ويرسل يسوع المسيح المبشر به لكم قبل ، الذي ينبغي أن السماء تقبله إلى أزمنة رد كل شئ ، التي تكلم عنها الله بفم جميع أنبيائه القديسين منذ الدهر " **(أعمال ٣ : ١٩)**

ونجد أيضاً هذا التعليم بعينه في الرسائل ، فكتب بولس :

" لأنكم أنتم تعلمون بالتحقيق أن يوم الرب كلص في الليل هكذا يجئ . لأنه حينما يقولون سلام وأمان حينئذ يفاجئهم هلاك بغتة كالمخاض للحبلى فلا ينجون " **(١ تسالونيكي ٥ : ٢ – ٤)**

وفي مكان آخر كتب عن :

" إستعلان الرب يسوع من السماء مع ملائكة قوته "
(٢ تسالونيكي ١ : ٧)

وكتب بطرس قائلاً :

" لا يتباطأ الرب عن وعده كما يحسب قوم التباطؤ ، لكنهيتانى علينا ، وهو لا يشاء أن يهلك أناس بل أن يقبل الجميع إلى التوبة . ولكن سيأتي

كلص في الليل يوم الرب ، الذي فيه تزول السماوات بضجيج ... وحترق الأرض والمصنوعات التي فيها " **(٢ بطرس ٣ : ٩)**

اما في سفر الرؤيا فهو مملؤ من مثل هذه النبوات وهذه العبارات .

❑ ضرورة المجيء الثاني ..

وليست النبوات الصريحة عن مجيء المسيح الثاني هي وحدها التي تؤكد لنا يقين هذا المجيء ، بل تشهد لضرورة مجيئه أيضاً نبوات عديدة أخرى ، ووعود مختلفة في شتى اجزاء الكتاب المقدس ، لا يتسنى إتمامها البتة دون هذا المجيء المجيد ، بل من غير مجيئه الثاني يلزمنا أن نحكم على هذه الوعود بملاشاتها وعلى هذه النبوات بفشلها ، وعلى الكتاب المقدس كله ببطلانه ، الذي لا يتفق والحقائق على الإطلاق .

▪ اليهود :

ومع أن كل الناس يعترفون بأن الكتاب المقدس كان في الأصل كتابا يهوديا ، إلا أنه قد يدهش البعض أن يدركوا مقدار الجزء الوفير الذي يتضمن معاملات الله الماضية والحاضرة والمستقبلة لشعبه المختار ، للأمة التي اختارها لكي يعلن ذاته بواسطتها للعالم أجمع . ويقوم اليهود شهادة حية ملموسة لصدق الكتاب المقدس ووحية – أمة مختارة من الله – قد استؤمنت على أقوال الله في الأسفار المقدسة :

" إياكم فقط عرفت من جميع قبائل الأرض " **(عاموس ٣ : ٢)**

ما أعظم إمتيازها ! بل حتى الآن ، وهم متروكون من الله ومشتتون إتماماً لنبوات كثيرة وتحذيرات عديدة ، لا يزالون بين كل الأمم أمة منفردة معتزلة متميزة ، كما قال النبي :

" هوذا شعب يسكن وحده ، وبين الشعوب لا يحسب " **(عدد ٢٣ : ٩)**

فلنبحث الآن بعض وعود الله الصريحة للأمة اليهودية ، وعود تكررت مرات كثيرة في الكتاب المقدس . فأولا ، نجد أن الله وعدهم ألا يتركهم نهائياً ، على الإطلاق . إذ نقرأ :

" هكذا قال الرب الجاعل الشمس للإضاءة نهاراً وفرائض القمر والنجوم للإضاءة ليلاً ... إن كانت هذه الفرائض تزول من أمامي يقول الرب ، فإن نسل إسرائيل أيضاً يكف من أن يكون أمة أمامي كل الأيام . هكذا قال الرب ، إن كانت السماوات تقاس من فوق وتفحص أساسات الأرض من أسفل ، فإني أنا أيضاً أرفض كل نسل إسرائيل من أجل كل ما عملوه ، يقول الرب"

(أرميا ٣١ : ٣٥ – ٣٧)

ولسنا نجد هذا الوعد المتكرر في أماكن أخرى وكفى ، بل نجد أيضاً مثل هذه الوعود المطلقة موجهة إلى داود الملك ، وعود تؤكد له أن عرشه لن يزول في النهاية .

" متى كملت أيامك واضجعت مع آبائك أقيم بعدك نسلك الذي يخرج من احشائك وأثبت مملكته ... أثبت كرسي مملكته إلى الأبد . إن تعوج أؤدبه بقضيب الناس وبضربات بني آدم ، ولكن رحمتي لا تنزع منه كما نزعتها من شاول .. ويأمن بيتك ومملكتك إلى الأبد "

(٢ صموئيل ٧ : ١٢ – ١٦)

وأيضاً :

" ها أيام تأتي يقول الرب وأقيم الكلمة الصالحة التي تكلمت بها إلى بيت إسرائيل وإلى بيت يهوذا . في تلك الأيام وفي ذلك الزمان أنبت غصن البر فيجري عدلاً وبراً في الأرض ... لأنه هكذا قال الرب ، لا ينقطع لداود إنسان يجلس على كرسي بيت إسرائيل ... هكذا قال الرب أن نقضتم عهدي مع النهار وعهدي مع الليل حتى لا يكون نهار ولا ليل في وقتهما ، فإن عهدي أيضاً مع داود عبدي ينقض ، فلا يكون له ابن مالكاً على كرسيه "

(أرميا ٣٣ : ١٤ –٢١)

أما إسرائيل فإنه خالف أوامر الرب وتمرد عليه مرة بعد مرة ، بل ارتد إرتداداً ، لذلك عاقبهم الله وسلمهم للسبي ، كما تنبأ الأنبياء ن منذرين إياهم مرات عديدة . قال موسى :

" إن قسم الرب هو شعبه يعقوب حبل نصيبه .... الرب وحده اقتاده وليس معه إله أجنبي ... فسمن يشرون (إسرائيل) ورفس ... فرفض الإله الي عمله وغي عن صخرة خلاصه ، أغاروه بالأجانب وأغاظوه بالأرجاس ، ذبحوا لأوثان ليست الله .. وقال (الله) أحجب وجهي عنهم .. إنهم جيل متقلب ، أولادهم لا أمانة فيهم ... أنه قد اشتعلت نار بغضبي ... إذ هم خاوون من جوع ومنهكون من حمى وداء سام ... من خارج ال يف يكل ومن داخل الخدور الرعبة ... قلت أبددهم إلى الزوايا "

(تثنية ٣٢ : ٩ – ٢٦)

" لأني لأفرايم كالأسد ولبيت يهودا كشبل أسد ، فإني أنا افترس وأمضي وآخذ ولا منقذ ، أذهب ولا أرجع إلى مكاني ، حتى يجازوا ويطلبوا وجهي"

(هوشع ٥ : ١٤ و ١٥)

" ويبددكم الرب في الشعوب " (تثنية ٤ : ٢٧)

هكذا إبتدأت أيام حكم الأمم " **والآن قد دفعت هذه الأراضي ليد نبوخذ نصر ملك بابل عبدي** " وهكذا ظهرت في التاريخ تلك السلسلة من الإمبراطوريات الأممية (Gentile) التي عبر عنها نبوات حلم نبوخذ نصر (دانيال ٢) ورؤيا دانيال (دانيال ٧) تعبيرا دقيقا واضحاً . فكان رأس التمثال الذهبي يشير إلى الإمبراطورية البابلية ، كما أن صدره الفضي ، مع ذراعيه ، كان يصور الإمبراطورية الفارسية (Medo-Persian) بقسميها . ثم كان بطنه النحاسي وفخذاه إشارة إلى الإمبراطورية اليونانية ، بينما ساقاه الحديديتان كانتا تصوران الإمبراطورية الرومانية الحديدية المنقسمة فيما بعد قسمين . أما قدماه اللتان بعضهما من حديد والبعض من خزف فإنهما تشيران إلى ما خلف الإمبراطورية الرومانية من ممالك بعضها قوي وبعضها ضعيف ، كما أن الأصابع العشرة تدل على الممالك العشر التي ستقوم مقام الإمبراطورية الرومانية في النهاية . فنتعلم من الحلم أن تاريخ الحكم الأممي سيستمر إلى أن يظهر الحجر الذي قطع بغير يدين (المسيح نفسه " **الحجر الذي رفضه البناءون** ") ويحطم الحكم الأممي تحطيماً نهائياً في مجيئه الثاني ، ويملك هو نفسه على ممالك الأرض .

وفي أثناء أيام حكم الأمم (لأننا الآن نحيا بعد في أزمنة الأمم ، وفي الغالب على وشك الإنتهاء) يضطهد الأمم اليهود أشد الإضطهاد ، ويعاملونهم اقسى معاملة . فتنبأ الأنبياء عن هذه النبوات بحوادث معيبة متتابعة ، ولاسيما في أيامنا الحاضرة ، التي رأينا فيها رجوع قوم من الناس إلى عادات العصور الوسطى السوداء . قال موسى :

> **" ويبددك الرب في جميع الشعوب من أقصاء الأرض إلى أقصائها وتعبد هناك آلهة أخرى ... وفي تلك الأمم لا تطمئن ولا يكون قرار لقدمك ، بل يعطيك الرب هناك قلباً مرتجفاً وكلال العينين وذبول النفس ، وتكون حياتك معلقة قدامك ، وترتعب ليلاً ونهاراً ، ولا تأمن على حياتك ، في الصباح تقول يا ليته المساء وفي المساء تقول يا ليته الصباح ، من إرتعاب قلبك الذي ترتعب ومن منظر عينيك الذي تنظر "** (تثنية ٢٨ : ٦٣ ــ ٦٨)

وقد يخيل إلينا أن هذه الكلمات قيلت في ألمانيا هتلر ، لا في برية سيناء قبل الآن بآلاف السنين ، لأن هتلر وهو لا يدري ، يكمل في الماضي القريب ، ما قيل على أفواه الأنبياء :

> **"فهوذا أعداؤك يعجون زمبغضوك قد رفعوا الراس على شعبك مكروا مؤآمرة وتشاوروا على أحميائك . قالوا هلم نبيدهم من بين الشعوب "**
> (مزمور ٨٣ : ٢ ــ ٤)

وقال أرميا أيضاً :

" **لأنه هكذا قال الرب : صوت ارتعاد سمعنا ، خوف ولا سلام ، اسألوا وانظروا إن كان ذكر يضع . لماذا أرى كل رجل يداه على حقويه كماخض وتحول وجه إلى صفره ؟ آه ، لأن ذلك اليوم عظيم وليس مثله ، وهو وقت ضيق على يعقوب ولكنه سيخلص منه "** (أرميا ٣٠ : ٥ – ٧)

أما هذه الكلمات فإنها تشير إلى ضيق إسرائيل المروع الأخير الذي صوره المسيح نفسه تصويراً حياً حساساً في متى ٢٤ ، ومرقس ١٣ ، ولوقا ٢١ . قال المسيح :

" **لأنه حينئذ يكون ضيق عظيم لم يكن مثله منذ إبتداء العالم إلى الآن ، ولن يكون . ولو لم تقصر تلك الأيام لم يخلص جسد ، ولكن لأجل المختارين تقصر تلك الأيام "** (متى ٢٤ : ٢١ و ٢٢)

أما النهاية فهي مجيدة حقاً ، إذ قال المسيح :

" **حينئذ تظهر علامة ابن الإنسان في السماء ، وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض ويبصرون ابن الإنسان آتياً على سحاب السماء بقوة ومجد كثير . فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت فيجمعون مختاريه من الأربع الرياح من أقصاء السموات إلى أقصائها "** (متى ٢٤ : ٣٠ و ٣١)

وفي ذلك اليوم وحده ، ستتم وعود الله القديمة الراسخة للأمة اليهودية ، وعود لن تتغير ولكنها وعود لا يمكن إتمامها بأية كيفية أخرى . قال الله :

" **يرد الرب إلهك سبيك ويرحمك ، ويعود فيجمعك من الشعوب الذين بددك إليهم الرب إلهك ... ويأتي بك الرب إلهك إلى الأرض التي امتلكها آباؤك فتمتلكها ... ويختن الرب إلهك قلبك وقلب نسلك لكي تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك "** (تثنية ٣٠ : ٣ – ٦)

وقال أيضاً بفم أشعياء :

" **ويكون في ذلك اليوم أن السيد الرب يعيد يده ثانية ليقتني بقية شعبه التي بقيت ... ويجمع منفي إسرائيل ويضم مشتتي يهوذا من أربعة أطراف الأرض "** (أشعياء ١١ : ١١ – ١٢)

وفي مكان آخر قال :

" وبنو الذين قهروك يسيرون إليك خاضعين وكل الذين أهانوك يسجدون لدى باطن قدميك ، ويدعونك مدينة الرب ، صهيون قدوس إسرائيل .. ولا يسمع بعد ظلم في أرضك ولا خراب أو سحق في تخومك بل تسمين أسوارك خلاصاً وأبوابك تسبيحاً ... وشعبك كلهم ابرار . إلى الأبد يرثون الأرض " (أشعياء ٦ : ١٤ ـ ٢١)

ثم قال على فم حزقيال :

" هكذا قال السيد الرب : ها أنذا آخذ بني إسرائيل من بين الأمم ... وأجمعهم من كل ناحية وآتي بهم إلى ارضهم ، وأصيرهم أمة واحدة في الأرض على جبال إسرائيل وملك واحد يكون ملكاً عليهم كلهم ، ولا يكونون بعد أمتين ولا ينقسمون بعد إلى مملكتين . ولا يتنجسون بعد بأصنامهم ولا برجاساتهم ولا بشئ من معاصيهم بل أخلصهم من كل مساكنهم التي فيها اخطأوا وأطهرهم ... وداود عبدي يكون ملكاً عليهم ويكون لجميعهم راع واحد ... ويسكنون في الأرض التي أعطيت عبدي يعقوب غياها " (حزقيال ٣٧ : ٢١ ـ ٢٥)

لنسال أنفسنا إذن ، كيف يا ترى ستتم هذه النبوات المجيدة إلا برجوع هذا الشخص الفريد الذي رفضه اليهود في الماضي والذي سيقبلونه في مجيئه الثاني كمسيحهم ، والذي سيملك عليهم ، على " كرسي داود أبيه " (لوقا ١ : ٣٢) ، "ويرد الفجور عن يعقوب " (رومية ١١ : ٢٦) . إن وعود الله لليهود تحتم مجيء المسيح الثاني في مجده ، ولن تتم عن طريق آخر " لأن هبات الله ودعوته هي بلا ندامة " (رومية ١١ : ٢٩) .إلا أننا يجب أن نلاحظ بأن هذا الرجوع اليهودي هو رجوع إلى أرض بعينها ، بل هو رجوع حالة إلى الله ، وهو ما تبينه ، بل تشدد عليه جميع النبوات في العهد القديم ، وهو أيضاً ما اثبته العهد الجديد !!.. " يرد الفجور عن يعقوب" (وهو الاسم القديم لإسرائيل) وهو يرمز إلى حالته قبل الوعد الذي تغير معه اسمه .

- **ملك المسيح الشامل :**

وكيف ستتم أيضاً النبوات الصريحة الواردة في الكتاب المقدس عن ملك المسيح الذي يسود كل العالم ، إلا بمجيئه الثاني بقوته ومجده ؟ أما هذه النبوات فهي عديدة واضحة . فقبل تجسد المسيح قال الملك لمريم العذراء :

" هذا يكون عظيماً وابن العلي يدعى ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه ، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ، ولا يكون لملكه نهاية "
(لوقا ١ : ٣٢)

وتشهد نبوات العهد القديم أيضاً هذه الشهادة بعينها :

" اسألني فاعطيك الأمم ميراثاً لك وأقاصي الأرض ملكاً لك "
(مزمور ٢ : ٨)

" ويملك من البحر إلى البحر ، ومن النهر إلى أقاصي الأرض . أمامه تجثو أهل البرية وأعداؤه يلحسون التراب ... ويسجد له كل الملوك . كل الأمم تتعبد له " (مزمور ٧٢ : ٨ – ١١)

" فيقضي بين الأمم وينصف لشعوب كثيرين فيطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل " (أشعياء ٢ : ٤)

" أقيم لداود غصن بر فيملك ملك وينجح ويجري حقاً وعدلاً في الأرض ... وهذا اسمه الذي يدعونه به الرب برنا " (أرميا ٢٣ : ٥ و ٦)

أما العهد الجديد فلا يقل صراحة ووضوحاً ، فكتب بولس قائلاً :

" لذلك رفعه الله أيضاً وأعطاه اسماً فوق كل اسم ، لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض ، ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الآب "
(فيلبي ٢ : ٩ – ١١)

وكتب يوحنا أيضاً :

" ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض والجالس عليه يدعى أميناً وصادقاً وبالعدل يحكم ويحارب ، وعيناه كلهيب نار وعلى رأسه تيجان كثيرة ... وهو متسربل بثوب مغموس بدم ويدعى اسمه كلمة الله ... ومن فمه يخرج سيف ماض لكي يضرب به الأمم ، وهو سيرعاهم بعصا من حديد ، وهو يدوس معصرة خمر سخط وغضب الله ... وله على ثوبه وعلى فخذه اسم مكتوب ، ملك الملوك ورب الأرباب "
(رؤيا يوحنا ١٩ : ١١ – ١٦)

ويزعم بعضهم أن قصد الله للعالم هو أن الكنيسة تستمر في شهادتها وخدمتها إلى أن تمتلئ الأرض " من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر " ، أو بعبارة أخرى أن الكنيسة

ستربح كل العالم وتقيم ملكوت الله بين الناس . أما هذا الزعم فلا يخالف الوحي الإلهي كل المخالفة فحسب ، لكنه يناقض أيضاً شهادة العقل السليم . لأن الكنيسة قد شهدت الآن ومنذ ألفين من السنين ولكنها لم تظفر بنتيجة تؤدي بنا إلى أن نستنتج أنها سوف تربح العالم بأسره بعد قليل أو كثير . بل على العكس من ذلك ، قد رأينا في السنين والشهور الماضية تأخيراً خطيراً لتقدم الكنيسة ، ولو كان علينا أن نتوقع نصرة الكنيسة التدريجية لوقعنا إلى هوة اليأس . ولكن لا حاجة لنا البتة إلى أن نتوقع مثل هذا الأمر . بل يخبرنا الكتاب المقدس بالأحرى أنه في زمن ظلمة وقتام ، وشقاء وخبث ، وظلام وحيرة ، سينفجر فجأة يوم الرب المنتظر ويأتي في مجده من له حق الملك وحق القضاء والحكم .

" وفي أيام هؤلاء الملوك يقيم إله السموات مملكة لن تنقرض أبداً وملكها لا يترك لشعب آخر ، وتسحق وتفنى كل هذه الممالك ، وهي تثبت إلى الأبد" (دانيال ٢ : ٤٤)

" وإذا مع سحب السماء مثل ابن الإنسان أتى ... فأعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبد له كل الشعوب والألسنة . سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول ، وملكوته ما لا ينقرض " (دانيال ٧ : ١٣ و ١٤)

سيأتي لدينونة الأشرار وغير المؤمنين ، والذين يضطهدون المسيحيين كما قال :

" إذ هو عادل عند الله أن الذين يضايقونكم يجازيهم ضيقاً ، وإياكم الذين تتضايقون راحة معنا عند إستعلان الرب يسوع من السماء مع ملائكة قوته . في نار لهيب معطياً نقمة للذين لا يعرفون الله والذين لا يطيعون إنجيل ربنا يسوع المسيح ، الذين سيعاقبون بهلاك أبدي من وجه الرب ومن مجد قوته . متى جاء ليتمجد في قديسيه ويتعجب منه في جميع المؤمنين "

(٢ تسالونيكي ١ : ٦ ــ ١٠)

سيكون هذا يوماً مروعاً جداً ، كما وصفه يوحنا قائلاً :

" وملوك الأرض والعظماء والأغنياء والأمراء والأقوياء وكل عبد وكل حر أخفوا أنفسهم في المغاير وفي صخور الجبال ، وهم يقولون للجبال والصخور اسقطي علينا وأخفينا عن وجه الجالس على العرش وعن غضب الخروف ، لأنه قد جاء يوم غضبه العظيم ، ومن يستطيع الوقوف؟" (رؤيا يوحنا ٦ : ١٥ ــ ١٩)

ولكنه يأتي مخلصاً ومنقذاً لشعبه الذي سيقبله كمسيحه ، فتتجدد الأمة اليهودية كلها ،

كما قال الرب على فم زكريا :

" وأفيض على بيت داود وعلى سكان أورشليم روح النعمة والتضرعات ، فينظرون إلى الذي طعنوه " **(زكريا ١٢ : ١٠)**

وكما قال بولس بالوحي :

" فإني لست أريد أيها الأخوة أن تجهلوا هذا السر .... أن القساوة قد حصلت جزئياً لإسرائيل إلى أن يدخل ملؤ الأمم . وهكذا سيخلص جميع إسرائيل ، كما هو مكتوب ، سيخرج من صهيون المنقذ ويرد الفجور عن يعقوب " **(رومية ١١ : ٢٥ و ٢٦)**

في ذلك اليوم سيقيم المسيح حكم الله على الأرض ، وحينئذ – وحينئذ فقط – ستتم وعود الله القديمة ، بأنه يأتي عصر ملؤه السلام والقداسة ، بل كيف يا ترى ستتم هذه النبوات في هذا العالم المضطرب دون رجوع رئيس السلام بقوته السماوية ؟ وقد تنبأ الأنبياء عن هذا العصر المجيد قائلين :

" الرحمة والحق التقيا ، البر والسلام تلاثما ، الحق من الأرض ينبت والبر من السماء يطلع " **(مزمور ٨٥ : ١٠ و ١١)**

" وتسير شعوب كثيرة ويقولون هلم نصعد إلى جبل الرب ... فيعلمنا من طرقه ونسلك في سبله ، لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب ، فيقضي بين الأمم وينصف لشعوب كثيرة .. لا ترفع أمة على أمة سيفاً ولا يتعلمون الحرب فيما بعد " **(أشعياء ٢ : ٣ و ٤)**

أما هذا السلام فسيشمل الطبيعة كلها ، إذ نقرأ :

" ويخرج قضيب من جذع يسى وينبت غصن من أصوله ... ويكون البر منطقة متنيه والأمانة منطقة حقويه ، فيسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدي والعجل والشبل والمسمن معاً ، وصبي صغير يسوقها . البقرة والدبة ترعيان ، تربض أولادهما معاً ، والأسد كالبقر يأكل تبناً ... لا يسوؤن ولا يفسدون في كل جبل قدسي ، لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر " **(أشعياء ١١ : ١و٥)**

أما هذا العصر الذهبي فلن يأتي تدريجياً بواسطة خدمة الكنيسة وشهادتها ، بل على النقيض من ذلك أخبرنا أنه :

" في الأيام الأخيرة ستأتي أزمنة صعبة ، لأن الناس يكونون محبين لأنفسهم ، محبين للمال ، متعظمين ، مستكبرين ، مجدفين ، غير طائعين لوالديهم ، غير شاكرين ، دنسين .... خائنين ، مقتحمين ، متصلفين ، محبين للذات ... ولكن الناس الأشرار المزورين سيتقدمون إلى أردأ ، مضلين ومضلين " (٢ تيموثاوس ٣ : ١ ــ ٥ و ١٣)

وفي الواقع سيأتي الرب فجأة في وسط الضيق والفوضى ، كما صرح المسيح نفسه قائلاً :

" وكما كانت أيام نوح كذلك يكون أيضاً مجيء ابن الإنسان ، لأنه كما في الأيام التي قبل الطوفان يأكلون ويشربون ويتزوجون ويزوجون إلى اليوم الذي دخل فيه نوح الفلك . ولم يعلموا حتى جاء الطوفان وأخذ الجميع ، كذلك يكون أيضاً مجيء ابن الإنسان . اسهروا إذاً لأنكم لا تعلمون في أية ساعة يأتي ربكم " (متى ٢٤ : ٣٧)

بل سيأتي الرب ، بلا شك ، ويرجع بالذات في جسده المقام من الأموات ، كما إنطلق إلى السماء أيضاً ، ثم يراه الجميع ويبتدئ حكم السماء على الأرض ، ومع أن المسيح قد لا يبقى بالذات على الأرض على الدوام ، إلا أنه بلا شك سيقيم حكم الله من أورشليم ، كما تنبأ عنه الأنبياء .

❑ علامات المجيء الثاني :

من ثم نرى أن الكتاب المقدس كله ــ من أوله إلي آخره ــ يخبرنا عن يقين بمجيء المسيح الثاني مجيئاً شخصياً منتصراً، ليحكم ويعاقب، لينقذ ويملك، وليرتب هذا العالم الشقي المضطرب. أما هذا المجيء المتنبأ عنه أفلا يجوز أن يكون في المستقبل البعيد- بعد آلاف السنين؟ لسنا نظن ... بل علي عكس ذلك يظهر لنا من العلامات الموجودة أن هذا المجيء سيكون عن قريب ــ بل أنه في الغالب علي الأبواب. ولا مجال لنا هنا إلا إلي أن نشير بغاية الاختصار إلي بعض الحجج التي تؤدي بنا إلي هذا الاستنتاج. فلنبحث إذن بعض العلامات المذكورة في الكتاب المقدس التي تدل علي قرب المجيء ــ لكي نري إذا ما كانت توافق وقتنا الحاضر أم لا.

ولنعترف أولاً أنه من المحال علي أحد أن يحدد وقتاً معيناً لهذا المجيء أو ان يعين تاريخاً خاصاً ، إذ قال المسيح نفسه :

" وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا ملائكة السموات إلا أبي وحده " **(متي ٢٤ : ٣٦)**

ولكنه من الجائز - بل من الواجب علي المؤمنين - أن يتبينوا اقتراب الوقت - كما كتب بولس:

" وأما انتم ايها الإخوة فلستم في الظلمة حتى يدرككم ذلك اليوم كلص " **(١ تسالونيكي ٥ : ٥)**

وكما قال السيد المسيح نفسه:

" ومتى ابتدأت هذه تكون فانتصبوا وارفعوا رؤوسكم لأن نجاتكم تقترب " **(لوقا ٢١ : ٢)**

(١) اتساع المعرفة ودرس كتب النبوة :

اما هذه العلامة لاقتراب المجيء فقد أوحي بها إلي دانيال :

" أما أنت يا دانيال فاخف الكلام واختم السفر إلي وقت النهاية. كثيرون يتصفحونه والمعرفة تزداد " **(دانيال ١٢ : ٤)**

اما إتساع المعرفة والثقافة فهو من خصائص عصرنا الحاضر - لأن الثقافة والعلم ليسا الآن مقتصرين علي خاصة الناس، بل قد وصل التعليم الإجباري إلي عامة القوم. ثم إن الطبع والأفلام والجرائد والراديو وما إلي ذلك قد أتت بالتعليم والعلم إلي كافة الشعوب.

بل تقول الآية أيضاً " **كثيرون يتصفحونه** " أي يتصفحونه سفر دانيال ونبوات الأنبياء. ولا شك في أن درس النبوة قد إتسع إتساعاً عظيماً في هذه الأيام الحالية، حتى إن الكتب المؤلفة في هذا الموضوع قد إزدادت كثيراً.

(٢) ارتداد روحي وكثرة التعليم المزيف :

اوحي إلي بولس :

" لا يخدعنكم أحد علي طريقة ما، لأنه لا يأتي (المسيح) إن لم يأت الارتداد أولاً، ويستعلن إنسان الخطية ابن الهلاك "
(٢ تسالونيكي ٢ : ٣٢)

أما هذا الإرتداد فإنه يتضمن ظهور أناس يدعون بأنهم هم المسيح ويتطلبون الولاء

والسجود اللذين هما حق واجب للمسيح وحده (متي ٢٤ : ٥ و ١١ و ٢٣ ولوقا ٢١ : ٨)، كما يتضمن إضطهاد المسيحيين واليهود (متي ٢٤ : ٩ ولوقا ٢١ : ١٢)، والخيانة والبغض (متي ٢٤ : ١٠ ولوقا ٢١ : ١٦) وكون محبة الكثيرين تبرد (متي ٢٤ : ١٢). بل زد علي هذا كله إنتشار مناجاة الأرواح .. كما كتب بولس قائلاً :

" ولكن الروح يقول صريحاً انه في الأزمنة الأخيرة يرتد قوم عن الإيمان ـ تابعين أرواحاً مضلة وتعاليم شياطين "   (١ تيسالونيكي ٤ : ١)

أما هذه الإشارات والنبوات، فقد رأينا إتمام الكثير منها في وقتنا الحاضر. لأن الآراء العصرية قد تغلغلت في ربوات الكنائس فسلبتها قوتها الروحية وحرارة محبتها. ثم إن مذهب مناجاة الأرواح (Spiritism) والعلم المسيحي (Christian Science) و "المذهب الصوفاني " القائل بتناسخ الأرواح (Thelosophy) وما إليها من مذاهب تناقض حق الإنجيل، فقد تكاثرت الآن وإزدادت، بل يتداخل في هذه الأيام بعض المذاهب السياسية الحديثة في أمور الدين : فالشيوعية مثلاً تنكر وجود الله ـ بل تبالغ في إنكارها وفي مقاومتها للمؤمنين ـ كما أن النازية تتطلب للحكومة تلك الطاعة المطلقة التي يستحقها المسيح وحده، وهكذا يتفق بعض المذاهب الدينية المزيفة، وبعض المذاهب السياسية الحديثة علي إقامة أناس أو هيئات في مقام السيد المسيح.

(٣) الفوضى الدولية :

أما مستندنا في هذه العلامة ـ كما في كثير من العلامات الأخرى ـ فهو إلي المسيح نفسه. فكان المسيح يذكر حروباً وأخبار حروب، وقيام أمة علي أمة، ومملكة علي مملكة، علامة للأيام الأخيرة ـ كما أنه أشار أيضاً إلي ضيق واضطرابات، وإلي مجاعات وأوبئة، وزلازل في أماكن (متي ٢٤ : ٦ و ٧ و مرقس ١٣ : ٨).

ونظن أن بعض هذه العلامات ـ علي الأقل ـ قد تمت في الأيام الحاضرة. فقد كانت حروب بالطبع في العصور الماضية، ولكن متي شهد التاريخ أخباراً وإشاعات حربية تحاكي تلك التي نقرأها ونسمعها الآن يوماً بعد يوم؟ فمتي كانت الدول مرتبطة بعضها ببعض في أزمة إقتصادية يسبب عدم الثقة بينها، بل قوة الغض ـ كما نراها في هذه الأيام؟ ثم نلاحظ أن العصر الحالي قد شهد أيضاً أوبئة ـ كالإنفلونزا بأنواعها العجيبة ، أو الإيدز وغيره.. ـ تفشت في العالم كله علي وجه التقريب ، مع زلازل ومجاعات مختلفة فظيعة ، قد أخرب بعضها مدناً وقري. ولا شك في أن الناس قد إبتدأوا " يغشى عليهم من الخوف وإنتظار ما يأتي علي المسكونة " ...

(٤) الدكتاتوريون :

نلاحظ أيضاً أن كثيراً من النبوات التي تشير إلي الأيام الأخيرة تذكر ضمناً بعض الأشخاص البارزين – مثل " إنسان الخطية " " ابن الهلاك " الموصوف في ٢ تسالونيكي ٢ ودانيال ١١ ورؤيا ١٣ – و " ملك الجنوب " المذكور في دانيال ١١ ، و "النبي الكذاب" المشار إليه في سفر الرؤيا ، بل تدل هذه النبوات علي أن هؤلاء الزعماء سيسودون جزءاً كبيراً من المسكونة ويستبدون به. أما هذه الحقيقة فربما تكون قد اعتبرت – في السنين الماضية حيث كادت الأراء الديمقراطية تسيطر علي عقول المفكرين وقلوب الجماهير – ضرباً من الخيالات السخيفة ، مع إننا نراها الآن تكاد تكون حادثاً واقعاً. فلسنا نقول أن الدكتاتوريين الموجودين هم الأشخاص الموصوفين بالذات – مع أن ذلك من المحتمل – غير اننا نعتقد علي الأقل أنهم يمهدون الطريق لإتمام النبوات. بل زد علي ذلك أن المخترعات الحديثة – من الطائرات والكمبيوتر ، وشبكات الإنترنت.. وما إلي ذلك – قد جعلت الدول المختلفة وحدة محسوسة – وحدة لم يتصورها أحد في السنين الماضية ، مما يهيئ العالم أيضاً لوقوع الحوادث المتنبأ عنها.

(٥) الكرازة في كل المسكونة :

قال المسيح :

" ويكرز ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة شهادة لجميع الأمم. ثم يأتي المنتهي " **(متى ٢٤ : ١٤)**

ومما يجدر بنا أن نلاحظه في هذا الصدد أن المسيح لم يقل شيئاً عن قبول الأمم هذه البشارة أو رفضها إياها ، بل قصر قوله علي الكرازة بينها شهادة لها. ولكن الكنيسة المسيحية أهملت – علي العموم – أمر سيدها الصريح ووصيته الأخيرة منذ القرن الثاني إلي ما قبل الآن بقرن ونصف قرن فقط. أما الآن فقد تغلغل الكارزون بالبشارة في السواد الأعظم من بلاد المسكونة ، وربما قد تطرقت البشارة إلي العالم أجمع عن طريق المطبوعات ، وكذا المنشورات الأليكترونية ، والسمعية والبصرية . بل في زمن قريب جداً قد وصلت هذه البشارة إلي بلاد كانت مغلقة من قبل.

(٦) حالة الأمة اليهودية :

تحت هذا العنوان نقصد نقطتين متميزتين، لكل منهما أهمية عظيمة وقيمة كبيرة. فأولا،

قد رأينا سابقا أن النبوات تدل بلا شك على ضيق عظيم وإضطهاد قاس يصيبان الأمة اليهودية في الأيام الأخيرة قبل مجئ المسيح الثاني في مجده ، ولم يتنبأ عن هذا الضيق أنبياء العهد القديم فحسب، بل تكلم عنه أيضاً يسوع المسيح نفسه فمع أن هذا الإضطهاد لم يبلغ أشده بعد - إلا أننا نشهد بوادره تتم الآن . وثانياً، يشير الأنبياء أيضاً إلي رجوع اليهود إلي فلسطين ، فترجع في الأول " بقية " فقط في الكفر والفجور، ثم يجمع الرب الأمة كلها بعد مجيئه. أما البقية فقد إبتدأت ترجع الآن ، وهي مازالت في محاولة لإمتداد رجوعها .

- رجسة الخراب :

قال السيد المسيح " **فمتى نظرتم رجسة الخراب التي قال عنها دانيال النبي قائمة في المكان المقدس .....** " وأشار إلي أن وقوع هذه الحادثة علامة للإضطهاد الأخير الذي يحصل قبل المجيء مباشرة. ونقرأ عن هذه العلامة في دانيال ص ١١ و ١٢، وفي متي ص ٢٤، ومرقس ١٣. ولما كنا لا نريد هنا أن نبحث في تفصيلات هذه العلامة، لذلك يكفينا الأن أن نقول أنها تشير إلي أمر فظيع يرتكبه " إنسان الخطية " في المكان المقدس (الهيكل) ، حيث يتطلب من اليهود السجود الذي يستحقه الله وحده.

- خوارق فلكية :

قال السيد المسيح :" بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس والقمر لا يعطي ضوءه والنجوم تسقط من السماء وقوات السموات تتزعزع " (متي ٢٤ : ٢٩) ، وأشار الأنبياء في العهد القديم إلي هذه العلامات عينها ، بل نجد وصفها أيضاً في سفر الرؤيا والإصحاح ٦. أما هذه الخوارق فهي آخر علامة - إذ قال السيد المسيح " قوات السموات تتزعزع. وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان في السماء " (متي ٢٤ : ٣٠) ، وستزول العلامات كلها أمام الحقيقة الواقعة.

زد علي هذه العلامات الكتابية إعتباراً آخر - أن الساسة في كل العالم في الوقت الحالي متحيرون مضطربون - لا يتجاسر أحدهم أن يتنبأ عن المستقبل بشئ من اليقين أو الطمأنينة. بل علي نقيض ذلك يذهب بعضهم إلي أنه لا مفر من حدوث حرب عالمية - حرب لا تخرب كل الدول وكفي، بل قد تلاشي الحضارة الحديثة بأسرها. ماذا إذن ننتظر وإلي أين ننظر؟ ننتظر مجئ المسيح الثاني في مجده وقوته وإليه ترنو أبصارنا !

أ. رجاء المؤمن

قد بحثنا في مجئ المسيح في مجده ، في ضرورته ويقينيته وعلاماته وما إلي ذلك ، ولكننا إلي الآن لم نذكر البتة رجاء المؤمن الخاص. فقد أشرنا ضمناً إلي أن المسيح في مجيئه لن يأتي وحده، ولا في صحبة الملائكة فحسب، بل سيأتي " **في ربوات قديسيه** " (يهوذا ١٤) ؟، " **لكي يتمجد في قديسيه ويتعجب منه في جميع المؤمنين** " (٢ تسالونيكي ١ : ١٠). فمن هم هؤلاء المؤمنون؟ أهم المؤمنون الراقدون؟ حقاً ، ولكن ليس الراقدين وحدهم. لأن العهد الجديد يعلن قصد الله المجيد للمؤمنين الراقدين والأحياء معاً في هذه الأيام الأخيرة ــ قصداً لم يعلن لأنبياء العهد القديم لأنه سر الكنيسة ــ ألا وهو أن المسيح سيختطف المؤمنين لنفسه في السحب قبل مجيئه في المجد ، لملاقاة الرب في الهواء ثم سيأتي بهم إلي الأرض في قوته. أما الإشارات التي تدل علي هذه الحقيقة المجيدة فهي واضحة صريحة ، كما يأتي :

" فإننا نقول لكم هذا بكلمة الرب أننا نحن الأحياء الباقين إلي مجئ الرب لا نسبق الراقدين. لأن الرب نفسه بهتاف بصوت رئيس ملائكة وبوق الله سوف ينزل من السماء والأموات في المسيح سيقومون أولاً. ثم نحن الأحياء الباقين سنخطف جميعاً معهم في السحب لملاقاة الرب في الهواء. هكذا نكون كل حين مع الرب. لذلك عزوا بعضكم بعضاً بهذا الكلام "
(١ تسالونيكي ٤ : ١٥ ــ ١٨)

وأيضاً :

" هوذا سر أقوله لكم. لا نرقد كلنا ولكننا كلنا نتغير. في لحظة في طرفة عين عند البوق الأخير. فإنه سيبوق فيقام الأموات عديمي فساد ونحن الأحياء نتغير " (١ كورنثوس ١٥ : ٥١ و ٥٢)

وأيضاً :

" فإن سيرتنا نحن هي في السموات، التي منها أيضاً ننتظر مخلصاً هو الرب يسوع المسيح. الذي سيغير شكل جسد تواضعنا ليكون علي صورة جسد مجده، بحسب عمل استطاعته أن يخضع لنفسه كل شئ "
(فيلبي ٣ : ٢٠ و ٢١)

ونجد إشارات إلي هذا اليوم المجيد في شتي الأماكن ، مثل قوله :

" ثم نسألكم أيها الاخوة من جهة مجئ ربنا يسوع المسيح واجتماعنا إليه" (٢ تسالونيكي ٢ : ١)

ومثل ما كتب يوحنا قائلاً :

" نعلم أنه إذا أظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو "   (١ يوحنا ٣ : ٢)

أما هذه الحقيقة المجيدة – التي تسمى الاختطاف – فهي رجاء الكنيسة. لن يأتي المسيح للمؤمنين بالحكم والدينونة بل يأتي لهم كالعريس لعروسه، كله محبة وفرح. لأن الكنيسة الآن هي خطيبة المسيح وتنتظر عرسها عند ما تخطف إليه في السحب لكي تكون كل حين معه في مجده. ما أمجد هذا اليوم! ما أبهج هذا الفرح!

في ذلك اليوم سيقف المؤمنون أمام كرسي المسيح. فلن يأتي المؤمن الحقيقي إلي الدينونة أبداً ، لأنه الآن وارث الحياة الأبدية ، ولكنه سيقف أمام كرسي المسيح لكي يجازيه المسيح بحسب أعماله وأمانته في خدمة الرب. لأن الحياة الأبدية هي هبة مجانية – كلها نعمة. وأما الثواب فهو جزاء الأمانة في الحياة – كما نقرأ :

" لأنه لابد أننا جميعاً نظهر أمام كرسي المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيراً كان أم شراً "   (٢ كورنثوس ٥ : ٩)
"فعمل كل واحد سيصير ظاهراً، لأن اليوم سيبينه. لأنه بنار يستعلن وستمتحن النار عمل كل واحد ما هو "   (١ كورنثوس ٣ : ١٣)
" وأما أنت فلماذا تدين أخاك؟ وأنت أيضاً لماذا تزدري بأخيك؟ لأننا جميعاً سوف نقف أمام كرسي المسيح "   (رومية ٤ : ١٠)

وختم المسيح نفسه أيضاً الأمثال التي عبر بها عن مجيئه بأن قال:

" وبعد زمان طويل أتي سيد أولئك العبيد وحاسبهم "   (متي ٢٥ : ١٩)

نرى إذاً أن العهد الجديد يعلمنا بوضوح تام أن السيد المسيح سيأتي بغتة ويجمع الكنيسة – من أحياء وراقدين – إلي نفسه في الهواء. فيتغيرون في لحظة ، في طرفة عين ، إلي شكل جسده هو الممجد. ثم يرجعون معه ومع الملائكة في قوته السماوية ومجده الأزلي عندما يأتي ظافراً ومنتصراً لكي يدين العالم وينقذ شعبه إسرائيل.

ولكن متي ، يا ترى ، يحدث هذا الحادث المجيد؟ لسنا ندري علي الإطلاق ؛ بل قد يختطفنا المسيح لنفسه في آية لحظة ، نهاراً أو ليلاً، صباحاً أو مساءاً. فقد رأينا أن الكتاب المقدس يعلمنا عن علامات معينة تظهر قبل مجئ المسيح في مجده ، علامات قد ظهرت معظمها، مع أن البعض لم يحدث بعد. أما الإختطاف فلسنا ندري له علامة لم تظهر أو مانعاً يحول بيننا وبين حدوثه في هذا اليوم بالذات. بل علينا أن نناجي أنفسنا كل صباح :

"قد يأخذنا المسيح اليوم " ، وأن نعيش في نور هذا الرجاء.

" حينئذ يكون اثنان في الحقل. يؤخذ الواحد ويترك الآخر. اثنتان تطحنان علي الرحى. تؤخذ الواحدة وتترك الأخرى. اسهروا إذاً لأنكم لا تعلمون في أية ساعة يأتي ربكم "

تطبيق هذه الحقائق على حياتنا الشخصية.

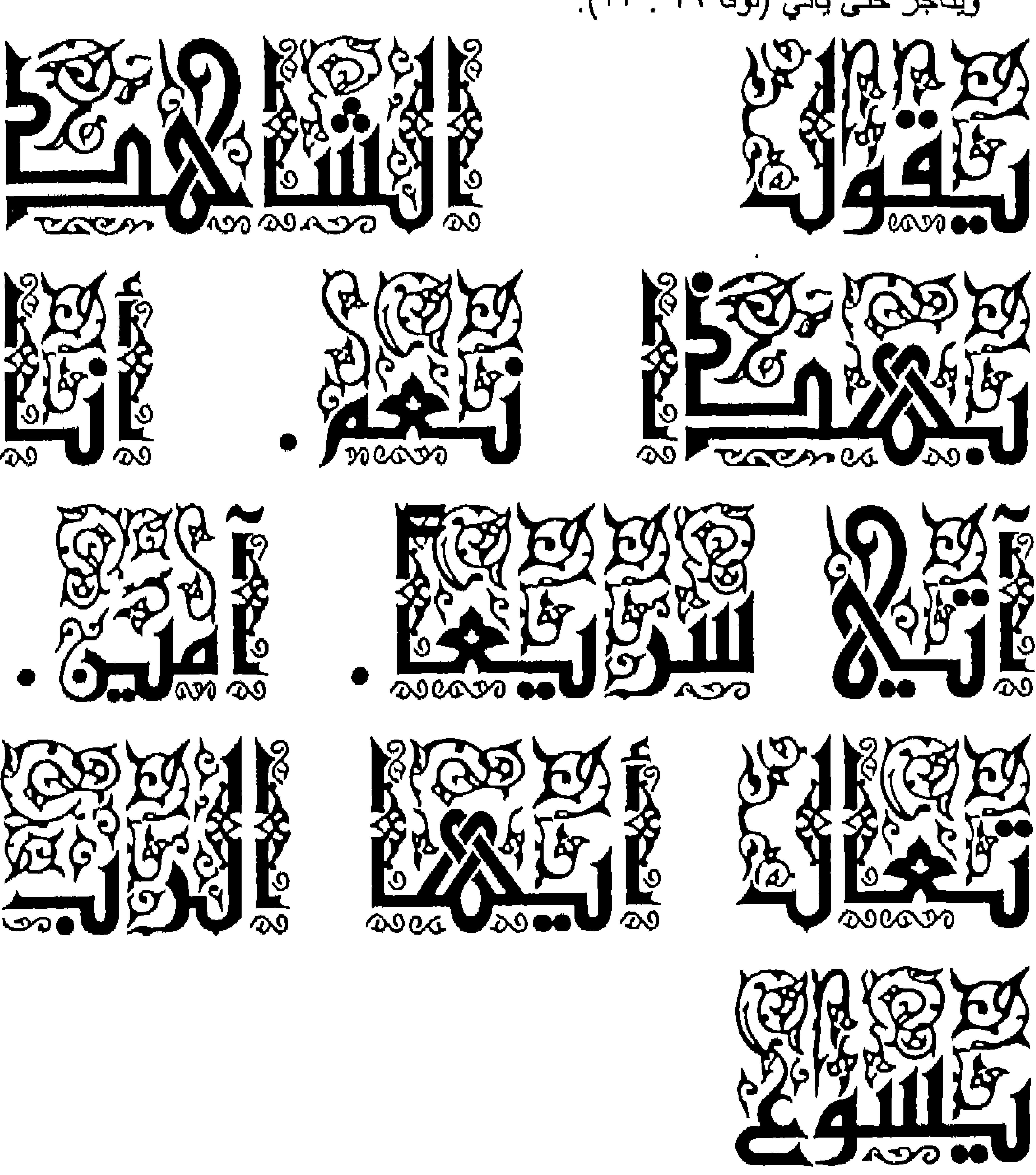
(١) نتحير أحياناً أمام هذا السؤال القديم : " هل ينتصر البر حقاً في النهاية؟ هل تبطل الخطية فعلاً وتباد قوتها؟ أما حقيقة مجئ المسيح الثاني فإنها تقدم لنا جواباً إيجابياً قاطعاً. فلا شك في أن المسيح سوف يملك وتجثو باسمه كل ركبة – طوعاً كان أم قهراً. إننا نحن نحارب في جيش الغالب القهار.

(٢) إن هذه الحقائق تدعونا فرداً فرداً إلي أن نتأكد عما إذا كنا آمنا حقاً بالمسيح فادياً شخصياً لآثامنا ومخلصاً حياً لحياتنا ، بل عما إذا كنا قد قبلناه رباً وملكاً وسلمنا له أرواحنا وأجسادنا. لا يلزمنا أن نتأخر إلي مجئ المسيح في مجده ، لأنه حينئذ تكون قد إنتهت فرصتنا وقد كملت أيام النعمة. بل يأتي المسيح في ذلك اليوم حاكماً وقاضياً. اقبله الآن! إعترف بخطاياك له! سلم حياتك بين يديه! فيمكنك أن تنتظر مجيئه واثقاً فرحاً، لأنك ستختطف إليه في الهواء وسترجع معه في مجده.

(٣) أما من قد قبلوا المسيح حقاً فليست هذه الحقيقة لهم مجرد نظرية عقلية ، بل قوة حية عملية. لأنها تعزيهم أولاً في وقت الحزن والثكل. (١ تسالونيكي ١٣ : ٤ – ١٨ وتيطس ٢ : ١٣) ، وتشجعهم ثانياً وتحملهم علي تكريس حياتهم لخدمته ، لأنهم لا يريدون أن يجدهم المسيح في ظهوره عائشين في الخطية أو الكسل ، بل علي عكس ذلك يريدون أن يستعدوا لملاقاته وللوقوف أمام كرسيه. (ايوحنا ٣ : ٣ – كولوسي ٣ : ٤ و ٥ – ٢ بطرس ٣ : ١٤ – تيطس ٢ : ١٢ – ١ يوحنا ٢ : ٢٨). بل تدفعهم هذه الحقيقة أيضاً إلي الشهادة وربح النفوس ، لأنهم لا يريدون أن يلاقوه بأيد فارغة ، بل كتب بولس " **أنا أناشدك إذاً أمام الله والرب يسوع المسيح العتيد أن يدين الأحياء والأموات عند ظهوره وملكوته – إكرز بالكلمة، أعكف علي ذلك، في وقت مناسب وغير مناسب** ". وفي مكان آخر " **لأنه لابد أننا جميعاً نظهر أمام كرسي المسيح .... فإذ نحن عالمون مخافة الرب نقنع الناس** ".

(٤) أما واجب المؤمن إزاء مجئ المسيح الثاني فهو أن ينتظره (١ تسالونيكي ١ : ١٠ –

عبرانيين ٩ : ٢٨ ـ تيطس ٢ : ١٣) ويحبه (٢ تيموثاوس ٤ : ٨)، وأن يسهر لأجله (متي ٢٤ : ٤٢ ـ مرقس ١٣ : ٢٢ و ٣٧ ـ لوقا ٢١ : ٣٤ ـ رؤيا ٣ : ٣ و ١١) ويتاجر حتى يأتي (لوقا ١٩ : ١٣).



خاتمة

لماذا أنا مسيحي؟

في هذا الكتيب ركزنا أعظم إهتمامنا علي فحص الحقائق التاريخية ، وعلي البحث في الثقة التي يجب أن ننظر بها إلي العقائد المسيحية الأساسية. أما الإعتقاد العقلي فليس له من قيمة تذكر إلا إذا أدت بنا إلي الإيمان القلبي والتسليم الروحي. ولذلك اريد أن أصرح في الختام ، وبغاية الإيجاز ، بالدوافع التي حملتني علي أن أعتنق المسيحية.

ورب سائل : وماذا تعني بالدوافع التي حملتك علي أن تصير مسيحيا؟ هل أنت متنصر؟ ألم تولد مسيحيا؟ في أية ديانة ولدت؟ وجوابا علي هذا نقول: لقد ولدت فعلاً من والدين مسيحيين ، وكنت لا أختلف عن أي من مواطني بلدتي .. فهذا مسيحي ، وذلك مسلم ، وذاك يهودي لأن والد كل منهم او جده أو المحيط الذي ولد فيه مسيحي أو مسلم أو يهودي. إلا أن ، هذا الإنسان ، قلما وقف يفكر في قلبه متسائلاً : لماذا أنا مسيحي أو مسلم أو يهودي ؟ لماذا أنا كاثوليكي او سني أو بروتستنتي أو شيعي ؟ يذهب إلى الكنيسة أو إلى الجامع أو إلى الكنيس ، ويردد الصلاة مع المصلين ، غير أنه كثيراً ما يفعل ذلك وهو لا يدري لماذا يفعله ، غير أن أباه وأمه وجاره وأهله يفعلون ذلك !.

ولنسأل ما الذي عساه أن يسمع ، ويتعلم هناك ؟

يسمع ويتعلم أن دينه مُنزل من السماء ، وأن جميع الأديان الأخرى كاذبة لا حقيقة دونها ، وأنه وأتباعه وحدهم سيسيرون إلى الفردوس ويتنعمون في جنات السماوات ، وأن جميع الناس الذين لا ينضمون إلى دينه ، وإن شئت فقل حزبه أو طائفته ، سينحدرون إلى الجحيم ، إلى النار المؤبدة المعدة لإبليس وملائكته . إنه يتعلم أن مجرد الإنتساب إلى حزبه يجعله أكمل وأفضل من الخارجين عن طاعة رؤسائه ، فلا يلبس أن يشعر بالرفض والنفور ، والكراهية لهم . وليس غريباً أن يكون هذا الرفض أصلاً لجميع الحروب التي قامت وتقوم في عالمنا العربي .

ولسؤ الحظ أن يرافق الدين ، على الدوام ، التعصب الأعمى أكثر من أي موضوع آخر سواه . لأنه لا يدعو الناس إلى التنقيب عن حقيقة لا يعرفونها ، بل إنما يدعوهم إلى

الإيمان بما يبسطه أمامهم . فالإنسان يكون كاثوليكياً أو بروتستانتياً كما يكون شيعياً أو سنياً ، أو مصرياً أو ألمانياً أو أردنياً أو .. وكثيراً ما يكون الدين بهذه الحالة أرثاً يرثه الإنسان عن جدودة كما يرث كل ما هو في ملكهم وتحت مطلق تصرفهم . ومن نشأت العقيدة السائدة في العالم أن كل من يغير دينه خائن ..!!

لذا ، ورغم ولادتي مسيحياً إلا أنني لم أولد مسيحياً بالمعني الدقيق المفهوم من هذه الكلمة. ومن الميسور أن نعرف علة هذا ، لأنه من المستحيل أن يدخل الإنسان إلي المسيحية الحقيقية من باب الولادة الطبيعية. فلنتأكد من هذه النقطة .. أن بين المسيحية الأسمية والمسيحية الفعلية بوناً شاسعاً كذلك الذي يفصل بين السماء والأرض. فالمسيحي بالاسم ينسب مسيحيته عادة إلي مجرد صدفة ولادته في عائلة مسيحية. أما المسيحي الحقيقي فمسيحيته مؤسسة علي إيمانه القلبي بالمسيح الحي ، إيمان يرجع أصله غالباً إلي قرار شخصي فاصل، قد قبل به المسيح مخلصاً وفادياً وسلم دفة حياته في قبضة يديه ـ ذلك القرار الفصل الذي يسميه الكتاب المقدس بـ" **الولادة من فوق** ". ومن غير هذا القرار لا يستطيع أحد أن يدعو نفسه مسيحياً حقيقياً ، كما قال المسيح نفسه:

" الحق الحق أقول لك. إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله " **(يوحنا ٣ : ٣)**

ما هي إذن الأسباب التي دعتني لأن أكون مسيحياً؟

(١) شعرت أولا ، وما زلت أشعر ، بحاجتي العظمى الجوهرية إلي مغفرة خطاياي. وأما كوني خاطئاً فهذا بديهي لي، ولا يحتاج إلي إثبات منطقي ، إذ أنني أشعر به بكل يقين. ثم أني لا أستطيع أن آتي شيئاً أنال به غفراناً من إله قدوس طاهر ، هذا لا يكاد يقل عن الحقيقة الأولي وضوحاً وتأكيداً ، لأنه من المستحيل علي أن أقوم بعمل ما لا تشوبه شائبة من الخطية، أو أن أعمل شيئاً يكفر عن الماضي ، بل لا يمكنني أن أحيا يوماً واحداً بلا دنس الخطية. فكيف إذن أطمع في غفران من إله قدوس عادل؟.. إنني لا أنتظر هذا إلا عن طريق المسيح وخلاصه المجيد. وأشهد شهادة ملؤها الفرح أنني وجدت سلاماً ويقيناً في الغفران في إتكالي علي المسيح الفادي. لذا فلست مسيحياً لمجرد إعتقادي بأن السيحية تساعدني على البلوغ إلى السماء ، لأن معرفتي لما سيحدث بعد الموت ضيقة محدودة ولا تستطيع أن تكون ذات قوة فعالة تميل بحياتي كيفما أرادت . كلا ، ولا للخوف من الجحيم أقل تأثيراً على مسيحيتي ، لأنني أعتقد بأن الرأي القائل بالعذاب الجهنمي والنار الأبدية غريب عن طبيعة الإله الذي أؤمن به .إنني أكون سعيداً ههنا ، في هذه الحياة ، إذا تبعت

خطى يسوع المسيح الحي ، وأكون تعيساً ههنا ، في هذه الحياة ، إذا رفضت اتباعه واكتفيت ببعض المبادئ أو القيم ، مهما كانت براقة .هذه عقيديتي بكاملها وليس للسماء أو للجحيم دخل فيها البتة .

(٢) ثم شعرت بشئ أعمق من هذا – إذ أدركت أني لا أحتاج إلي الغفران فحسب، بل إلي التطهير أيضاً ، لأنني لم أكن قد إرتكبت خطايا معينة وكفى، بل أني أثيم في ذاتي. وفي الحقيقة لست أنا بخاطئ بسبب الخطايا التي إرتكبتها، بل أني أرتكب الخطايا بدافع الخطية الموجودة في قلبي ، فكيف إذن يرجو مثلي ، وقد لوثت الخطية طبيعته كلها ، في أن يتمتع بشركة روحية بينه وبين إله طبيعته كلها قداسة؟ كيف أتمتع بهذه الشركة الروحية في هذه الحياة الدنيا .. وكيف أدخل إلي حضرته تعالي في الآخرة؟ حقاً إنه لا يجديني نفعاً أي صلاح أدبي ، لأن محاولاتي في الإصلاح إنما قد كشفت لي عن حالة قلبي الدنسة. ولكني – ولله الحمد – وجدت في المسيح، والمسيح وحده، ملء إحتياجاتي ، إذ أدركت أن المسيح سفك دمه الكريم ليطهرني من دنس الخطية، وأن الله القدوس الطاهر قد غض الطرف عن خطاياي كلها، إذ قبلني في شخص المسيح الكامل. **" إذ لنا أيها الاخوة ثقة بالدخول إلي الأقداس بدم يسوع".**

(٣) ثم لقد قادني إختبار آخر إلي هذا المخلص الوحيد. لأني لست أشعر بإحتياجي إلي الغفران والتطهير فقط ، بل أيضاً بحاجتي الماسة إلي قوة جديدة تمكنني من أن أقاوم قوة التجارب المروعة، وأن أحيا بحسب مبادئ المسيح السامية. أما هذه القوة فلم أجدها في نفسي البتة ، لأني فشلت من نفسي فشلاً ذريعاً مستديماً. بل شعرت بحاجتي إلي مخلص إلهي قدير، يحررني من عبودية الخطية ويغير قلبي تغييراً شاملاً .. بل يحل في قلبي ويحفظني. أما هذا المخلص فليس سوي المسيح وحده. وقد تحققت في إختباري أنني كلما إتصلت بالمسيح في حياتي اليومية كلما تمتعت بلذة الغلبة علي قوة الخطية.

هذه هي حاجاتي العظمى .. وهي التي حملتني علي قبول المسيح الرب. ومذ قبلته، فقد أيد إختباري العملي صدق الإنجيل.

(١) غير أني ضعيف وناقص في حياتي الروحية، إلا أني أشهد للغبطة الروحية الصادرة عن شركتي القلبية مع الله ، ولحقيقة إستجابة الله لصلواتي ، لإرشاد الله العملي ، ولقوته الفائقة.

(٢) وفي الوقت نفسه قد تمتعت بإمتياز مقابلة أناس كثيرين هم شهادات حية ناطقة

بقوة إنجيل المسيح .. أناس قد نقل الإنجيل حياتهم من عبودية الخطية ومن هوة اليأس إلي القداسة والسعادة، فتشهد أسارير وجوههم لهذه القوة الإعجازية.

(٣) ثم أشهد ، أيضا، بأن حقائق المسيحية تقنع عقلي وتشبع إدراكي. فمع أن مشكلات مختلفة تظل بطبيعة الحال باقية من غير أن أسبر غورها ، حتى " أعرف كما عُرفت " ، إلا أن صليب المسيح هو المفتاح الذهبي الوحيد لمعظم معضلات الحياة ، من خطية وألم وتضحية وما إليها. أما المخلص المصلوب، والرب المقام، والملك الآتي، فإن العقل والقلب ، الإدراك والوجدان ، تجد فيه إقناعا وراحة وسلاما.

(٤) فقد أصبح الكتاب المقدس أيضا منجما ملؤه غنى روحي. فمع أنه قد يبدو مملاً أحيانا لغير المؤمن، إلا أن الكتاب كله ينكشف للمسيحي عن وحدة إعجازية عجيبة تشير كلها ـ بإجماع إلهي ـ إلي المخلص الوحيد.

(٥) وأخيرا .. لم أجد في المسيح فلسفة كافية مقنعة وكفى ، بل غاية أيضا أحيا لأجلها ألا وهي أن أخدم فادى المجيد وآتي بالآخرين إلي المخلص الذي يقدر وحده أن يسد إحتياجاتهم كلها.

ماذا أنت فاعل؟

بحثنا في الفصول السابقة في الإعلان المسيحي ، وسألنا أنفسنا عما إذا تدفعنا دفعا إلي أن المسيح عاش فعلا وحقا كما تحدثنا البشائر، شخصا فريدا في كل وجه من وجوه شخصيته .. ثم مات كفارة عن خطايانا، وقام منتصرا علي قوات الشر ، ولسوف يأتي ثانية ملكا ظافرا.

وإذا كانت الحقائق هكذا ـ كما هي حقا ـ فليس في العالم أجمع حقيقة أخرى تساويها. فإذا كان المسيح حقا رب المجد ـ الإله السرمدي ظاهرا في الجسد ـ وإذا كان قد أحبك أنت لدرجة أنه مات لأجلك علي صليب العار ، أفليست هذه الحقيقة أعجب شئ في الوجود؟ وإذا كان المسيح ـ مخلصا حيا مقاما ـ يتطلب حياتك ، فهل من شئ يوازي هذه الدعوة الإلهية؟ وإذا كان المسيح سوف يأتي عن قريب ملكا وربا ، فماذا يهمك إلا خدمته وإتمام مشيئته؟ حقا لا خطية في العالم تحاكي خطية من يواجه المسيح الحي ثم يرفضه أو يعرض عنه، ويتجاهل مطاليبه..

" لأنه إن كانت الكلمة التي تكلم بها ملائكة قد صارت ثابتة، وكل تعد ومعصية نال مجازاة عادلة، فكيف ننجو نحن إن أهملنا خلاصاً هذا مقداره ، قد إبتدأ الرب بالتكلم به ثم تثبت لنا من الذين سمعوا، شاهداً الله معهم بآيات وعجائب وقوات متنوعة "

" انظروا أن لا تستعفوا من المتكلم. لأنه إن كان أولئك لم ينجوا إذ استعفوا من المتكلم علي الأرض، فبالأولي جداً لا ننجو نحن المرتدين عن الذي من السماء ".

ونقرا أيضا :

" لأنه لم يرسل الله ابنه إلي العالم ليدين العالم، بل ليخلص به العالم. الذي يؤمن به لا يدان. والذي لا يؤمن قد دين لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد. هذه هي الدينونة – إن النور قد جاء إلي العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعماله كانت شريرة "

وإذا ما ظل أحد – رغماً عن كل هذه الأدلة – غير مقتنع بحقيقة المسيح ، فعليه أن يقرأ بشارة يوحنا طالباً من الله أن يعلن له حقيقة المسيح بشرط أن يكون علي كمال الإستعداد أن يتبعه إلي النهاية (كما رأينا في الفصل الخامس) ..لأن المسيح قد وعد وعداً صريحاً :

" إن شاء أحد أن يعمل مشيئته (الله) يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلم أنا من نفسي "   (يوحنا ٧ : ١٧)

ولكن، إذا ما اقتنعت، يا أخي، بحقيقة المسيح، فعليك إذن أن تخطو خطوة حاسمة بأن :

(١) تقر بأنك خاطئ هالك.
(٢) تقبل المسيح مخلصك الشخصي الوحيد، الذي مات عنك بالذات ورفع عنك خطاياك.
(٣) تسلم حياتك بين يديه تسليما كليا.

وعندما تخطو هذه الخطوات الثلاث، يهبك الله فوراً غفراناً، وتطهيراً، وحياة أبدية ، وقلباً جديداً. قال المسيح :

" الحق الحق أقول لكم – إن كل من يعمل الخطية هو عبد للخطية .... فإن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً "   (يوحنا ٨ : ٣٤)

" خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتتبعني. وأنا أعطيها حياة أبدية ولن تهلك إلي الأبد ولا يخطفها أحد من يدي. أبي الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل – ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبي " (يوحنا ١٠ : ٢٨)

" من يقبل إلي لا أخرجه خارجاً " (يوحنا ٦ : ٣٧)

" من له الابن فله الحياة ومن ليس له ابن الله فليست له الحياة " (١ يوحنا ٥ : ١٢)

وفي الختام ، أرجو أن تسمح لي قارئ العزيز بأن أهديك هذه الإقتباسات من كتاب " لا أؤمن بهذا الإله .!!"

" أجل ، لن أؤمن أبداً .. بإله يباغت الإنسان في خطيئة ضعف..

إله يشجب المادة ، إله يعيبه الجواب عن المشاكل الخطيرة التي يواجهها إنسان مخلص مستقيم يقول له باكياً : " لا أستطيع " ..

إله يحب الألم ، إله يعترض على أفراح البشر ..

إله يعقم عقل الإنسان ، إله منجم مشعوذ ..

إله يفرض رعبه في القلوب ، إله يرفض أن نخاطبه بالكاف ..

إله عجوز قابل للخداع ..

إله تحتكره كنيسة ، أو عنصر ، أو ثقافة ، أو فئة معينة ..

إله لا يحتاج إلى الإنسان ..

إله " يانصيب " لا يمكن الحصول عليه إلا مصادفة ..

إله متوحد ..

إله لا يحسن الابتسام أمام حيل البشر وخداعهم

إله " يرسل " الناس إلى جهنم ، إله لا يحسن الرجاء ..

إله دوماً العلامة القصوى في الإمتحانات ..

إله تستطيع الفلاسفة تفسيره ..

إله يعبده الذين يقدرون على إدانة إنسان ..

إله لا يستطيع حب ما يزدريه الكثيرون ..

إله لا يستطيع مسامحة ما يدينه الكثيرون ..

إله لا يستطيع افتداء البؤساء ..

إله لا يفهم أن " الأطفال " لا بد أن يتوسخوا ، وأنهم معرضون للنسيان ..

إله يمنع الإنسان من النمو ، والفتح ، والتطور ، وتجاوز حدوده إلى أن يجعل من نفسه " شبه إله " ...

إله يفرض على الإنسان ، إن ابتغى الإيمان ، أن يتنازل عما يجعل منه إنساناً ..

إله يستطيع أن يقول :" سوف تدفع لي الثمن " ..

إله يتندم على أنه أعطى الحرية للإنسان ..

إله يحب الحرب ، إله يجعل الشريعة فوق الضمير ..

إله لا يستطيع أن يجعل كل الأشياء جديدة ..

إله لا يوجه كلمة مميزة ، شخصية ، خاصة ، إلى كل فرد ..

إله لا يكون النور .. إله يفضل الطهارة على الحب ..

إله لا يوحي بنفسه مرة واحدة لمن يتوق إليه بإخلاص ..

إله لا يحسن تقديم فردوس نكون فيه جميعاً أخوة حقاً ..

ولا يكون مصدر النور فيه من الشمس والكواكب فحسب ، بل من الناس الذين يُحبون ..

إله لا يكون محبة ولا يحسن تحويل كل ما يمسه إلى محبة ..

إله لا يصبح إنساناً حقاً مع كل ما يترتب على ذلك من تبعات ..

إله لم يولد ولادة عجيبة من أحشاء إمرأة ..

إله لا يسعني أن أرجوه فوق كل رجاء ..

أجل ، إن إلهي هو الإله الآخر "

(من كتاب : لا أؤمن بهذا الإله ، تأليف : خوان أرياس ، ترجمة : الأب كميل حشيمة اليسوعي ، دار المشرق ، بيروت)

هذا الكتاب

بما أن البعض يعتقد بأن الإيمان والمنطق يتعارضان ، إذ يعتبر البعض الإيمان ما هو إلا تسليم ساذج بحقائق دينية معينة ، بينما هي على العكس من ذلك تماما .فالإيمان هو حالة من القلق والإنفتاح اللامحدود على الكائن الأعلى فاتفاعل معه ، مما يؤدي إلى الإكتشاف ، وهذه اللحظة الكشفية هي التي تقفز بالإنسان الى رحاب الإيمان ، محتفظة في الوقت نفسه بالمعية المنطق ، وادراك ما كان غير مكشوف للانسان قبل هذه القفزة .فإلى هؤلاء ، الذين أغمضت عيونهم عن أن يقرأوا كتبا تفيض بنور الحق واليقين الإختباري ، أوجه الرجاء أن يطالعوا هذا الكتاب قبل أن يصدروا أحكامهم عن شخص المسيح ، أو أن يعيدوا النظر في قضية إيمانهم فيستمعوا للشهود من كل جانب ، ويزنوا الأدلة بميزان العدل والإنصاف ، ولهم بعد ذلك أن يصدروا حكمهم .ولست أريد أن تخفى على أمثال هؤلاء قصة ذلك الفتى الذي دخل إحدى المتاحف التي تحوي صور شهيرة ، وبدأ يهزأ من تلك الصور ، عندئذ إلتفت إليه المراقب وقال بنغمة جارحة : "تذكر يا بني أننا وضعنا هذه الصور لا ليحكم عليها الناظرون ، بل لتكون هي حكما على الجميع . لأنها اجتازت فترة الإمتحان بنجاح باهر"

فبحكمك أيها القارئ ، على شخصية المسيح الفريدة المقدمة لك في هذا الكتاب ، أو بحكمك لها ، تحكم على نفسك أو لها . فاقرأ صفحة نفسك وأنت تقرأ هذا الكتيب ، واصغ إلى همس ضميرك قبل أن تقول كلمتك فيه ، فإن مرآة صافية تتجلى فيها شخصية المسيح الحي .

المؤلف